حسن محمد عوض الله
رواية
عِزبة فِرعون
أرض الأمـــوات
الطبعة 3

عِزَبَةُ فِرعَون
أرض الأموات

حسن محمد عوض الله
الطبعة الثالثة، القاهرة 2021م
غلاف: أحمد فرج
تدقيق لغوي: نهى عبد الستار سعد الدين
رقم الإيداع: 14738 / 2021
I.S.B.N: 978-977-488-759-8

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار

دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01111947957

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

المقاومة

(1)

الغربية عام 1945

هذا العام يمثّل المشهد الافتتاحي في مسرحية حمراء تتابعت فصولها حتى اشتعلت الحرائق في كل مكان،في ذلك اليوم البشرية تذكّرت الفزع.. الإذلال من كل شيء.. الخوف كان يحيط بهم جميعًا من الاحتلال الفكري والاغتصاب البدني يحاولون التحرر مرارًا وتكرارًا و لكن بدون جدوى..ستكون النهاية محتومة لا محالة.

لم تكن فقط البداية....السماء مليئة بالغيوم الرمادية الداكنة والرياح أعلنت سيطرتها في أرجاء البلاد أوراق الشجر الكثيفة تتساقط لتعلن عن حلول فصل الخريف..ترجرجت عربة الحنطور بسائقها البدوي صاحب الجسد الهزيل الضعيف في وحل تلك الأرض السوداء كانت العربة تخوض طريقًا ضيقًا غير ممهدًا مليء بالحفر يهتز جسد السائق بشكل مستمر نتيجة عدم استقرار الأرض.. وبين حين وآخر تغوص عجلات العربة في تلك الحفر المليئة بالمياة..

داخل صندوق عربة الحنطور تجلس (فاطمة) صاحبة التاسعة عشر عامًا تخبئ جسدها الناعم اللّدن أسفل خمار أسود فاحم، ونقاب يخفي وجهها الدقيق والذي لا يُظهر سوى عينيها الواسعتين التي حاصرها الكحل ليعطي لها

بريقًا لامعًا.. لا يمر من الوقت الكثير حتى توقفت العربة في الوحل وصوت صهيل الحصان وصل إلى عنان السماء.. بلع سائق الحنطور ريقه بصعوبة وهو ينظر بريبةٍ نحو سيارة مُصفَّحة تعارضه بداخلها أربعة عساكر من الجيش الإنجليزي ينظر أحدهم له وهو يبتسم بطرف فمه ابتسامة لزجة ظهرت على قسمات وجهه البارد لم تفهم (فاطمة) شيئًا وهي داخل صندوق العربة فشعرت باضطراب بأن هُناك شيء غريب يحدث في الخارج..

خرج العساكر من سيارتهم المُصفحة و هم يقتربون نحو عربة الحنطور بخطوات تدلُّ عن نيّتهم..حاول السائق البدوي أن لا يظهر خوفه و أن يسيطر على أعصابه التي اقتربت على التّلف و لكنه فشل في ذلك..

تقدم أحد العساكر و في يده عصا سوداء اللون يحركها بسهولة من بين يديه ثم وقف مستقيمًا أمام العربة و ظلّ بقية العساكر مصطفّين خلفه.. ظلّت عيناه مُتصلبةً على السائق البدوي للحظات حتى قال بلغة عربية مكسرة:

- واخد حنطورك و رايح على فين؟

توتر السائق قليلًا و زاغت عيناه يمينًا و يسارًا و قبل أن يتفوّه بكلمة تابع العسكري الإنجليزي من جديد بنفس النبرة:

- مش بترد ليه هو أنت أخرس؟ قالها وهو يضحك و ينظر إلى أصدقائه الذين بادلوه نفس الضحكة الخبيثة..

بلع السائق ريقة بصعوبة وهو يقول متلعثمًا:

- رايح العزبة

ابتسم له العسكري ابتسامة باهتة وهزّ رأسه متفهمًا قوله واقترب نحو صندوق العربة ليرى من بداخله، استجمع السائق شجاعته الآن وهو يحاول منعه من أن يفتح صندوق العربة بكل ما أوتي من قوة، فأتت ضربة من بقية العساكر على رأس السائق طرحته أرضًا صرخ السائق بصوت مكتوم جعل (فاطمة) تشعر بالريبة وهي في الداخل..

أزاح العسكري باب الصندوق ليجد (فاطمة) تجلس بداخله ظهر التوتر على عينيها رغمًا عنها، ابتسم العسكري حتى ظهرت أنيابه وهو يمدُّ يده نحوها ويخرجها بقوة ليرتطم جسدها الرقيق على الأرض في الخارج، نظرت بطرف عينيها فوجدت السائق مستلقيًا بجوارها ينزف دمًا ينظر لها نظرات ضعف وانكسار نظر العسكري إلى أصدقائه و هو يبتسم و أشار لهم برأسه نحوها، تحرك بقية العساكر اتجاهها، أما هي فحاولت أن تبتعد بجسدها للوراء قبل أن يصل إليها أحدهم، حتى نهضت بخفة و ركضت من أمامهم وسط الأشجار الكثيفة و تساقطت أوراقها، هرول العساكر نحوها ليلحقوا بها أمّا هي فاستمرت في الفرار، لا يمر إلا القليل حتى سقطت (فاطمة) من جديد على الأرض وصوت الريّاح أصبح يزوم من حولها ليعلن عن ضعف حيلتها وانكسارها، أمسك بها العساكر وهم يضحكون بصوتهم العالي و لعابهم يسيل، كانت نيّتهم واضحة منذ البداية انتزع أحدهم النقاب ليظهر وجهها الملائكي الدقيق..فصرخت صرخة عالية دوّت المكان بأكمله..

حاول الآخر أن ينتزع باقي ملابسها ليرى جسدها المتوهج الناعم أغمضت عينيها وهي تحاول أن تقاوم استنفذت ما بقي منها من قوة، لكن دون جدوى في هذا الوقت سمعت صوت بارود ومن بعدها هدأت المقاومة..

ظلّ جسدها يرتعش حتى فتحت عينيها ببطء شديد و نظرت فوجدت العساكر جميعًا ملقون بجوارها غارقين في دمائهم لم تفهم في بادئ الأمر ما الذي حدث فتوجهت بنظرها فرأت أمامها شخصًا ضخم الجثة يقف مستقيمًا و بيده مسدس بدائي الصنع يخفي وجهه تحت شال أبيض، هرول نحوها بخفة وساعدها على النهوض نظر إلى عينيها و أردف قائلًا:

- أنتي كويسة؟

مازالت عيناها مُتصلبةً في عينيه فقد وجدت الأمان أخيرًا صدرها يعلو و يهبط بشكل سريع غير منتظم أعاد سؤاله وهو يقول:

- أنتي كويسة طمنيني عليكي حد من الوساخة دول أذاكي؟

تشبثت في ملابسه وهي تنظر إلى الجنود وهم مُلقون تحت أقدامها.. بلعت ريقها بصعوبة وهي تقول بصوتها الناعم:

- أنا بخير الحمد لله

بدت لهجتها غريبة على أذنه فقال:

- لهجتك غريبة أنتي مش من هِنا؟

هزت رأسها نافية وهي تقول:

- أنا من بحري و جاية لخالي (بدير البهنساوي) وعاوزة أوصل للعزبة.

ابتسم لها وهو يقول:

- أنتي قرّبتي جدًا من العزبة متقلقيش كلها 100متر وتوصلي ومحدش هيقدر يقربلك أنتي بقيتي خلاص في أمان

شعرت بإحساس غريب بداخلها نحو ذلك الشاب الذي أنقذها من هؤلاء، وقلبها أصبح يرقص فرحًا بوجوده ولكن هي فقط من شعرت فهو لم يكن يعلم ما هو هذا الشعور..قالت بودٍ:

- ممكن أعرف اسمك؟

نظر طويلًا إلى عينيها الواسعة دون أن يتفوّه بكلمة فأتى صوت صديقه من بعيد وهو يقول:

- (فرعون) لازم نتحرك حالًا قبل ما يشموا خبر بوجودنا

نظر إلى صديقه ثم عاد بنظراته نحوها وهو يقول بلطف:

- خلي بالك من نفسك..

أنهى جملته الأخيرة و تركها و هرول هو و صديقه بعيدًا، و

ما زالت عيناها مُتصلبة عليه حتى اختفى من أمامها فردّدت اسمه هامسة قائلة:

- (فرعون)!!

***

في ريف مصر القديمة توجد عزبة صغيرة نائية يلفُّها الضباب في الصباح والاحتفالات والتهليل في المساء، يتوسط تلك العزبة منزل كبير لعائلة الحاج (رفعت السويسي) مالك تلك العزبة بأكملها، يهابه الجميع فلا يحدث شيء صغير أو كبير إلا و يكون هو على دراية به و بموافقته..وبرغم كل ذلك فكانت بشاير هذا اليوم على غير العادة على عائلة الحاج (رفعت السويسي) الساعة الآن اقتربت من الرابعة صباحًا صوت قرآن الفجر أصبح يعلو من المسجد المجاور للمنزل داخل العزبة..

داخل غرفته الكبيرة في الطابق الثاني من المنزل كان الحاج (رفعت السويسي) نائمًا فوق فراشه نصف عقله واعي والنصف الآخر مستسلمٌ للنوم، وجد نفسه فجأة داخل حلم بدون أن يشعر،شعر بهجوم و مشاهد غير منطقية يرى نفسه واقفًا في وسط عزبته، الضباب يحيطه من كل اتجاه يسمع صوت نحيب و بكاء تارة وصوت ضحك تارة أخرى، يدور حول نفسه لا يستطيع أن يميّز من أين يأتي هذا الصوت، ظلّ يتلفت يمينًا و يسارًا حتى نجح في معرفة اتجاه الصوت أصبح يسير بخطوات بطيئة وهو يخترق الضباب

الكثيف حتى وجد نفسه أمام المظلّة الذي يجلس أسفلها دائمًا اتسعت حدقة عينيه عندما رأى ابنه (صدّام) يجلس و بجواره فتاة لم يرها من قبل ولكنها تماثله في العمر أيديهم متشابكة ينظرون إلى بعضهم البعض و يضحكون ثم ينظرون إلى بعضهم مرة أخرى و يبكون بصوت مخيف، ولكن الذي أدهشه أنهم كانوا ينزفون دمًا بغزارة.. فجأة ظهرت ابنته (فاتن) تقف خلفهما وتحمل طفلًا صغيرًا وتشير بيديها إليه وجد (رفعت السويسي) نفسه يقف مندهشًا من هذا المشهد يعلم أنه داخل حلم و رغم ذلك لا يستطيع أن يستيقظ وجد ابنه يمدُ يده في وجهه هو الآخر لكي يساعده، و لكنّ شيئًا ما أوقف (رفعت) جعله لا يستطيع الحراك ظلّ هكذا حتى وجد صورة أبنائه و تلك الفتاة الجميلة تتلاشى من أمام عينه

نهض من الفراش مفزوعًا من نومه صدره يعلو و يهبط بشكل غير منتظم، مدّ يده و أضاء النور و أخذ الكوب النحاسي الموضوع على المنضدة بجواره وتجرّع الكثير من المياة لكي يهدأ العرق المغطي لوجهه.. ملابسه أصبحت ملتصقة بجسده من شدة العرق والخوف.. سمع الآن صوت الفجر يؤذن، مسح وجهه بيده وهو يستعيذ من الشيطان و ينهض للصلاة

***

مرّت نصف ساعة حتى انتهى (رفعت السويسي) من صلاة الفجر داخل غرفته لا يستطيع اليوم أن يذهب إلى المسجد للصلاة، ظل جالسًا على سجادة الصلاة يدعو الله أن يحفظ

ابنه (صدام) من بطش الجيش الإنجليزي، انتهى من الدعاء وأخرج مصحفًا صغيرًا و أصبح يرتّل آياته بصوت خفيض حتى تسلّلت أشعة الشمس إلى غرفته.. أغلق المصحف ونهض من مجلسه ربع ساعة كانت كافية حتى انتهى من ارتداء ملابسه استعدادًا للذهاب، وقف أمام المرآة يهندم عباءته السوداء التي تعطي له وقارًا وهيبة أكثر مما هو عليه.. وينمّق شاربه الكث الذي يملأ وجهه العميق ورغم كبر سنه إلا إنه ما زال يحتفظ بهيبته و وقاره ، هُناك حركة غير طبيعية في خارج غرفته تقدّم بخطوات واثقة بعد ما أمسك عكازه..فتح الباب الخشبي الكبير لغرفته ودلف للخارج وهو ينظر ليجد جميع نسوة المنزل يهرولون تجاه الغرفة المقابلة لغرفته،كان ينظر لهم بعين ثاقبة حتى وقفت أمامه إحداهن وهي تمسك في يديها قطعة قماش ناصعة البياض و تبتسم في وجهة و تقول بصوتها الناعم الحماسي:

- مبروك يا حاج مرات ابنك (عبد المنعم) بتولد هتبقى جد يا حاج، انتهت من جملتها وهرولت هي الأخرى نحو الغرفة المقصودة

طرقت على مسامعه كلماتها، تلك الكلمات التي كان منتظرها منذ زمن، فظهرت ابتسامته على قسمات وجهه العميق ، تقدّم بقدمين ثابتتين حتى وصل أمام تلك الغرفة دفع الباب بيده ونظر، وجد صوت صياح من زوجة ابنه "عبد المنعم" كانت في حالة لا يرثى لها مستلقية تتوسط الفراش تتصبب عرقًا لم يرها في تلك الحالة من قبل يلتف حولها

جميع النسوة وهي تحاول أن تدفع الطفل للخارج نظر إلى ذلك المشهد المُهيب ثم استدار، كان عليه في هذا الوقت أن يرحل و قبل أن يغادر سمع صوت بكاء الطفل قد أتى للحياة البائسة تلك، رقّ قلبه وابتسم و عاد بالنظر نحو زوجة ابنه، فتقدمت إحداهن نحوه وهي تحتضن الطفل بعد ما وضعته في قطعة القماش البيضاء و عيناها تملؤها الدموع قائلة:

- ولد يا حاج.... يتربى في خيرك

فك الجمود الذي كان يحتل وجهه وابتسم في وجهها، فهو حتى الآن غير مصدق لما يدور حوله، امتلأت عيناه بالدموع هو الآخر وحمله بين يديه الضخمة ومال بوجه حتى قبّل جبينه ثم أذّن في أذنه بصوته الغليظ

" الله أكبر.. الله أكبر "

***

في نفس اليوم ذهب (رفعت السويسي) تاركًا خلفه الاحتفالات والتهليل بمولد حفيد عائلة السويسي و ذهب للخارج نحو مكانه المفضل ، كان يتوارى من أعين أهل العزبة حتى جلس في ركن هادئ تحت المظلة التي يجلس أسفلها دائمًا، وضع ذقنه فوق قبضة يده واستند بعكازه وهو ينظر للخضرة التي تحيط به تداعبت وجهه تلك النسمات الهادئة فأغمض عينيه وهو مستمتع بها..كان الهدوء يخيّم على الأجواء كان يعشق هذه السكينة التي لا تخرجه عن الواقع. قطع هذا الهدوء صوت غليظ من خلفه لصديق له تابع بصوته

قائلًا:

- مبروك يا (رفعت) سمعت بمولود عيلة السويسي الجديد

نظر الأخير بطرف عينه نحو الصوت ليجد صديقه (بدير البهنساوي) يقف مستقيمًا خلفه، أشار (رفعت) بيده ليجلس بجواره، تقدّم (بدير) حتى جلس بجانبه ثم نظر هو الآخر للأمام نحو الخضرة قائلًا:

- مش هتتغير يا (سويسي) سايب كل الناس و كل الاحتفالات و جاي تقعد لوحدك هنا كالعادة بس المهم ناوي تسمي حفيدك إيه؟

ابتسم (رفعت) ابتسامة صافية وهو يقول بصوته الرخيم:

- (راشد) هسميه راشد

- اسم جميل ثم ابتسم (بدير) و أتبع قوله (راشد عبد المنعم رفعت السويسي) هو صحيح مفيش أخبار عن ابنك (صدّام) لحد دلوقتي؟

هزّ (رفعت) رأسه نافيًا و أخرج زفيرًا هادئًا وهو يقول:

- منعرفش عنه حاجة من ساعة آخر عملية نفّذها قدام الإنجليز وطبعًا أنت عارف الجيش الإنجليزي كلّه بيدوّر عليه

- ابنك بطل من أبطال المحروسة يا (رفعت) خليك فخور بيه ده بطل ابن بطل طالع لك في كل حاجة

ابتسم (رفعت) بداخله لأنه تأكد أن صديقه حتى الآن لا

يعرفه جيدًا و لا يعرف حقيقته

- أنت خايف؟ قالها صديقه في وجهه

هزّ (رفعت) رأسه وهو يقول:

- كلمة خايف دي قليلة يا (بدير) أنا مرعوب الإنجليز مش هتسكت غير لما توقّع (صدّام) في شباكهم أنا عارفهم كويس دول ولاد هرمة

- ما تخفش على ابنك يا (رفعت) ابنك جيش بحاله بيدوّر عليه ومش عارفين يمسكوه، متقلقش..انتهى من جملته الأخيرة وهو يربّت بيده على كتف صديقه الذي هزّ رأسه في وضعية الرضا والقبول.. نهض (بدير) و ترك صديقه بمفرده، أخذ (رفعت) نفسًا ملأ صدره بالهواء النقي ووضع يده فوق المقعد لينهض هو الآخر ولكن شيئًا ما أوقفه شعر بمادة لزجة التصقت بيده نظر وتحسسها وجدها نقطه من الدماء جحظت عينه و شعر بالرّيبة عندما تذكّر الحلم الذي رآه..

***

اختفت الشمس و تسلّل اللّيل على جميع أهل العزبة في هذا الوقت وقفت (فاطمة) في بهو منزل خالها (بدير البهنساوي) تشم رائحة الهواء الريفي النقي من النافذة وهي تلعب بخصلات شعرها بأصابعها الناعمة وجدت شخصًا على الجهة المقابلة للمنزل يتسلّل من فوق سور العزبة بحرص شديد لداخل العزبة وهو يتلفت يمينًا و يسارًا و كأنه خائف من شيء، يخفي وجهه تحت شال أبيض لا يريد أن يراه

أحد، يريد فقط أن يشارك فرحة عائلته اليوم.. نعم إنها تعرفه جيدًا ذلك الشاب الذي أنقذها من عساكر الإنجليز أمس إنه (فرعون) كما قال له صديقه، ابتسمت و دقّات قلبها وصلت إلى أقصاها و لكن سعادتها لم تدم كثيرًا، سرعان ما لفت نظرها صوت صافرة و ظهور أربع سيارات للجيش الإنجليزي مثل التي رأتها ليلة أمس متربصين له، تذكرت الموقف من جديد و عادت الرعشة إلى جسدها المنتصب الرقيق و لكن ما أفزعها عندما رأت العساكر يلتفون حول (فرعون)، تذكّرت ما فعله معها ليلة أمس اتسعت حدقة عينيها و بدأت ضربات قلبها تعزف أحلى المعزوفات، ركضت نحو الباب فاصطدمت بجسد خالها (بدير البهنساوي) فوقفت والذُعر يظهر على قسمات وجهها فقال بدير في ريبة:

- مالك يا (فاطمة) كنتِ بتجري من إيه و مالك خايفة كده ليه؟

بلعت ريقها بصعوبة وهي تشاور بيديها نحو النافذة بتوتر قائلة:

- مسكوه يا خال مسكوه

قطّب (بدير) حاجبيه وهو يقول:

- مسكوا مين يا بنتي!؟

لم تستطع فاطمة التحدث ظلّت تبكي وهي تشير بيديها نحو النافذة فركض (بدير) نحو النافذة ليرى سيارات الإنجليز على وشك الرحيل (وصدام السويسي) مكبّل

بالحديد بداخلها..

***

لوحة خشبية تعلو دكان صغير منقوش فوقه بخط لا بأس به (بقالة أولاد السويسي) بداخله يقف (متولي الراوي) شخص طويل القامة أسمر البشرة لدية شارب رفيع يعلو شفاتيه الكبيرتين يرتدي جلبابًا فلاحي فضفاضًا و قبعة صغيرة فوق رأسه لتخفي الشعيرات البيضاء التي ظهرت مؤخرًا لتعلن عن اقتراب الشيب يبلغ من العمر 40 عامًا يساعده في البقالة ابنه (محمد الراوي) الذي بلغ عامه الخامس عشر منذ أيام قليلة.. نظر (متولي الراوي) أمامه عندما تسلّل الليل عليه داخل العزبة فوجد (نعيمة) تلك الفتاة التي جعلت كل شباب العزبة يقفون مشتهين بنظرة واحدة من عينيها جسدها بضٌ مشدودٌ ترتدي عباءة لف وخلخال فوق كعبها العالي طاغي النغمة وتسير بدلالٍ شديدٍ نحو (متولي الراوي) ابتسم عندما رآها تقترب من الدكان، دسّ يداه في جلبابه و أخرج في الخفاء حباية صغيرة و وضعها تحت لسانة بسرعة قبل أن يراه أحد.. حتى اقتربت منه و وقفت أمامه بملامحها الجذابة وجسدها البض فقال وهو يبتسم:

- هي العزبة نوّرت من شوية

ابتسمت وهي تريح ذراعها فوق لوح خشبي أمامها و تقترب منه وهي تقول ببحّة مذيبة للأعصاب:

- شـــكّر

قالتها ببطء.. أفاق (متولي) من بين شفتيها وهو يقول:

- الشكّر للشكّر..

ابتسمت وهي تتحكم في عباءتها اللّف حول خصرها وتقول:

- الشكّر شاحح اليومين دول يا سي (متولي) وأنا شغلي كده هيقف في القهوة متبخلش عليّا بيهم يرضيك شغلي يقف

- أبدًا ده أنا أجيبلك الشكّر لحد باب القهوة، المهم ننول الرضا

- إختشي يا سي (متولي) مش قدام الواد الصغيّر، قالتها وهي تنظر إلى ابنه (محمد) الذي يقف بجوارهم يرفع رأسه وهو يتابع الحوار الساخن مبتسمًا من طريقة أبيه، تحوّل وجه (متولي) للجدية و نظر إلى ابنه قائلًا بنبرة حادة:

- خُش جوه الدكان ياض

استمع الصغير له وطقطق رأسه وجرجر قدميه للداخل، في هذه اللحظة نظر فوجد (رفعت السويسي) يسير كعادته في أنحاء العزبة وهو يقترب من الدكان فاستقام (متولي) في وقفته وتغيّرت لهجته في وجه (نعيمة) وهو يقول:

- متأخذنيش يا (نعيمة) كان على عيني أبيعلك سكّر، بس إنتي عارفة السكّر شاحح اليومين دول ومش موجود في أي مكان في الغربية

- السلام عليكم..قالها رفعت عندما اقترب من الدكان نظرت (نعيمة) إلى (رفعت) وهي تقول:

- يرضيك يابا الحاج (رفعت) (متولي) مش عاوز يبيعلي سكّر أنا حالي كده هيقف في القهوة بتاعتي يرضيك "قهوة الحبايب" تتقفل

- مش عاوز تبيعلها ليه يا متولي؟

- يا حاج السكّر مش موجود دلوقتي وهي عايزة كمية كبيرة

نظر إلى وجهها المستدير وهو يقول:

- أنتي عايزة كمية قد إيه يا نعمية؟

- على الأقل عشرة عشرين كيلو، أمشّي بيهم حالي اليومين دول يا حاج

هزّ رأسه متفهمًا قولها وهو يقول:

- روحي على قهوتك يا (نعيمة) وبكره الصُبح هبعتلك حد بالكمية اللي إنتي عايزاها

ابتسمت في وجهه وهي تمدُ يدها وتسحب يده وتقبلها بأدب وتقول:

- ربنا يخليك لينا يا حاج..قالتها و ذهبت بدلال فنظر (متولي) إلى مؤخرتها التي أمامه وهو يجز على أسنانه في انهيار شديد فسحب (رفعت) مقعدًا و جلس فوقه وهو

يقول:

- كفايا بحلقة يا (متولي) وتعالى قولي أخبار الشغل إيه؟

اعتدل متولي في وقفته و هرول نحو (رفعت) وجلس على كرسي بجواره وهو يقول بحزن:

- الحال واقف والله يا خال (رفعت).

تحكّم (رفعت) من عكازه وهو يقول:

- ماهو لو تبطل النجاسة اللي أنت فيها دي والبصبصة على النسوان كان الحال هيكون أحسن من كده بس نقول إيه عيل خـــــــــ..

بلع الكلمة من فوق لسانه عندما نظر بداخل الدكان وجد (محمد) يجلس بالداخل ابتسم له وأمره أن يأتي إليه ذهب إليه الصغير أمسك بيده وابتسم وهو يقول:

- إزيك يا محمد كبرت وبقيت راجل.

- الحمد لله يا جدي.

- عندك كام سنة دلوقتي؟

- 15 سنة يا جدي.

- بسم الله ما شاء الله بقيت راجل يُعتمد عليك بجد.. قولي بقى نفسك تطلع إيه

قاطع حديثهما (متولي) وهو يقول مبتسمًا:

- نفسه يطلع "بكباشي" زي خاله اللي عايش في مصر

نظر إليه رفعت وابتسم وهو يقول:

- البكباشي (محمد متولي الراوي) ربنا يباركلك يا بني علشان أنت اللي هتحمينا وهتحمي العزبة من بعدنا يا محمد

قاطع حديثه (متولي) وهو يميل بجسده نحوه قائلًا:

- سمعنا إن مرات (عبد المنعم) ابنك ولدت النهارده يا حاج ألف مبروك

نظر إليه وهزّ رأسه في وضعية الرضا والقبول وهو يقول:

- الله يبارك فيك يا (متولي) يا بني

- مالك يا خال..هو لسه مفيش أخبار عن صدام برضو لحد دلوقتي؟

هزّ رفعت رأسه بأسى، وقبل أن يتفوّه رأى شابًا صغيرًا يهرول من بعيد وهو يلوّح بيده ويصرخ بصوتٍ عالٍ متجهًا نحو رفعت قائلًا:

- يا حاج رفعت يا حاج رفعت

اندهش رفعت وهو يقول مستفهمًا:

- مالك ياض في إيه؟

قال الشاب من بين أنفاسه المتسارعة:

- فرعون يا حاج

نظر (رفعت) للشاب بخوف وأمسك برسغه وهو يقول بفزع:

- صدام ابني ماله؟؟

- الجيش الإنجليزي مسكه يا حاج

***

في اليوم التالي و مع شروق شمس يوم جديد انتهى (رفعت) من صلاة الفجر ارتدى ملابسه و كان عليه أن يرحل فليلة أمس جعلته مشتت الرأس، ليس لديه حل لإنقاذ ابنه (صدّام) في النهاية خرج من منزله و ركب الحنطور الذي كان منتظره أمام المنزل وذهب به إلى محطة القطار ومن هناك إلى مقر القنصلية البريطانية بالقاهرة..

***

القنصلية البريطانية..

مبنى فخم هادئ تمامًا لا يوجد بداخله حركة كثيرة كان المكان كئيبًا باهتًا، تقدم (رفعت) حتى وقف مستقيمًا أمام مكتب سكرتارية ثم قال بصورة صارمة قائلًا:

- الجينرال (فرانك) موجود؟

نظرت له السكرتيرة من خلف نضارتها من رأسه حتى قدمه ثم أردفت مستفهمة قائلة:

- مين حضرتك؟

هندم عباءته وهو يقول بثبات:

- أنا (رفعت السويسي)

- في ميعاد سابق مع الجينرال (فرانك)؟

هز رأسه نافيًا ثم تابع وهو على نفس الوضع قائلًا:

- بلّغيه إنّي منتظره وهو مش هيمانع

نظرت إليه للحظات ثم هزّت رأسها متفهمة ما يقوله، ثم نهضت من مجلسها هندمت قميصها وتقدمت بخطوات صارمة نحو باب خشبي فخم ثم طرقت بأنامل أصابعها الباب فلا تنتظر كثيرًا حتى أذن لها (فرانك) بالدخول، تقدّمت على استحياء وأردفت بوقار قائلة:

- صباح الخير يا فندم في شخص منتظر حضرتك في مكتبي اسمه (رفعت السويسي) عايز يقابل حضرتك ضروري

طرق (فرانك) بأنامل أصابعه فوق مكتبه ثم نظر إلى الساعة التي كانت تشير إلى الثامنة صباحًا فهز رأسه وهو يقول لها بصوته الرخيم قائلًا:

- بعد خمس دقائق دخليه، ومتدخليش أي حد علينا

- أوامر حضرتك يا فندم

بعد مرور خمس دقائق دخل (رفعت) على الجينرال (فرانك) فوجده جالسًا خلف مكتبه نظر له (فرانك) بعيون زجاجية وابتسم بودٍ في وجه قائلًا:

- أهلًا يا (رفعت) نوّرت مكتبي اتفضل أقعد واقف مكانك

كده ليه

تقدم (رفعت) بخطوات بطيئة حتى وقف أمام الجنرال (فرانك) و مازالت الابتسامة على قسمات وجه الأخير تابع وهو يشير بيده قائلًا:

- أقعد أقعد يا (رفعت)

جلس (رفعت) على الكرسي المقابل لـ (فرانك) فنظر له الأخير و شدّ أطراف الحديث قائلًا:

- إيه اللي جابك هنا يا (رفعت)؟

تنحنح (رفعت) من هيبة الموقف ثم قال:

- أسف أولًا إني جيت من غير ميعاد سابق

- ولا يهمك يا (رفعت) بس ياريت تدخل في الموضوع على طول علشان عندي مواعيد كتير

تنحنح رفعت ثم قال مباشرةً:

- ابني (صدام) عساكر الإنجليز قبضوا عليه امبارح

هزّ (فرانك) رأسه و أخرج سيجارًا بُنيًا من العلبة النحاسية الموضوعة أمامه ثم أشعلها ونفث دخان سيجارته في السماء وهو ينظر إلى شعاع الشمس الذي تسلّل من النافذة باسترخاء شديد ثم نظر نحوه مجددًا واصطنع ابتسامة و أردف:

- ابنك المُجرم اللي موّت المئات من رجالتنا وعامل فيها

بطل قومي يا (رفعت) مش كده

بلع (رفعت) ريقه بصعوبة وهو يقول:

- حماس الشباب معاليك وهو وطني حبتين كان مسيره يعقل

ابتسم (فرانك) و أعلن عن وجود سحابة زرقاء بعد ما نفث دخانه قائلًا:

- حماس الشباب ده يا (رفعت) هو اللي هيوديه في داهية

نظر له (رفعت) و تقدّم بجسده للأمام وهو يقول:

- افتكر معاليك إن أنا طول عمري متحالف معاكم و كنت معاكم ضد ثورة سعد زغلول و بقالي أكتر من عشرين سنة في خدمتكم وده أول رجاء أطلبه اعفو عن ابني (صدّام) ده لسه عيل و اللي بيعمله ده طيش شباب

أخذ (فرانك) نفسًا ملأ صدره بالهواء وهو يقول:

- عارف يا (رفعت) المصريين الفلاحين اللي بيقولوا على ابنك بطل قومي و ناقص يعملوله تمثال و يعبدوه مسمينه إيه؟

نظر له رفعت ولم يتفوّه بكلمة

نهض (فرانك) من مجلسه و تحرّك حتّى وقف خلف رفعت ثم ربّت على كتفه من الخلف ثم انحنى بجسده ليهمس في أذن رفعت ثم قال:

- المصريين مسمين ابنك (فرعون) قال جملته واعتدل في وقفته ثم تقدّم حتى جلس على الكرسي المقابل له و وضع قدمه اليسرى فوق اليمنى و أتبع قائلًا:

- لقب ابنك وسط المصريين هو (فرعون) يا رفعت مش عارفين أن بطلهم فرعون وقع وبطريقة ساذجة جدًا كان نفسه يحتفل بحفيد عيلة السويسي

نظر إليه (رفعت) وقال في ضعف ظهر في نبرة صوته:

- أنا بترجّى سموّك تعفو عن ابني افتكر كل التضحيات اللي قدّمتها للجيش البريطاني

- ابنك يا (رفعت) مش زيّك يا ريته كان طلعلك كُنا كسبنا بطل في صفوفنا.

قطع حديثهما دخول السكرتيرة عليهما تقدّمت بوقار وهي تمسك ظرفًا مُغلقًا بشريط لاصق مدّت يديها بأدب في وجه الجينرال (فرانك) و أردفت:

- آسفة يا فندم بس الظرف ده وصل لحضرتك حالًا

مدّ (فرانك) يده و أخذ الظرف ثم أخرج ورقة مطوية بداخله فردها أمام عينيه و قرأ ما بداخلها سرًا ثم زمّ شفتيه حيرة و ظلّ يفكّر قليلًا ثم نظر في وجه (رفعت) وهو يقول:

- في قرار صدر من القنصلية البريطانية يخصك يا رفعت

توتّر رفعت و أخرج منديلًا قطنيًا من جيب جلبابه ليزيل قطرات عرقه المتناثرة على وجه المجعّد وقال متلعثمًا:

-يخصـــــ.. يخصني أنا؟!

نظر له (فرانك) وقال بتشفٍّي:

- القنصلية أصدرت قرار بإعدام ابنك (فرعون) رميًا بالرصاص يا رفعت

جحظت عينا (رفعت) لم يصدّق ما قاله فرانك..ولم يستفق من تلك المفاجأة حتى تابع (فرانك) وهو يقول:

- مش بس كده يا رفعت القرار أن تنفيذ الإعدام هيكون داخل عزبتك والقرار ده واجب التنفيذ بكره الصبح

تصلّبت عينا (رفعت) على فرانك وارتفعت نسبة الإدرينالين بداخله وظلّ صدره يعلو و يهبط غير قادر على استيعاب ما يسمعه..

***

(2)

في نفس اليوم داخل منزل الحاج (رفعت السويسي) اجتمع معظم رجال العائلة الذي أرسل إليهم (رفعت) بعد عودته من القنصلية البريطانية مباشرةً وعلى رأسهم ابنه الكبير (عبد المنعم السويسي) الذي أتى في التو بعد ما أنهى تجارته خارج العزبة فرحًا بمولوده و لكنّ سعادته لم تدم كثيرًا عندما علم بخبر القبض على أخيه (صدام) اجتمعوا جميعهم داخل غرفة الجلوس في الطابق الأول متراصّيين بجوار بعضهم البعض منتظرين أن يأتي إليهم (رفعت).. في هذا الوقت كان يجلس (رفعت) على أحد المقاعد الخشبية داخل غرفته متزين بجلبابٍ واسعٍ، سمع طرقات خفيفة على الباب فقال بصوتٍ هادئٍ:

- أدخل.

دخلت عليه فتاة جميلة لا يتعدّى عمرها 15 عامًا ترتدي عباءة منزلية تناسب عمرها نظرت له وابتسمت في وجهه و قالت بإحترام:

- الضيوف وصلوا يابا

رفع (رفعت) عينيه ونظر إليها وقال بنفس النّبرة متسائلًا:

- أخوكي (عبد المنعم) وصل يا (فاتن)؟

- وصل يابا وقاعد مع باقي رجالة العيلة في أوضة الجلوس

- طيب هاتي إيدك اسنديني لحد تحت..

هرولت نحوه و أمسكت يده لتساعده على الحراك.. فترة من الانتظار داخل غرفة الجلوس حتى فُتح الباب الخشبي الضخم و تقدّم (رفعت السويسي) و بجانبه ابنته (فاتن) فور دخوله إلى الغرفة نهض الجميع من مجالسهم وهرول نحوه ابنه (عبد المنعم) وهو يمسك يده و يقبّلها، ربّت (رفعت) بيده بودٍ على رأس ابنه و أشار للبقية بالجلوس، تحرك حتى جلس هو الآخر في المقدمة و وجّه نظراته إلى الجميع ثم إلى (فاتن) التي ما زالت واقفة أمامه قائلًا لها:

- اعملي لنا شاي يا فاتن

- عنيّا الاتنين يابا.. قالتها و هرولت للخارج و أغلقت الباب خلفها

ها هم رجال العائلة يجلسون أمام (رفعت) تتباين أعمارهم من بين الثلاثين والأربعين نظر إليهم و زمّ شفتيه وهو يقول بصوت رخيم:

- طبعًا عرفتوا باللي حصل لأخوكم (صدّام)

هزّ الجميع رؤوسهم بأسى ثم قال (متولي الراوي) بغضب:

- إحنا مش لازم نسيب صدام يا حاج في الورطة اللي وقع فيها دي.. دي مش بس سمعة العيلة يا حاج لأ دي سمعة البلد كلها

نهض (عبد المنعم) وهو يقول بحدّة:

- أخويا صدام عمل اللي كلنا نفسنا نعمله يابا هو الوحيد اللي وقف قدام الإنجليز ومش لازم نسيبه في إيديهم حتى لو روحنا بنفسنا وهرّبناه من هناك

- أيوة صح إحنا نهرّبه من هناك أنا موافقك يا عبد المنعم.. قالها أحد الجالسين بحماس شديد..

نظر إليهم (رفعت) جميعًا وأخرج زفيرًا هادئًا و تحكّم في عكّازه وهو يقول بهدوء مصطنع:

- صدام ابني.. اتحكم عليه بالإعدام

فتح الجميع أفواههم باندهاش، لم يستوعبوا ما قاله (رفعت) الآن تبادلت نظراتهم بين الدهشة وعدم التصديق نظر (عبد المنعم) إلى والده والكلمات وقفت في حلقه مال برأسه نحوه وهو يقول:

- إيه اللي أنت بتقوله ده يابا

- زي ما سمعت يا بني مش بس كده في مصيبة أكبر

نظروا إليه وقد وصلت دقات قلوبهم إلى أقصاها،خايفين يسألوا...و لكن قطع انتباههم دخول (فاتن) من جديد عليهم و في يديها صينية نحاسية دائرية الشكل متراص فوقها أكواب الشاي المغلي وضعتهم أمامهم وهرولت للخارج من جديد نظر (عبد المنعم) نحو والده و تابع قوله:

- هو في مصيبة أكبر من مصيبة إعدام صدّام يابا

نظر إليه (رفعت) وهزّ رأسه بأسى و أخذ نفسًا ملأ صدره

بالهواء ثم أخرج زفيرًا هادئًا وهو يقول:

- صدام اتحكم عليه بالإعدم و مراسم إعدامه هتكون داخل عزبتنا بكره الصبح

شهق الجميع واحمرّت وجوههم يحاولون ألّا يصدقوا ما قاله كبيرهم

قال (متولي الراوي) بغضب شديد بعد ما طرق بيده بقوة على المنضدة التي أمامه قائلًا:

- صدّام مش لازم يتعدم يا حاج إحنا لازم نتصرّف و لّا إيه يا رجالة السويسي؟

قال جملته وهو ينظر في عيون الجميع

قال (عبد المنعم) من جديد بغضب :

- أنا أخويا مش هيموت و رحمة أمي مبقاش عبد المنعم السويسي لو سكت على الموضوع ده

- و إحنا مش هنسكت يا (عبد المنعم) قالها (رفعت) وهو ينهض من مجلسه تابعه الجميع بعيونهم حتى وقف في منتصف الغرفة وهو يعطي لهم ظهره ثم تقدّم بخطوات بطيئة حتى تأكّد من إغلاق الباب جيدًا ثم أعاد نظراته نحو الرجال وهو يقول من جديد:

- إحنا مش هنسكت وصدّام مش هيتعدم يا رجاله و علشان كده طلبت اجتمع بيكم النهارده

- فهّمنا يا حاج دماغك فيها إيه؟ قالها أحد الرجال

تحرّك (رفعت) حتى وصل أمام العمود الخشبي الذي يزيّن أحد الحوائط و بداخله ساعة و حرّك العمود يسارًا حتى ظهر باب خشبي صغير قام بفتحه (رفعت) فتحرّك الجميع خلفه ثم نظروا، وجدوا سردابًا!! تقلبت نظراتهم إلى بعضهم البعض بعدم فهم فنظر إليهم (رفعت) وهو يقول:

- بكره هيبقى العين بالعين والسن بالسن

- إيه السرداب ده يابا أنا أول مرة أشوفه قالها (عبد المنعم) مستفهمًا

نظر إليه (رفعت) وهو يقول بثقة:

- ده مكان تحت الأرض بيبتدي من تحت بيتنا و بينتهي مع نهاية الجامع مفيهوش غير الباب ده و باب تاني في المسجد

نظر إليه (عبد المنعم) متعجبًا وقال:

- ناوي على إيه يابا؟

- ناوي على الشر يا بني،المكان ده هنخبي فيه نسوانا والعيال الصغيرة و بكره أول ما فرانك وأعوانه ييجوا ينفّذوا الإعدام على أخوك هنّفذ إحنا الإعدام عليهم كلهم طبعًا كل واحد فيكم عنده حتة أو حتتين سلاح في بيته جهّزوهم واستعدوا للي هيحصل

- تقصد إيه يا حاج

- أقصد إن عزبتي مش هتكون نُصب تذكاري لابني فرعون عزبتي هتكون لعنة عليهم وعلى أي حد يقرب منها..

في هذا الوقت سمعوا صوت طرقات على الباب أغلق (رفعت) مسرعًا باب السرداب وعاد العمود من جديد إلى موضعه و تحرّك الجميع بسرعة ليجلسوا في أماكنهم من جديد تقدم (عبد المنعم) بعد ما علم أن كل شيء مستقر و فتح الباب ليجد (فاتن) تدخل على استحياء و تنظر إلى والدها و تقول بأدب:

- في واحدة ست غريبة يابا برّه و عاوزه تقابلك ضروري

أعقد (رفعت) حاجبيه وقال مستفهمًا:

- بتقولي واحدة ست؟

هزّت (فاتن) رأسها إيجابًا.. فنظر إليها وهو يقول:

- دخّليها يا بنتي لما نشوف مين دي كمان.. مرّت لحظات بسيطة حتى دخلت عليهم (فاطمة) متّشحة بالسواد و نقاب يخفي وجهها قالت بصوتها الناعم:

- السلام عليكم يا حاج رفعت

- و عليكم السلام يا بنتي إنتي مين؟

قامت برفع النقاب ليظهر وجهها الجميل، اتّسعت حدقة عين (رفعت) عندما رآها تلك الفتاة التي رآها في منامه مع ابنه صدّام ينزفون دمًا أسفل المظلة حاول أن يسيطر على الرعشة التي بدأت تظهر على يده حتى قطعت شروده وهي

تقول:

- أنا فاطمة بنت أخت صاحبك (بدير البهنساوي) يا حاج وجيّالك من غير ما يعرف

- عارفك يا بنتي شوفتك قبل كده، قالها وارتسمت ابتسامة على وجهه ثم وجه نظراته إلى الرجال وهو يقول:

- استنوني برّه يا رجالة لحد ما أخلص.. نهض الجميع وذهبوا للخارج بعد خروجهم نظر إليها (رفعت) وهو يقول:

- تعالي يا بنتي أقعدي جنبي

تحرّكت حتى جلست بجانبه وقالت:

- أنا يا حاج عاوزة أحكيلك حاجة ضروري بخصوص فرعون ابنك

ابتسم في وجهها وهو يقول:

- من غير ما تحكي يا بنتي أنا عارف كل حاجة

- عارف! قالتها متعجبة

ابتسم لها وهو يتابع قوله:

- مستغربة إني عارف إن صدام ابني أتورّط معاكي قدام الإنجليز الموضوع ده مش غريب على صدام

- أنت عرفت منين يا حاج واللي أعرفه إن فرعون هربان واتمسك امبارح يعني ملحقش يقولك

زمّ شفتيه وهو يعتدل في جلسته ونظر إليها قائلًا:

- متستغربيش يا بنتي أنا أعرف حاجات كتير و ربنا إن شاء الله يفك أسر المظلوم

تنحنحت في جلستها ثم نهضت وهي تعدل ملابسها وتغطي وجهها من جديد بالنقاب قائلة:

- حيث إنك عارف كل حاجة بقى يا حاج أنا همشي قبل ما خالي يعرف إني خرجت من غير ما أستأذنه و ربنا يسترها على فرعون و يطمنّا عليه، أنهت جملتها واستدارت و ذهبت للخارج

نظر إليها (رفعت) حتى خرجت من الغرفة ثم أخرج زفيرًا وهو يقول بحزن:

- ربنا يسترها عليكي إنتي يا بنتي..

***

(3)

في بداية يوم تنفيذ قرار الإعدام على (فرعون) تجهز كل رجال العائلة وعلم كل شخص الدور الذي سيقوم به طبقًا للخطة التي وضعها كبيرهم (رفعت السويسي) الكل جاهز للحرب التي ستبدأ بعد قليل..

بَدت و كأنّها نهاية العالم لا يوجد شيء الآن سوى العذاب، فقط العذاب تنصّب هيكلٌ خشبيّ ضخمٌ يتوسّط العزبة التي أطلقوا عليها جميعًا (عزبة فرعون) جميع أهل العزبة والقرى المجاورة يلتفُّون حولها، الجو كان شديد البرودة يقف (رفعت) مستقيمًا في الأسفل فلا يرمش له جفن، يقف بحبات فلا يهاب الموقف يتابع بنظراته رجال العائلة و يتأكد أن كل شخص في مكانه المتفق عليه، ظلّ الهواء يزوم من حوله و هو يقف مستقيمًا،يقف بجواره صديقه (بدير البهنساوي) و بجوارهما كبار القرى المجاورة.. جميع الفلاحين والأهالي واللذين أتوا يهمسون إلى بعضهم البعض يهابون الحالة التي يعيشوها الآن، فبرغم شدة الرياح إلا أن أنفاسهم كانت مسموعة وشهيقهم حادًا محشرجًا..وقفت الآن خمس سيارات من الجيش البريطاني بداخل كل سيارة ستة أفراد من عساكر الإنجليز في مقدمة العزبة، ليخرج من إحداهم الجنرال (فرانك) وقف وهو ينظر إلى ذلك المشهد، ثم أشار بيده إلى العساكر المصطفُّون خلفه فأخرجواعلى الفور (فرعون) من صندوق السيارة مُكبّل الأيدي والأرجل بسلاسل حديدية، تقدّم (فرانك) للأمام و أتبع من خلفه العساكر وهم

يمسكون بحرص (فرعون) شهق الجميع فور رؤيتهم لفرعون بهذا الشكل اهتزّ (رفعت) قليلًا ولكن سرعان ما عاد لثباته مجددًا همس شخص في أذن (بدير البهنساوي) قائلًا:

- ربنا يكون في عون السويسي هيقتله ابنه في وسط عزبته و أهله

قال (بدير) ردًا عليه:

- الإنجليز معندهمش حدود للتعذيب ربنا يصبره

وقف الجنرال (فرانك) مستقيمًا أمام المشنقة المنصوبة أمامه ثم أمر العساكر بصعود (فرعون) تحرّك (فرعون) واثق الخطى ينظر في وجوه أهل العزبة بثبات و كبرياء في هذا الوقت سمع الجميع يهتفون بصوتهم العالي باسمه يقولون بنبرة حماسية:

فـــرعون.. فـــرعون.. فـــــرعون.. فـــــرعون

نظر (رفعت) نحو فرانك و تقدّم بخطوات واثقة حتى وقف بالقرب منه ثم نظر إلى الأهالي وهم يهتفون باسم ابنه بفخر.. نظر إليه فرانك مبتسمًا ابتسامة باهتة بدون مشاعر قائلًا:

- رفعت صديقي العزيز..أنت عارف طبعًا إن أنا بحبك يا رفعت مش عاوز اللي هيحصل ده يأثّر على علاقتك معانا و لازم تعرف إن ابنك فرعون خطر علينا كلنا

ابتسم له (رفعت) و حكّ أنفه يحاول أن يهدأ نفسه ثم نظر في عيون ابنه صدّام ثم قال بصوت مهيب:

- سألتني قبل كده يا فرانك سؤال.. قولتلي لو أنا راكب سفينة كبيرة مفيهاش حد غيري وعدت السفينة دي جنب جبل ضخم وسط البحر و وقعت صخرة من فوق الجبل على السفينة، يا ترى هموت من الصخرة اللي هتنزل فوق نفوخي و لا هموت غرقان في المية، ودلوقتي حابب أجاوبك على السؤال ده، إنك كده ميّت و كده ميّت يا صديقي العزيز.

تحوّلت ملامح وجه فرانك وشعر باضطراب فقال بترقُّب مستفهمًا:

- تقصد إيه يا رفعت؟

نظر رفعت بعينه نحو مئذنة الجامع حيث يقف في الأعلى ابنه (عبد المنعم) فأشار له برأسه أن يبدأ الآن صرخ (عبد المنعم) عاليًا وهو يقول:

- فرااااااانك

توجّهت نظرات الجميع نحو الصوت وعلى رأسهم فرانك فأطلق (عبد المنعم) عيارًا ناريًا في السماء ليعلن عن بداية الحرب..

رفع (رفعت) يده بعكازه وطرق على الأرض بقوة ليظهر جميع رجال العائلة من بين الأهالي الواقفين و بدؤوا على الفور في إطلاق النار على الجيش الإنجليزي، حالة من الفوضى العارمة حدثت الآن أصبح جميع الأهالي والفلاحين يهرولون وهم يصيحون ويصرخون من أمام الرصاصات المتطايرة أمامهم في خوف وذعر، استغل (فرعون) ذلك و

هرول مسرعًا وسط إطلاق النار و أخذ مكانًا جانبيًا في أحد الأركان، وجثا على ركبتيه يحاول أن يحرّر نفسه من هذا القيد ظلّ ذلك للحظات حتى شعر بيد ناعمة تمتد و تساعده نظر خلفه في فزع و تصلّبت عيناه مندهشًا ثم قال متعجبًا:

- أنتي؟!

نظرت إليه دون أن تتفوه بكلمة ثم أكملت ما بدأته

ابتسم لها وهو ينظر ليديها التي كانت تحمل سكينًا صغيرًا حتى قامت بتحرير يديه من الحديد فالتقط بخفة سلاحًا مُلقًا أمامه على الأرض ثم قال:

- لازم تستخبي دلوقتي إحنا مش عارفين المجزرة دي هتخلص إمتى، أنهى جملته و هرول مسرعًا نحو إطلاق النار وهي تتابعه بعينيها.

ظلّ فرانك يدور حول نفسه وهو يصرخ في رجاله أن يصمدوا نحو تلك المكيدة التي حضّرها له (رفعت)، أخذ جانبًا هو الآخر وهو يبحث بعينه عن فرعون و أبيه رفعت السويسي، هرول بخفّة للأمام وهو يطلق بسلاحه رصاصات على رجال عائلة السويسي ، قرُبت ذخيرته على النفاذ فتحرّك مسرعًا وخلفه اثنان من العساكر يتبعون خطواته خائفين يحاولون أن يستجمعوا سيطرتهم من جديد، أخذوا ساترًا بعيدًا عن الرصاصات المتطايرة من الجانبين، نظر (فرانك) إليهما وهو يتصبّب عرقًا و ينظر إلى رجاله الآخرين اللذين يسقطون أمامه واحدًا تلو الآخر، توجّهت عيناه إلى الجهة

المقابلة له، وجد باب المسجد مفتوحًا على مصاريعه، نظر إلى عساكره الواقفين بجواره وهز رأسه إليهم و هرول نحو باب المسجد ومن خلفه العساكر حتى دخل المسجد.. كان المسجد خاويًا لا يوجد به أحد.. وقف في منتصف المسجد وظلّ يدور حول نفسه و بدأت أعصابه تهدأ قليلًا، حتى لاحظ وجود باب صغير بجوار المحراب، لونه نفس لون الحائط تقدم نحوه و حاول أن يقوم بفتحه ففشل أمسك سلاحه و أطلق عيار ناري حتى فتح على مصاريعه، نظر بداخله كان الظلام حالكًا و لكنّه علم إنه سرداب، قرّر أن ينزله حتى تهدأ الأجواء حفاظًا على سلامته..

***

بدأ التوتر يسيطر في جميع أنحاء المنزل حالة من الفوضى العارمة تحتل المشهد دخل أحد الرجال وهو يصرخ في جميع النسوة قائلًا:

- اتحركوا بسرعة مفيش وقت

بدأ التوتر يزيد و صوت تبادل الرصاصات في الخارج هو المسيطر في هذا الوقت اجتمعت جميع النسوة والأطفال الصغار فتحرّك بهم أحد الرجال و هرول نحو غرفة الجلوس و أزاح بيده عمود الساعة ليظهر باب السرداب فتحه في عُجالة وهو يميل بجسده و يدخله يسمك في يده قنديل ليضيء به.. نظر إلى النسوة و إلى الأطفال التي تبكي خائفين وظلّ يدخلهما واحدة تلو الأخرى، حتى وقفت زوجة

(عبد المنعم) فجأة قبل أن تدخل و نظرت خلفها إلى (فاتن) التي كانت تحمل الطفل الصغير بين يديها وهي تقول:

- أنا نسيت حاجة ضروري في الأوضة فوق شنطة (راشد) اللي فيها كل حاجة إحنا مش عارفين هنفضل تحت لحد أمتى

نظرت إليها فاتن قائلة بهدوء لكي تطمئنها:

- أدخلي إنتي و أنا هطلع فوق هجبلك كل حاجة وهاجي على طول و سيبي راشد معايا علشان تعرفي إنتي تتحركي متقلقيش

هزّت الأخيرة رأسها متفهمّة قولها ثم تحرّكت للأمام لكي تدخل هي الآخرى السرداب.

***

وقف إطلاق النّار في الخارج والبقيّة من العساكر الإنجليز منبطحين على الأرض في استسلام شديد وقف رجال العائلة و من بينهم (فرعون) و عبد المنعم الذي أصيب في كتفه بعيار ناري و في أيديهم أسلحتهم فرحين أن خطّتهم قد نجحت. نظر (رفعت) إليهم ونظر إلى ابنه (فرعون) واحتضنه وهو يقول:

- حمدالله على السلامة يا بني كنّا لازم ننقذك بأي تمن، ثم نظر نحو الرجال وتابع قوله و أردف:

- عفارم عليكو يا رجالة السويسي قالها وهو مبتسمً في

وجوههم ثم تابع.. فين فرانك محدش شافه هرب إزاي؟

نظر الجميع إلى بعضهم البعض ولم يتفوهوا بكلمة في هذا الوقت سمعوا صوت مجموعة من سيارات الجيش الإنجليزي جديدة آتية بقوة نحو العزبة و يخرج منها فوهات أسلاحتهم وبدؤوا من جديد في إطلاق النار على عائلة السويسي.. ممّا جعلهم ينظرون إلى بعضهم البعض مندهشين من هذا المشهد..

***

هرولت (فاتن) إلى غرفة زوجة أخيها عبد المنعم وهي تحمل بين يديها الطفل الصغير يصرخ و يبكي من الخوف وهي تحضتنه بلطف لكي تهدّئه، دفعت باب الغرفة بيديها وهي تدور حول نفسها في الغرفة حتى وقعت عيناها على الحقيبة المقصودة مدّت يديها و أخذتها و وضعتها فوق كتفها وهي ما زالت تُهدّئ الطفل الصغير أخذت الحقيبة وعادت من جديد إلى أسفل ركضت مسرعة نحو غرفة الجلوس و بدأت تسمع من جديد صوت إطلاق الرصاص في الخارج، فتحت باب السرداب بقوة و دخلته ببطء في يدها قنديل لكي يضيء لها، خطّت في الداخل بقدميها و نزلت بهدوء فوق درجات السلم الحجري وظلت تسير ببطء حتى لا يبكي الصغير مجددًا ظلت هكذا حتى سمعت صوتًا.. صوتٌ غريبٌ على أذنيها إنه فرانك كان يقف مستقيمًا و بجواره عساكره و يضحك بشدة بالغه وهو محاصر النسوة والأطفال في ركن ما داخل السرداب.. يكتمون صرخاتهم أمام سلاحه

المشهر في وجههم خائفين أمّا الأطفال فلا يستطيعون ألّا يبكوا بصوتهم العالي، وقف فرانك مستمتعًا بهذا الموقف يضحك من خوفهم، لأن روحه مقابل أرواح نساء و أطفال عائلة السويسي جميعًا..

لم تتمالك (فاتن) أعصابها وشعرت برعشة احتلت جسدها الصغير الذي لا يتحمّل مثل تلك الصدمات واتسعت حدقة عينيها في فزع و خوف من هذا المشهد دون أن يشعر بها (فرانك) كان يعطي لها ظهره هو والعساكر أما بقيّة النساء يحاولون بنظراتهم أن يمنعوها من الدخول، نظرت إلى زوجة أخيها التي تبكي في صمت فأشارات الأخيرة لها برأسها أن تفر هاربة للخارج، يجب عليها أن تنقذ الأمر، هي الوحيدة التي تستطيع أن تنقذهم جميعًا، استدارت و حاولت ألّا يشعر بها فرانك و أعوانه و أن تعود من جديد إلى الخارج لتبلّغ أحد الرجال و أبيها (رفعت)، ظلّت تمشي على أطراف أصابعها حتى لا يشعر بها أحد و لكن قد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، أتت صرخة من الطفل...انتبه إليها فرانك فأسرع خطاه نحو الصوت بخفة فوجد (فاتن) تجلس على أحد درجات السلم وتبكي وهي تحتضن الطفل.. تقلبت نظراتها ما بين فرانك الذي يقف أمامها مبتسمًا ابتسامة خبيثة و في يده سلاحه الموجّه في وجهها و بين الطفل الذي يصرخ بخوف في حضنها..

***

الواقعة

(1)

القاهرة 11 أكتوبر عام 2000 الساعة التاسعة صباحًا.

وقفت سيارة مرسيدس موديل 1975 أمام عقار بسيط في إحدى أحياء القاهرة الشعبية فُتح باب السيارة ليظهر منها شخص في بداية عقده الثالث متوسط الطول حليق الرأس ذو لحية شبابية تناسب عمره يرتدي قميصًا أبيض وفوقه سترة جلدية سوداء اللون، ترجّل نحو باب العقار ودلف للداخل فوجد حارس العقار يقوم بالتنظيف فابتسم واستطرد:

- صباح الخير يا عم رجب

نظر إليه الحارس و لم يعره اهتمامًا، وعاد للتنظيف مرة أخرى وكأنه لا يوجد شخص يتحدث إليه، فذهبت الابتسامة من وجهه وذهب من أمامه ، صعد الدّرج حتى وقف أمام باب شقة، حيث توجد لوحة نحاسية مكتوب عليها مكتب المحامي (مصطفى العطار) ، ابتسم كعادته عندما يرى تلك اللوحة أمامه كل يوم ، أخذ شهيقًا عاليًا ثم دفع بيده باب الشقة فهو دائمًا مواربًا، و دلف للداخل فوجد المكتب كما تركه ليلة أمس إلا من تلك الثرثارة (جهاد) سكرتيرة المكتب الجالسة خلف مكتب نحاسي صغير وفي يدها ساندوتش تلتهمه، و أمامها كوبٌ من الشاي نظر إليها وهو يلوّح بيده

قائلًا:

- إزيك يا (جهاد) حد سأل عليّا؟

نظرت إليه وابتسمت و بقايا الطّعام في فمها قائلة:

- لإزيك يا أستاذ مصطفى تعالى كُل بسم الله

استدار وهو يقول باشمئزاز:

- شكرًا يا جهاد شكرًا بالهنا والشفا.. قالها ممتعضًا و ذهب من أمامها متجهًا نحو غرفة كبيرة الحجم تحتوي على مكتبين و لوحة نحاسية بجوار الباب مكتوب عليها (غرفة السادة المحامين) دفع الباب ليصدر صوت صريرٍ بسيطٍ يسمعه دائمًا.. دخل متجهًا نحو المكتب الموضوع أمامه لوحة صغيرة منقوش عليها الأستاذ /مصطفى العطار. جلس خلف مكتبه بعد أن خلع السترة الجلدية و وضعها خلف مقعده ولم ينتظر كثيرًا حتى وجد الباب يندفع من جديد و تدخل منه فتاة طويلة القامة ترتدي بنطالًا جينز وجاكيتًا رياضي فضفاضًا وقبعة على رأسها ليظهر من الخلف شعرها البُني الناعم معقودًا على هيئة ديل حصان و نظارة سوداء شمسية حتى تكتمل الصورة.. خلعت النظارة و أشارت بيدها نحوه وهي تقول:

- السلام عليكوو.. قالتها وهي متجهة نحو مكتبها المكتوب عليه الأستاذة/مريم هاشم، لتجلس خلفه

نظر إليها (مصطفى) ولوى شفتيه قائلًا:

- يا فتاح يا عليم يا رزّاق يا كريم، إنتي يا بنتي مش هتبطلي أسلوبك ده وإيه اللبس اللي إنتي لبساه ده كمان المفروض حضرتك محامية في مكتب محترم مش كوتش في جيم

اعتدلت في جلستها و رفعت يدها لتعدل القبعة وهي تقول:

- صباح الخير يا درش

- صباح النور يا ستي

- عندنا قضايا إيه النهاردة؟ قالتها مريم بسخرية وهي تبتسم و تريح رأسها على مسند المقعد

ظهرت ابتسامة على قسمات وجه مصطفى هو الآخر قائلًا:

- قضايا مرة واحدة إحنا يا بنتي فاتحين المكتب هِنا بقالنا ست شهور ومفيش قضية يتيمة جاتلنا

نهضت بخفة من فوق المقعد وهي تقول:

- حيث كده بقى تشرب قهوة معايا

هزّ رأسه وقبل أن يتفوّه بكلمة دفعت السكرتيرة (جهاد) الباب و وقفت أمامهما بجسدها الممتلئ وهي تقول بسعادة مبالغ فيها:

- أستاذ مصطفى في زبونة بره

- أفندم!؟.. قالها مصطفى مستفهمًا

لوحت بيدها وهي تقول بطريقة أخرى:

- قصدي يا أستاذ مصطفى في عميلة بره و عاوزه تقابلك

نظر إليها وهو مبتسم ثم وجّه نظراته نحو (مريم) التي بادلته نفس النظرة و هرولت من جديد لتجلس خلف مكتبها وتخلع القبعة من فوق رأسها وترتدي نظارة طبية لتظهر بشكلٍ وقور، عادت نظراته نحو (جهاد) الواقفة مستقيمة أمامه و ابتسامتها تملأ وجهها وهو يقول:

- ماشي يا جهاد روحي بسرعة دخّليها

لا يمر من الوقت سوى لحظات حتى دخلت عليهما امرأة طاعنة في السن يتباين عمرها من بين السبعين أو أكثر، ترتدي تاييير أسود موديل ثمانيني يناسبها و حقيبة جلدية معلّقة في يديها، التجاعيد تملأ وجهها ،التي كانت تعبر عن جمالها في مرحلة الشباب. تحركت بظهر محني و بوقار وهيبة حتى جلست على الكرسي المقابل لمصطفى وهي تقول بصوت رخيم:

- صباح الخير يا متر

ابتسم (مصطفى) مرحبًا بها وهو يقول:

- صباح النور يا فندم نورتي المكتب

قابلت ابتسامته بابتسامة وهي تضع قدمها اليمنى فوق اليسرى وتسطرد:

- فاطمة اسمي فاطمة

- نورتي المكتب يا أستاذة فاطمة.. قهوتك إيه؟

- مضبوط..

رفع سماعة التليفون الداخلي وهو يقول بنبرة ثقة:

- اتنين قهوة مضبوط يا (جهاد) أغلق السماعة وعاد بنظراته نحو (فاطمة) و أردف:

- إيه المشكلة اللي عند حضرتك يا أستاذة فاطمة؟

نظرت خلفها فوجدت (مريم) تجلس خلف مكتبها سعيدة و تنظر إليهما باهتمام فعادت بنظراتها نحو (مصطفى) قائلة:

- محتاج أتكلم معاك لوحدنا يا أستاذ (مصطفى)

علامات التعجب ظهرت على قسمات وجه (مصطفى) وما زالت الابتسامة لم تختفى من على وجهه ثم قال:

- بس دي يا فندم..

قاطعته وهو تقول بثبات:

- بعد إذنك يا أستاذ مصطفى محتاجة أتكلم معاك لوحدنا

نظر إلى مريم وأشار إليها برأسه اكتسبت ملامح مريم تعبيرًا عن الغضب فنهضت وهي تزفر بضيق عن قلة ذوق تلك الزبونة، كما قالت جهاد من قبل و ذهبت للخارج..عاد (مصطفى) نظرته نحو تلك العجوز وهو يقول:

- اتفضلي يا فندم أدينا بقينا لوحدنا ياريت تقوليلي إيه مشكلتك؟

لانت ملامحها فجأة و أخرجت مجموعة من الأوراق من حقيبة يدها و وضعتهم أمام (مصطفى) و تابعت قائلة:

- أنا كنت مسافرة بره مصر بقالي أكتر من تلاتين سنة ولسه راجعة من كام يوم

هزّ رأسه متفهمًا وهو يقول بأدب:

- حمدالله على سلامتك يا فندم

ابتسمت و تابعت:

- الله يا يسلّمك يا متر.. المهم أنا عندي عزبة في الغربية مساحتها خمس فدادين، وأنا الوريثة الوحيدة للعزبة دي و محتاجة أبيعها، ودي كل الأوراق اللي تثبت صحة كلامي وتثبت ملكيتي للعزبة..

أخرج (مصطفى) بعض الورق و ظلّ يتمعّن النظر فيه ثم أنزل يديه بالورق وهو يقول:

- (عزبة فرعون) حضرتك بتوكيليني علشان أبييعلك العزبة دي

- بالضبط يا (مصطفى) و ياريت في أسرع وقت ممكن و متقلقش من حاجة هيكون ليك كومشن محترم جدًا بعد البيعة.. ده غير أتعابك

قاطع حديثهما دخول (جهاد) عليهما و في يدها صينية نحاسية دائرية الشكل و وضعت أمامهما فنجانين القهوة و

ذهبت من جديد للخارج ظلُّوا صامتين للحظات حتى خرجت جهاد ثم نظر (مصطفى) إلى العجوز من جديد و شبّك أصابعه ببعض وهو يقول متسائلًا:

- في سؤال فضولي شوية يا أستاذة فاطمة و ياريت تجاوبيني عليه

نظرت إليه و ابتسمت وهي تميل برأسها قائلة:

- اتفضل طبعًا

- حضرتك بتقولي إنك كنتي بره مصر بقالك سنين و لسه راجعة من كام يوم حضرتك عرفتي مكتبي منين؟

ابتسمت ابتسامة غامضة في وجهه، ومدّت يدها لتأخذ فنجان القهوة و رشفت منه رشفة في استمتاع شديد وهي تقول بشفتين حجزت من ورائهم الكلمات:

- هي عربيتك المرسيدس موديل 75 اللي واقفة قدام العمارة دي؟

أعقد حاجبيه و لم يفهم لماذا هذا السؤال الآن فأومأ برأسه وهو يقول:

- أيوه عربيتي

- ذوقك حلو أوي يا مصطفى، النوع ده من العربيات بحبه جدًا و خصوصًا الموديل ده طريقتها للمرة الثانية برفع الألقاب جعله لم يطمئن لتلك المرأة التي تجلس أمامه وخصوصًا بعد تهرُّبها من سؤاله و قبل أن يرد عليها تابعت

قولها قائلة:

- تحب تبيعها أنا ممكن أشتريها منك و بأي رقم أنت تطلبه

ابتسم في وجهها وهو يقول:

- للأسف العربية مش للبيع يا فندم

زمّت شفتيها وهي تقول بحزن:

- يا خسارة ماليش نصيب بقى على العموم لو فكّرت تبيعها هكون مبسوطة جدًا وهشتريها بأي رقم تقول عليه

حاول أن يغيّر الحديث فنظر من جديد نحو الورق الموضوع أمامه وهو يقول:

- إن شاء الله يا أستاذة فاطمة هدرس موضوع العزبة ملك حضرتك وهبلّغك بكل التفاصيل متقلقيش من حاجة.

هزت رأسها متفهمّة قوله ثم أخفضت نبرة صوتها و اقتربت برأسها وهي تقول:

- الموضوع ده لازم يكون سر بينا يا متر القضية دي مش عاوزة أي حد يعرف عنها حاجة.

أعقد حاجبيه متعجبًا من طريقتها فأخفض صوته هو الآخر واقترب برأسه قائلًا:

- ممكن أعرف السبب؟

- مش لازم تعرف دلوقتي..كل اللي هقدر أقولهولك إنك هتعرف كل حاجة في وقتها يا متر..

رجع برأسه للوراء و شبّك أصابعه فوق صدره في حيرة فتفرّست في وجهه و ابتسمت ثم نهضت من مجلسها وهي تقول:

- إن شاء الله يا أستاذ مصطفى هنتظر منك تليفون ده الكارت بتاعي، فيه عنواني و رقم تليفوني

مدّ يده و أخذ منها الكارت وهو مبتسم فاستدارت وتحرّكت ببطء نحو الباب وقبل أن تذهب للخارج قالت من دون أن تنظر له وما زالت تعطيه ظهرها المحني قائلة:

- أنا جيت مكتبك أنت بالذات يا مصطفى علشان أنت الوحيد اللي بثق فيه وأنت الوحيد اللي هيعرف يبيعلي العزبة أنت الوحيد يا متر، يا رب تكون فاهم كده وتكون قد الثقة دي و متنساش إن الموضوع ده محدش غيرك يعرفه.. أنهت جملتها و دلفت للخارج ذاهبة..

عقد (مصطفى) حاجبيه ولم يفهم مقصدها، مجموعة من علامات الاستفهام أنضمت إلى جمجمته ، ظلّت عينه عليها حتى ذهبت لخارج المكتب دخلت عليه (مريم) وهي تقول بلهفة:

- الحيزبون دي جاية في قضية تقيلة بقى على كده؟ قالتها وهي تقف أمامه منتظرة الرد وهو ما زالت عيناه على باب المكتب فتابعت من جديد قائلة:

- أنت يا بني الست دي قالتلك إيه خلتك مبلم كده؟

نظر إليها وتردّد في قوله عن مضمون القضية ولكن ابتسم وهو يقول:

- لأ مفيش حاجة يا مريم دي عاوزه تكتب وصيتها إنتي شيفاها أهو رجليها والقبر المهم أهي قضية دخلت المكتب و شكلها هتدينا أتعاب كويسة

ضمّت شفتيها وأطلقت صفير وهي تبتسم قائلة:

- شكلها هتلعب معانا و لا إيه يا درش قالتها وهي تتحرك نحو مكتبها من جديد

ابتسم إليها وهو يضع ورق القضية في ملف ورقي قائلًا:

- قولي يارب إنتي بس. أنهى جملته وكتب دون أن تلاحظه فوق الملف بخط عريض (عزبة فرعون)

***

(2)

في إحدى مواقع القاهرة الهادئة يوجد مبنى مكون من خمس طوابق، هادئ منعزل تمامًا يحيط به مكان لانتظار السيارات ومحاط بسورٍ عالٍ تحفُّه أشجار النخيل التي تحجبه عن الأنظار كما أن أبوابه حديدية ضخمة محاطة بحراس يقفون في انتباه شديد..

في داخل هذا المبنى الذي يلفُّه السكون و الغموض توجد إدارة المباحث الجنائية و التي تضم مجموعة من أكفأ الضباط.. الساعة الآن تشير إلى العاشرة صباحًا، في هذا الوقت انهمك العميد (محمود النقراشي) داخل مكتبه في ترتيب مجموعة من الأوراق وبين شفتيه سيجارة متدلية تصدر سحابة من الدخان تموج بالقرب من السقف تتجلّى الصرامة في ملامحه.. في تلك اللحظة سمع صوت طرقات على الباب أطفأ سيجارته وقال وهو ما زال ينظر في الأوراق التي بين يديه:

- أدخل..

فتح الباب ليدخل عليه شخصٌ وقورٌ، ملامحه تدل على هيبته يرتدي بدلة بنّية وفي يده حقيبة جلدية طويل القامة شعره لامع ومصفوف، يقف أمام المكتب بثبات وثقة تنحنح في وقفته فنظر إليه العميد (محمود) وهو يقول مستفهمًا:

- مين حضرتك؟

أخرج هذا الرجل كارنية بلاستيكي مغلف من الجيب الداخلي من سترته وهو يقول بثبات:

- أنا (شوقي عبد الفتاح) مندوب من وزارة الداخلية

انتفض العميد (محمود) وهبّ واقفًا وهو يقول باحترام شديد:

- أهلًا يا فندم اتفضل اتفضل قالها وهو يشير إلى المقعد الذي أمامه

تقدّم ذلك الشخص ووضع الحقيبة على المنضدة الصغيرة التي أمامه و نظر إلى العميد محمود بعدما جلس على الكرسي المقابل له فتابع الأخير له قائلًا:

- تشرب إيه يا فندم؟

- أنا مش جاي علشان أشرب يا سيادة العميد أنا جاي بنفسي وعاوز أبلغ حضرتك بقرار سيادة الوزير

أعقد العميد (محمود) حاجبيه وهو يقول باهتمام شديد؟

- قرارا قرار إيه يا فندم؟

أخرج ذلك الرجل ورقة من حقيبته الجلدية ونظر فيها وهو يقول:

- المقدم (عمر الراوي) بيخدم مع حضرتك يا سيادة العميد؟

- أيوة يا فندم ده من أكفأ الضباط اللي عندي

ابتسم نائب الوزير وهو يهز رأسه وهو يقول:

- علشان كده اخترناه يكمل خدمته في وحدتنا في الريف

- الريف! قالها العميد (محمود) مندهشًا و كأنّه سمع خبر موت أحدهم

- أيوه يا سيادة العميد زي ما حضرتك سمعت هيخدم في الريف في قرار صدر من وزير الداخلية شخصيًا بنقل المقدم (عمر الراوي) للريف و خصوصًا في وحدتنا السرية اللي في الغربية

صفعة من الصمت لطمته قبل أن يتفوّه قائلًا:

- بس ممكن أعرف السبب من النقل ده يا فندم؟

- إحنا معندناش أسباب يا سيادة العميد و حضرتك عارف كده كويس، اتفضل استلم القرار و بكره الصبح زي دلوقتي المقدم عمر هيكون على مكتبه الجديد. أنهى جملته و نهض وهو يأخذ حقيبته و يترك مكتب العميد محمود النقراشي في حيرة وذهب..

***

بعد مرور ربع ساعة تقريبًا كان المقدم (عمر الراوي) يجلس أمام العميد (محمود النقراشي) وهو شاب في منتصف عقده الثالث، غير متزوج طويل القامة عريض المنكبين صاحب وجه دائري و أنف مدببة وشعر ناعم أسود مصفوف وشارب منمق يعطي له وقار وهيبة، نظر إليه الأخير و شبّك أصابعه وهو يجذب أطراف الحديث قائلًا:

- شربت قهوتك يا (عمر)؟

اعتدل (عمر) في جلسته وهو يقول:

- أيوه معاليك شربتها

ضم العميد محمود شفتيه وهو يقول بعد ما هز رأسه قائلًا:

- في قرار صدر من وزير الداخلية شخصيًا يخصك

جحظت عينا (عمر) وهو يقول بترقُّب وحذر شديد:

- قرار يخصني أنا!؟ قرار إيه يا فندم؟

- متقلقش أوي كده يا سيادة المقدم كله خير.. قال جملته الأخيرة و أراح ظهره للخلف و شبّك أصابعه فوق صدره وتابع قوله:

- في قرار صدر بنقلك من هِنا يا (عمر) هتخدم في الريف في الغربية وخصوصًا في وحدتنا السرية اللي هِناك

أخرج (عمر) زفيرًا هادئًا وهو يقول مبتسمًا:

- طيب الحمد لله يا فندم.. ده أنت حضرتك رعبتني

أعقد العميد (محمود) حاجبيه وهو يقول مندهشًا:

- حاسّك مبسوط يا (عمر) أنا كنت فاكرك هتزعل إنك هتسيب القاهرة وهتخدم في الريف يعني!!

هزّ الأخير رأسه نافيًا وهو يستطرد:

- بالعكس يا فندم أنا كان نفسي أخدم في الريف وخصوصًا

حضرتك بتقول في الغربية في الوحدة السرية ده نفس المكان اللي والدي خدم فيه

ضمّ الأخير شفتيه مقتنعًا بقول (عمر) ثم مدّ يده بورقة قائلًا:

- حيث كده بقى يا (عمر) خد القرار أهو وقّع عليه

***

في نفس اليوم عاد المقدم (عمر الراوي) إلى شقته المتواجدة في أحد أحياء مصر الجديدة فتح باب الشقة بصعوبة بسبب حقيبة اليد التي يحملها و بعض الأكياس البلاستيكية التي بها بعض المعلبات وعلبة من البيتزا أغلق الباب بصعوبة بقدمه

هرولت نحوه شقيقته الصغرى (ديجا) تلك الفتاة صاحبة الـ 22 عامًا في السنة النهائية "كلية إعلام" صاحبة البشرة البيضاء و بعض النمش متناثر على وجنتيها الحمراء و شعرها أسود ناعم معقود من الخلف أخذت منه بلهفة تلك الأكياس البلاستيكية وهي تقول متلهفة:

- الشنط دي فيها إيه يا عمر؟؟ جايبلنا أكل إيه؟

ابتسم من طريقتها وهو يقول مداعبًا إياها:

- يا بنتي أصبري عليّا.. طيب سلّمي عليا الأول أنا مشفتكيش بقالي 3 أيام

نظرت إليه وهي تقول بطريقة مضحكة:

- أهلًا يا عمر.. عامل إيه.. إزيك و إزاي عيالك كويسين قولي بقى جايبلنا أكل إيه أنا هموت من الجوع؟

- خدي يا ستي جايبلك البيتزا اللي بتحبيها وجايب شوية جبن وتونة في البيت يلا بسرعة حضري لنا الغدا علشان أنا ميت من الجوع.. قالها وهو يخلع حذاءه الجلدي وينظر نحو البلكون ليرى والده يجلس على مقعد أمام طاولة الشطرنج يرتدي روبًا صوفيًا، شعره احتله الشيب و يرتدي نضارة طبية و يضع يده على ذقنه في تركيز شديد وهو ينظر إلى الطاولة ابتسم (عمر) وهو يقول بصوت شبه مرتفع:

- إيه يا سيادة اللواء لسه مش عارف تحلها من أول امبارح.. انتبه إليه والده فابتسم وهو يشير إليه بيده تحرك نحوه (عمر) و جلس أمامه وهو يقول بثقة:

- أعترف إن التلميذ المرادي تفوّق على الأستاذ و إن قفلتهالك يا سيادة اللواء

ابتسم أبيه وخلع النضارة ووضعها في الجيب الأمامي للروب وهو يقول:

- أعترف يا سيادة المقدم من حقك تفرح مرة من نفسك قالها وهو يخرج سيجارة من علبته و يتناولها و يأخذ الجرنال الموضوع بجواره

نظر إليه عمر و زمّ شفتيه غضبًا وهو يقول:

- أنت رجعت تاني للسجاير

- دي حاجات كده تفاريحي يا عمر ماتخفش على أبوك مش هموت دلوقتي يلا أنت بس قوم غيّر لحد ما المفعوصة أختك اللي جوه دي تحضرلنا الغدا اللي أنت أصلًا جايبه جاهز.

سمع صوت ابنته قد أتت وهي تقول بخفّة ظل وفي يدها أكياس الكاتشب قائلة:

- سمعتك على فكرة يا سيادة اللواء بتقول عليا مفعوصة بس حابة أقولك إن كلها تيرم واحد و هبقى صحفيّة قد الدنيا والناس كلها هتبقى عرفاني..احذر منّي بقى

ابتسم الاثنان..حيث رفع عمر يديه كحركة مسرحية وهو يقول:

- (فاتن الراوي) اسمك هيبقى منور في صفحة الحوادث يا حبيبتي

عقدت حاجبيها وهي تقول بعصبية:

- قولتلك يا عمر 100 مرة إن مبحبش اسم فاتن ده أنا اسمي ديجا سمعت أديني حذرتك أنت كمان أهو

نهض (عمر) وهو يضحك على عصبيّة أخته المفتعلة و اقترب منها و وضع يده فوق كتفها و اليد الأخرى أخذ منها أكياس الكاتشب وهو يتابع قوله:

- يا عبيطة في حد في الدنيا يكره اسم جدته ده إنتي أسمك فاتن على اسم جدتنا

رفعت عينها في عينه وهي تقول:

- أنا بحذّرك تاني يا عمر عالله تقول الاسم ده تاني مفهوم، قالتها وذهبت من جديد إلى المطبخ، نظر إليها وهو يضحك ثم توجّهت عينه على أبيه الذي يجلس خلف نضّارته وفي يديه الجريدة قائلًا:

- أنا صحيح اتنقلت الريف يا بابا هخدم هناك قالها و ذهب إلى غرفته

توقف أبوه عن التدخين و أنزل يديه بالجريدة ونظر إلى الفراغ لثواني وهو يهمس بخوف.. الريف!! ثم دفن سيجارته في المطفأة الموضوعة أمامه ونهض وهو يقول:

- هتخدم فين في الريف يا عمر؟

أخرج عمر صوتًا من داخل غرفته وهو يقول:

- في نفس الوحدة اللي كنت بتخدم فيها في السبعينات يا سيادة اللواء

زاد هياج قلبه في صدره وهو يقول:

- هتخدم في الغربية يا (عمر)؟

- بالضبط.. قالها عمر وهو يقوم بنزع القميص الذي يرتديه و يقوم بارتداء تيشرت رياضي ثم خرج من غرفته وهو ينظر إلى أبيه قائلًا:

- مالك كده يا سيادة اللواء؟؟ أنت زعلت إني اتنقلت و لا إيه؟

شبح ابتسامة مرتعشة تداعب شفتيه و لكن عاد لثباته مجددًا وهو يقول:

- لأ مفيش حاجة يا عمر المهم تخلّي بالك من نفسك قطع حديثهما صوت (ديجا) وهي تقول بعد ما التهمت جزءًا من البيتزا:

- الغدا جهز يا أهل البيت

***

في نفس اليوم و بعد مرور ساعتين وقفت سيارة الشرطة أمام العقار القاطن فيه المقدم (عمر) داخل السيارة جلس خلف عجلة القيادة الصول (عتمان) وهو رجل قد بلغ الخمسين من عمره، قمحي البشرة أصلع الرأس إلا من بعض الشعيرات المتناثرة في الجوانب يرتدي زيه العسكري منتظرًا أن يأتي إليه (عمر)، لا ينتظر كثيرًا داخل السيارة حتى أتى إليه (عمر) نظر إليه (عتمان) و دلف مسرعًا من السيارة وهو يرفع يده على جبينه قائلًا بلكنته الفلاحي:

- تمام يا عمر باشا

- إزيك يا عتمان عامل إيه؟

- في نعمة والله يا باشا قالها عتمان وهو يفتح باب السيارة لعمر.. دخلها عمر وهو يضع حقيبة يده في الكرسي الخلفي ثم نظر إلى عتمان وهو يقول:

- توكّلنا على الله

***

ترجرجت سيارة البوكس وهي في طريقها إلى قسم الشرطة الذي سيخدم فيه (عمر) كان يجلس الأخير بجانب الصول (عتمان) وهو يقود السيارة يستمع إلى تلك القصص التي يرويها عليه عتمان، بل بدأ يروي عليه تفاصيل حياته و مشاكله العائلية.. مسح (عمر) وجهه في ملل و أخرج علبة سجائره ونظر إلى الصول (عتمان) و أخرج لكل واحد منهما سيجارة تناول واحدة في فمه و أشعلها وهو ينظر من الشباك، نفث دخان سيجارته في مللٍ شديدٍ.. حتى شدّ انتباهه دخولهم إلى طريق ضيق، الإضاءة به شحيحة ، و قد الرياح أعلنت هجومها في هذا الوقت مع هطول الأمطار الغير مرغوب فيها، نظر (عمر) إلى الصول (عتمان) وهو يقول:

- هو الجو قلب كده ليه؟

توتّر (عتمان) وهو يقول بقلق:

- مش عارف يا باشا والله ربنا يستر ثم صمت قليلًا وتابع:

- أنا مش عارف أنا إيه إللي خلاني أدخل من الطريق ده

عقد (عمر) حاجبيه وهو يقول بعدم فهم:

- مش فاهم تقصد إيه يا (عتمان) ليه بتقول كده، هو المكان ده اسمه إيه؟

نظر (عتمان) في وجه (عمر) ثم نظر أمامه من جديد وهو يقود ثم قال:

- بلاش تعرف يا باشا أحسن..

لم يفهم (عمر) مقصد (عتمان) حيث إنه لا يحب تلك الطريقة الغامضة التي يتحدث بها دومًا، فنظر بعدم اهتمام للخارج فوجد لوحة خشبية منقوش فوقها (عزبة فرعون) نطقها عمر وهو يقول:

- عزبة فرعون.. و فور ما تفوّه بهذا الاسم حتى توقفت السيارة فجأة

نظر (عتمان) بخوف حتى نادت أعصابه عليه فلم يستجب، شعر باضطراب وهو ينظر إلى (عمر) الذي زفر في ضيق وهو يقول:

- هو ده وقته...إن العربية تعطل، قالها (عمر) و خرج للخارج تحت هطول المطر

بلع (عتمان) ريقه بصعوبة وهو يدلف للخارج هو الآخر قائلًا بخوف:

- و العمل يا باشا هنعمل إيه في المصيبة دي

نظر إليه (عمر) وشعر أن الرياح بدأت في الهياج قال بهدوء:

- متقلقش أنا معايا تليفون محمول هاتصل بالمركز يبعتولنا عربية تنجدنا، أنهى جملته وأخرج موبيل صغير الحجم ذو شاشة صغيرة من جيب سترته فقال وهو يضرب بيده وجهه:

- إيه الحظ ده مفيش شبكة هِنا قالها (عمر) ونظر أمامه

فوجد منزلًا كبيرًا بالقرب منه يوجد به إضاءة ضعيفة يبعد عنه بما يقرب مائتي مترًا فقط، فنظر إلى (عتمان) وتابع:

- تعالى يا (عتمان) نروح البيت ده لحد ما الجو يهدا، وممكن نلاقي عندهم تليفون نتصل بالمركز اللي هناك.. قالها وهو يخطو للأمام فأمسك (عتمان) بذراعه وهو يقول بقلق و خوف:

- أنت رايح فين يا باشا المكان هِنا مهجور بقاله زمن و محدّش ساكن في المكان ده خالص، أنت مش عارف أنت فين يا باشا أنت في عزبة فرعون

- يا بني آدم مهجور إزاي و في نور هناك أهو في البيت، ما تجمد كده يا (عتمان) مالك!!

بقدمين مرتعشتين استسلم (عتمان) وظلّ يسير خلف (عمر) الذي مشى فوق العشب و اقترب من البيت وهو مبتسمٌ، المبنى في وسط الخلاء مكســوٌ بطوبٍ باهتٍ مشققٍ الرياح تزوم من حولهم لتصدر لحنًا حزينًا هادئًا. بادر (عمر) بالدخول و لمس الباب فانفتح على مصراعيه ليصدر صوت صريرٍ مخيفٍ، نظر خلفه إلى (عتمان) المرتعب خوفًا، و اندهش أن الباب مفتوحٌ، تقدمًا حتى وقفا في منتصف الطابق الأرضي.. كان الطابق كبير الهيئة والأساس مستطيل الشكل.. شبابيكه حديدية مغلقة وأبوابه كئيبة.. وبعض الإضاءة الشحيحة منبعثة من المصابيح المُعلقة في السقف، نظر (عتمان) وهو يقول:

- شكل كده مفيش حد في المكان يا باشا زي ما قُلت لمعاليك أنا هدوّر على أي حطب نولّعه علشان إحنا كده هنموت من البرد

هز (عمر) رأسه موافقًا إياه.. ظلّ عمر يدور في ردهة المنزل حتى وقف أمام حائط مزخرف بدأ يدقق فيه، ثم نظر إلى برواز خشبي كبير الحجم تزيّنه صورة لفتاة جميلة فسمع صوت امرأة عجوز من خلفه تقول باستغراب شديد:

- أنت مين؟ وإيه إللي دخلك هِنا؟

انتفض (عمر) فزعًا ونظر خلفه فوجد امرأة عجوز طاعنة في السن، احتل الشيب رأسها بالكامل، بلع ريقه وحاول أن يستعيد أعصابه التي اقتربت على التلف وهو يقول:

- إحنا آسفين جدًا إننا دخلنا البيت من غير إذن، بس الباب كان مفتوح أنا ضابط شرطة و معايا الصول (عتمان) منقولين جديد هِنا في المركز، وللأسف العربية عطلت بينا وإحنا في الطريق إحنا متأسفين جدًا يا فندم

ابتسمت العجوز وتفهّمت الآمر وهي تقول:

- لا.. متتأسفش خالص البيت بيتك يا بني بس أعذرني أنا عايشة هِنا لوحدي علشان كده استغربت.. شكلك كده بردان تحب تشرب حاجة شخنة؟

ابتسم لها (عمر) وهو يقول بأدب شديد:

- بس أنا مش عاوز أتعب حضرتك

أستدارات وضحكت وهي تقول:

- مفيش تعب ولا حاجة يا بني أنت دلوقتي ضيفي أنا هعملّك شاي معايا قالتها وهي تخطو بخطوات بطيئة حتى توقفت فجأة ونظرت إليه من جديد وتابعت:

- سكرك إيه يا (عمر)؟

لحظة من الاندهاش وعدم الفهم احتلت وجه عمر الذي نظر إليها مشدوهًا وهو يقول:

- أنتِ عرفتي اسمي منين؟

ابتسمت من جديد ابتسامة غامضة وهي تقول:

- تقدر تقول توقّعت

لم يفهم ما يدور حوله، لكنه قرّر أن يمر الموقف حتى تأتي سيارة الشرطة من المركز و ينتهي من هذا اليوم العجيب.. بلّغها بكمية السكر المطلوبة و وقف أمام النافذة وفي يده محموله الخاص يحاول أن يلتقط شبكة ليتصل، ولكنه يفشل أتت إليه العجوز وهي تقول:

- اتفضل يا بني الشاي

ابتسم إليها ومدّ يده ليأخذ كوب الشاي منها و يرتشف رشفة ثم نظر من جديد نحو صورة الفتاة الموضوعة على الحائط فنظرت إليه وهي تقول:

- صورتي عجبتك كنت لسه عيلة صغيرة مش شايلة هم

للدنيا

- كنتي بصراحة زي القمر..

ابتسمت إليه و أومأت برأسها وهي تقول:

- أبويا الله يرحمه برضو كان ضابط كان شغّال مع الملك فاروق و كان في مقولة كنت بسمعها منه كتير

ابتسم(عمر) في وجهها وهو منتبه جيدًا لحديثها حتى نظرت إليه بوجهٍ جامدٍ خالٍ من المشاعر قائلة:

- كان بيقول يا سيدي " يعود الجميع إلى مسرح الجريمة عاجلًا أم أجلًا"

فرمقها (عمر) بشكٍ ولم يفهم مقصدها ولكنه شعر أن تلك المقولة سمعها من قبل تذكّر الآن أنه سمعها من والده من قبل فنظر إليها وهو يقول:

- تقصدي إيه؟ نظرت من النافذة للخارج وهي تقول:

- بص قدامك و أنت تعرف يا (عمر)

نظر (عمر) أمامه فوجد على بعد مائة متر مظلة خشبية، يجلس أسفلها شخص لا تظهر ملامحه جيدًا.. الأمر لم يكن طبيعيًا فالمكان يشبه المكان المهجور بالفعل كما قال له (عتمان) من قبل وهناك إضاءة خافته، فكان من الغريب أن يرى أحد في هذا الوقت وفي هذا المكان أيضًا يجلس هُناك.. نظر خلفه فوجد (عتمان) يحمل بعض الحطب في يده فأمسك ذراعه وهو يجذبه إليه و يشير بيده للخارج قائلًا:

- عتمان أنت شايف اللي قاعد تحت المظلة هناك ده؟

- معلش يا باشا عدم المؤاخذة أنا نظري زي ما أنت عارف وغير كده مفيش نور كفاية

لم يهتم (عمر) بما قاله الصول (عتمان) فهرول نحو الباب و فتح الباب ليهرول للخارج تابعه بخفة (عتمان) اقترب (عمر) بخطوات واثقة حتى أصبح على بعد خمسين مترًا فقط من المظلة ولم تتبين الرؤية فحسب فقال بصوته الجهوري:

- مين قاعد هناك؟؟

لم يسمع سوى صوت الرياح التي تزوم من حوله هو و الصول (عتمان)، بلع الصول (عتمان) ريقه بصعوبة وهو يقول:

- يالا بينا يا (عمر) بيه نرجع للبوكس ونحاول نهرب من أم المكان ده

لم يرد عليه (عمر) وأخرج سلاحه من حزامه الجلدي و صوّب نحو المظلة وهو يقول بنبرة صوت عالية قائلًا:

- أنا هضرب بالنار مين اللي قاعد هناك؟؟

ما زال الصمت هو المسيطر على هذا المشهد فرفع (عمر) يده في السماء و أطلق عيارًا ناريًا أعلن عن سيمفونية رائعة ولكن لم يتحرك ساكنًا لهذا الشخص.. واصل (عمر) السير وتقدّم أكثر و من خلفه الصول (عتمان) خائفًا وصلت دقات قلبه إلى أقصاها.. بدأت الإضاءة تُظهر ملامح هذا الشخص و

أصبح وجهه أكثر وضوحًا،

قلب (عمر) نظره نحوه ببلاهة.. فوجد امرأة لا تختلف كثيرًا عن تلك العجوز التي رأها في المنزل تماثلها في عمرها تجلس أسفل المظلة لم يتبين حتى الآن الأمر فحسب.

- إنتي مين.. انطقي بدل ما أضرب بالنار..

لم يسمع منها شيئًا.. مدّ يده بسلاحه وهزّها به فأراحت بجسدها للوراء.. بلع (عمر) ريقه وهو ينظر إلى الصول (عتمان) وهو يقول متعجبًا:

- دي جثة ميتة!!

تلعثم (عتمان) وهو يقول:

- وهو في ميت بيقعد كده يا باشا

نظر من جديد (عمر) إليها بعد مقولة (عتمان) فلاحظ شيئًا مكتوبًا على يديها، تقدّم أكثر وحاول أن يستعيد قواه فوجد شيئًا مربوطًا حول معصمها و مكتوب عليه تاريخ 11/10/1975 اندهش (عمر) و وقف مشدوهًا وهو يفكّر.. اقترب منه (عتمان) وهو يقول بخوف:

- هنعمل إيه يا باشا؟

نظر إليه (عمر) بحدة و نهره قائلًا:

- مالك يا (عتمان) واقف مش على بعضك ليه، أنت أول مرة تشوف جثة و لا إيه انتهى من جملته و نظر خلف (عتمان)

فوجد سيارة قريبة منه واقفة لا تتحرك ، اقترب منها (عمر) لعلّه يجد القاتل أو يجد أي شيء مُتعلقًا به، نظر إلى السيارة حيث غطّاها الغبار إلى درجة تجعل من تمييز لونها أمرًا مستحيلًا ولكن اكتشف (عمر) إنها سيارة مرسيدس موديل 1975 ليس بداخلها أحد، تقلب (عمر) نظراته بداخلها وهو يقول (لعتمان)

- عتمان خليك هِنا متتحركش لحد ما أرجعلك

- أنا يا باشا! وهِنا؟ و لوحدي! قالها (عتمان) وهو خائف وعيناه تزوغ يمينًا و يسارًا

عقد (عمر) حاجبيه وقال بنفاذ صبر وبغضب:

- أيوه أنت يا عتمان نفِّذ الأمر.. قالها (عمر) وهو يهرول من جديد نحو المنزل أوقفه غصن شجرة جرحه في يده، توقَّف متألمًا لثواني ثم أكمل و هرول من جديد دفع الباب بقوة فوجد العجوز متقوقعة فوق مقعدٍ خشبيٍ ملتفة بشالٍ أسود و ابتسامتها فوق وجنتيها المتجعدة، نظر إليها و تحرَّك نحوها حاصرها بذراعيه وهو يقول بغضب:

- إنتي كنتي تعرفي حاجة عن الجثة دي؟

ابتسمت في وجهه ولم ترد، ثم نظرت إلى الجرح الذي في يده . زفر في ضيق وشعر لأول مرة بعدم الفهم و الخوف، نظر خلفها فوجد هاتفًا تحرَّك بخفة نحوه و أمسك السماعة فوجد أن الخدمة لم تنقطع قام بالاتصال بالمركز لحظات من الانتظار و التأمل حتى قالت العجوز بنبرة ثقة:

- محدّش هيصدقك يا عمر

في هذة اللحظة أتى الرد من الجهة المقابلة قال عمر بلهفة:

- ألو أنا المقدم (عمر الراوي)

أتى الرد من الجهة الأخرى:

-أهلًا بحضرتك يا باشا منتظرين حضرتك من بدري

- معلش على التأخير حصلت ظروف في الطريق ممكن بس حد يبعتلي قوة وعربية إسعاف ضروري

- خير يا فندم حصل حاجة في الطريق

- مش وقت شرح دلوقتي نفّذ الأوامر لو سمحت، ياريت قوة و عربية إسعاف ضروري

- طيب قولي مكان حضرتك فين بالظبط

نظر في وجه العجوز التي تقف أمامه مبتسمة وتابع قائلًا:

- أنا في عزبة فرعون..

***

(3)

في تلك الليلة كانت عيادة الدكتور (حسن) صاحب الخمسين عامًا خاوية تمامًا من المرضى، تلك العيادة الوحيدة في الريف يأتي له كل أهل تلك القرى النائية، وبرغم إنه دكتور تشريح لكن يأتي له كل أنواع المرضى، سواء كان من تخصصه أم لا.. ولكن من الغريب أنه لم يدق بابه مريضٌ واحدٌ منذ ثلاثة أيام، شيء جعله يعتقد أن أهل القرية أصبحوا لا يمرضون.. ظل جالسًا خلف مكتبه يحدّق في تلك الجمجمة المجوفة الموضوعة أمامه، وظل يحدثها كعادته ليخفف من حدة الملل.. شعر أن عليه فعل أي شيء بدلًا من جلوسه داخل عيادته هكذا.. ظلّ يدوّن بعض الكلمات الغير مفهومة في ورقة بيضاء أمامه وهو يدندن أغنية قديمة للست أم كلثوم. لم يستمر الوضع كثيرًا حتى زفر في مللٍ ونهض وهو يرتدي معطفه البني، وتحرّك خطوات للأمام فوقف أمام النافذة، وجد الريّاح تضرب الأشجار في الخارج.. أحسّ برجفةٍ من البرد احتلت جسده النحيف، نفخ في يديه ليشعر بالقليل من الدفء، لفت انتباهه وجود عيون لامعة تقترب من بعيد نحو العيادة.. استشعر بشيء ولكن لم يميّزه حتى الآن.. وقفت مجموعة من الكلاب بعيونهم اللامعة و استقرت أمام العيادة تنبح بصوتها وكأنها تتأهب لحدثٍ جللٍ.. ينظرون بعيونهم اللامعة إلى النافذة وكأن نباحهم حديثٌ إلى الدكتور (حسن) الذي لم يفهم شيئًا قط.. ولكن الأمر أصبح مدهشًا بالنسبة له.. عندما رآهم يلتفون ويمشون بشكل دائري

حول بعضهم البعض. مما جعل الدكتور (حسن) ينظر إليهم مشدوهًا، ظل يرمقهم يراقب تحركاتهم الغريبة ولكن قطع هذا المشهد صوت جرس هاتفه، لم يعيره اهتمامًا..مازالت عيناه متصلبتين على "الكلاب"، انتبه أخيرًا (حسن) إلى هاتفه قبل أن ينتهي الجرس، هرول نحو مكتبه ورفع السماعة و همّ بالرد قائلًا:

- ألو

جاء الرد من الجهة المقابلة قائلًا:

- الدكتور (حسن) معايا؟

- أيوه أنا مين معايا؟

- أنا مأمور القسم محتاجينك ومحتاجين عربية إسعاف ضروري

وقف (حسن) منتبهًا ورفع نضارته بسبابته و بحث بعينيه على ورقة و قلم و مدّ يده وهو يجذب ورقة بيضاء وقلم وهو يقول:

- ممكن العنوان يا فندم؟

- ملوش لزوم.. أنت عدّي علينا في القسم بعربية الإسعاف وهنروح مع بعض العنوان

- تمام يا فندم مسافة السكة وهكون عند معاليك..

أنهى (حسن) المكالمة و مدّ يده وأخذ حقيبته الجلدية

ليضع بها كل مستلزماته الطبية وهرول مسرعًا نحو الباب، توقفت قدماه مرة واحدة و نظر من جديد نحو النافذة ليسمع صوت نباح الكلاب من جديد يعلو أكثر من قبل ، فتحرّك نحو النافذة وقام بإغلاقها، وهمّ بالرحيل..

***

انتهى الآن (مصطفى العطار) من ترتيب الأوراق التي تخص تلك العجوز الغامضة بخصوص عزبة فرعون، الساعة الآن اقتربت من العاشرة مساءً ذهبت مريم منذ أكثر من ساعتين و تركته بمفرده داخل المكتب كما تركته (جهاد) بعد انتهاء ساعات العمل المتّفق عليها فأغلق جميع الأنوار و أغلق الباب خلفه و ذهب خارج العقار وقف أمام سيارته التي اندهش أنها نظيفة بشكل ملفت، فنظر إلى حارس العقار (رجب) الذي كان جالسًا فوق أريكة خشبية قائلًا:

- رجب هو أنت غسلتلي العربية؟

- أيوة وطلعت عيني طول النهار.. قالها دون أن ينظر له

اندهش مصطفى و عقد حاجبيه وهو يقول مستفهمًا:

- وأنت إيه إللي تعبك وخلاك تغسلها أنا مطلبتش منك كده

زفر (رجب) بضيق وهو ينهض من فوق الأريكة و تقدّم إليه وهو يقول:

- الست العجوزة اللي كانت عندكم النهاردة إدتني خمسين جنية وقالتلي أغسلها أكيد مش هغسلها علشان سواد عيون

اندهش أكثر (مصطفى) من قول (رجب) و تذّكر العرض التي قدمته تلك العجوز له اليوم بخصوص شراء السيارة ، و لكنه في النهاية ترك (رجب) خلفه و تقدّم حتى فتح باب السيارة و جلس و وضع ملف قضية (عزبة فرعون) على الكرسي المجاور له و لكنه لاحظ شيئًا غريبًا وجد قطرات صغيرة من الدماء متواجدة فوق المقعد، مدّ يده وهو في حيرة شديدة ولمس بطرف إصبعه تلك الدماء و رفعها أمام عينيه يتحسسها بعدم فهم، لوى شفتيه ولم يعطِ للأمر أهمية كبيرة و أدار محرك السيارة و ذهب..

***

ما زال يقف الصول (عتمان) خلف المقدم (عمر) مضطربًا تزوغ عيناه من حين لآخر إلى وجه الجثة المخيفة الصامتة التي أمامه.. مازالت الرياح مسيطرة على هذا المشهد.. اقترب (عتمان) للأمام بأقدمين تتخبطان ببعضهما البعض قد ملأها الخوف و الاضطراب وهو يقول بلهجته قائلًا:

- أنا إيه إللي خلاني أمشي من الطريق ده بس.. أنهى جملته وتحوّلت كلماته إلى بخار أبيض يتطاير مع الرياح

نظر إليه (عمر) غاضبًا فوجد (عتمان) شاحب الوجه خائفًا لم يره هكذا من قبل، فنهره (عمر) وهو يقول بحدة:

- مالك يا (عتمان) فيك إيه؟ أنت مكنتش كده زمان، كان قلبك ميت مش بتخاف من أي حاجة حتى الموت.. وغير ده

كله أنا مش عارف إيه السبب اللي يستدعي الخوف اللي أنت فيه ده..

ظهرت قطرات عرق متناهية الصغر على جبينه برغم برودة الجو.. فنظر (عتمان) بريبة إلى (عمر) و لم يتفوّه بكلمة، ظلّ يقف صامتًا تزوغ عيناه على تلك الجثة الجالسة خلف عمر..

تابع (عمر) قوله وهو يقول بحدة:

- اجمد كده يا (عتمان) مش ناقصة توتر

فقال (عتمان) بنبرة خائفة:

- ربنا يعدّي الليلة دي على خير

نظر إليه (عمر) في حيرة، ثم وجّه نظراته من جديد نحو المظلة ليراقب وجه الجثة الشاحبة.. فأخرج علبة سجائره و أشعل واحدة منتظرًا سيارة الإسعاف والمأمور أن يأتوا..

في هذا الوقت سمعا صوت سارينة سيارة الإسعاف وسيارة الشرطة قد أتت.. تنفّس (عتمان) الصعداء و أخرج زفيرًا هادئًا من جسده و اطمئن قليلًا.. نظر (عمر) فوجد المأمور (سليمان) يرتدي زيه العسكري و بجواره شخص يخبئ جسده الضعيف داخل معطف بني كبير الحجم جعل جسده أكبر حجمًا مما يبدو.. تأكّد (عمر) أنه الدكتور و خصوصًا بعد ما رأى تلك الحقيبة الجلدية التي يمسكها بيده الصغيرة.. نظر المأمور (سليمان) إلى (عمر) و صافحه وهو يقول:

- إزيك يا (عمر) معلش آسفين على التأخير

ابتسم له (عمر) وهو يقول:

- ولا يهمك يا فندم.. المهم ياريت حضرتك تعاين المكان ده و تشوف الجثة دي، أنهى جملته وهو يشير بيده نحو المظلّة ليرى المأمور (سليمان) جثة امرأة كبيرة في السن تجلس أسفل مظلة خشبية، خلع المأمور (سليمان) غطاء الرأس الذي يزيّن رأسه، واقترب من المظلة وهو يحدّق جيدًا في وجه الجثة الشاحب التي أمامه، انتبه هو أيضًا من ذلك التاريخ المدون على معصمها ولم يفهم شيئًا.. نظر (سليمان) إلى الدكتور (حسن) و تابع قائلًا:

- اتفضل يا دكتور ممكن تقدر تفحص الجثة

رفع (حسن) نظّارته بسبابته و مرّ من جانب (عمر) حتى وصل أمام الجثّة، ظلت عيناه متصلبتين عليها قليلًا.. لم يمر من الوقت كثيرًا حتى قام بفتح الحقيبة الجلدية التي معه و أخرج منها كشافًا يدويًا صغير الحجم و السماعة الطبّية و وضعها في أذنه وتقدّم نحو الجثة و قام بفتح عينيها برفق بيديه و أشعل الكشاف في عينها اليسرى ثم فعل نفس الشيء في عينها اليمنى، ثم وضع السّماعة على صدرها فلم يسمع شيئًا، بعد انتهائه من هذا وقف مستقيمًا ولم يفهم شيئًا مطلقًا، ضمّ شفتيه ولم يعطِ لهم أي جوابًا.. ألقى نظراته نحو التاريخ المدوّن على معصمها فـهرش في رأسه ولم يفهم شيئًا فقال (عمر) بترقب مستفهمًا:

- في حاجة يا دكتور؟

وضع (حسن) الكشاف من جديد في جيب معطفه ونظر نحو (عمر) وهو يقول:

- من حيث إن في حاجة فهو في طبعًا

تبادلت نظرات (عمر) بالمأمور (سليمان) بينما (عتمان) يقترب من (عمر) قليلًا لكي يفهم ما يدور حوله فقال (عمر) بدون مواربة:

- ياريت توضّح أكتر يا دكتور في إيه بالضبط؟

- بصراحة يا جماعة أنا مش فاهم في إيه بالضبط بس الجثة دي متوفية بقالها فترة

فقال (عمر) متوجسًا وهو يقترب من حسن:

- بقالها فترة قد إيه يعني يا دكتور يوم يومين؟؟ تلاتة؟

قال (حسن) وهو ينظر في وجه (عمر) قائلًا:

- مش يوم و لا يومين يا باشا، دي متوفية بقالها سنين المدة قد إيه مش هقدر أحددها دلوقتي بس مش بعيد تكون متوفية من التاريخ اللي مكتوب على إيديها ده. قطّب (عمر) حاجبيه و لم يستوعب ما يقوله هذا الدكتور صاحب الجسد الضعيف فقال (عمر) على مضض:

- أنت بتقول إيه يا دكتور.. أنت عايز تقولي إن الجثة دي بقالها سنين متوفية طيب إزاي متحللتش لحد دلوقتي..

- مهو ده اللي أنا مستغربه دلوقتي يا فندم.. بس أنا متأكد من كل كلمه أنا قُلتها

كانت الجدية التي ظهرت على قسمات وجه (حسن) جعلت (عمر) يرتجف ظلّ (عتمان) يترقّب تعبيرات وجه (عمر) بطرف عينه وهو خائف.

نظر إليه (عمر) وقبل أن يتفوّه قاطعه المأمور (سليمان) وهو يقول:

- حاجة مش منطقية خالص يا دكتور و محتاجة تفسير قوي

مازال (حسن) يقف مستقيمًا يحاول أن يقنعهم بشيء غير مقتنع به، ولم يفهم كيف حدث ذلك و لكن قال بثبات :

- ده كل اللي أقدر أقوله دلوقتي معاليك و دلوقتي لازم ناخدها على المستشفى وبعد التشريح هنعرف سبب الوفاة.

هزّ المأمور (سليمان) رأسه متفهمًا قول الدكتور، ثم نظر إلى (عمر) و أمسك بذراعه وذهب به بعيدًا وهو يقول:

- عمر إحنا مضطرّين نصدّق الدكتور حسن لحد ما نشوف الطب الشرعي هيقول إيه دلوقتي لازم نرفع البصمات و ناخد كل الأدلّة بس قولّي يا عمر الأول إيه اللي حصل لإيدك.

نظر عمر إلى يده وهو يقول بهدوء:

- جرح بسيط متشغلش بالك، قالها و رمى منديلًا كان يحبس به قطرات الدماء المنسالة من يده على الأرض

زمّ (سليمان) شفتيه وهو يقول بترقب:

- في سؤال يا عمر و لازم تجاوبني عليه.

نظر إليه عمر وهو شارد الذهن أخرج سيجارة من علبته و أشعلها ونظر إلى (سليمان) قائلًا:

- سؤال إيه يا باشا؟

- هو أنت اتصلت بينا إزاي في المركز المكان هِنا مفيهوش أي وسيلة اتصال حتى شبكة المحمول مش موجودة هِنا وصعب تتصل بأي حد.

رمقه (عمر) وهو ينظر نحو المنزل المتواجد خلف المأمور (سليمان) قائلًا:

- مفيش يا سليمان باشا إحنا لما العربية عطلت بينا دخلنا البيت ده واتصلت بيكم من هِناك وعلى فكرة في ست عجوزة ساكنة في البيت ده لازم ناخد أقوالها أنا شاكك إنها ورا كل حاجة بتحصل هِنا.

استمع إليه (سليمان) وهو يقول مشدوهًا:

- بيت إيه.. وست عجوزة إيه يا (عمر) اللي أنت بتقول عليهم دول، المكان هنا مهجور بقاله زمن ومحدش أصلًا يقدر يجي هنا ويقرّب من العزبة

أخرج (عمر) دخانًا أزرق من فمه وهو يقول:

- يا باشا زي ما بقولك كده البيت ده أنا دخلته و فيه ست

عجوزة جوه لازم نستجوبها حتى استنى قال جملته و نظر إلى (عتمان) الواقف خلفه متسعة حدقة عينيه من حديث المقدم (عمر) فتابع عمر قائلًا:

- عتمان قول لسيادة المأمور إن في ست عجوزة جوه في البيت علشان مش مصدقني.

علامات الذهول و الاندهاش ظهرت على قسمات وجه (عتمان) وهو يقول بخوف:

- ست عجوزة إيه يا عمر باشا اللي أنت بتتكلم عليها ماكنش في حد معانا جوه في البيت..

نظر إليه (عمر) بعدم فهم ولم يفهم هل يمزح معه الآن (عتمان) أم لا، ولكن شدّ انتباههم صوت الدكتور (حسن) الذي ما زال واقفًا أمام الجثة وهو يقول بصوت شبه مرتفع:

- مستحيـــــــل!!

نظر إليه (عمر) وهرول نحوه ومن خلفه (سليمان) و(عتمان) نظر (عمر) نحو المظلّة واقترب من الدكتور (حسن) وهو يقول:

- في إيه يا دكتور؟

نظر إليه الدكتور مشدوهًا مصدومًا وهو يقول:

- قلب الجثة..

قال (عمر) وعينه تترقب الدكتور (حسن) قائلًا:

- ماله؟؟ قالها وعيون الجميع تنظر إلى دكتور حسن منتظرين الرد

قال (حسن) في ريبة:

- رجع من تاني ينبض

نظر إليه (عمر) في حيرة ولم يفهم شيئًا قط توجهت نظراته نحو الجثة التي أمامه ولم يفهم شيئًا

***

الذهاب إلى المجهول

(1)

القاهرة 12 أكتوبر عام 2000

في الطابق التاسع في إحدى أبراج المعادي الفخمة والتي تتعدى العشرين طابقًا تسلّلت أشعة الشمس بعدما قام ذلك الشاب الوسيم (سليم مرجان) بإزاحة ستار النافذة..

(سليم مرجان) هو شاب صحفي في جريدة (الساعة) طويل القامة في بداية عقده الثالث مفتول العضلات لديه من الوسامة الكثير، يقف الآن مستقيمًا أمام المرآة وهو يرتدي بنطاله الجينز و قميصًا أبيض مفتوح الأزرار ليظهر جسده الرياضي وعضلات بطنه المنسقة..

انزعجت الفنانة الاستعراضية (حياة مراد) من أشعة الشمس التي تسلّطت الآن على وجهها المستدير ففتحت عينيها ببطء وهي تضع يديها في مواجهة أشعة الشمس، كانت الرؤية غير واضحة منذ الوهلة الأولى و لكن لم تنتظر الكثير حتى أصبحت الرؤية واضحة تمامًا أمامها رآت (سليم) وهو يقف يرتدي ملابسه ودخان سيجارته المتدلية من بين شفتيه أعلنت عن سيطرتها داخل الغرفة، رفعت جسدها العاري لأعلى وهي تخبئ بالغطاء مفاتنها المتوهجة.. ثم رفعت خصلات شعرها الذهبية خلف أذنيها وقالت بشفاه ملأها الدلال قائلة:

- صباح الخير

نظر إليها (سليم) وابتسم وهو يغلق أزرار قميصه قائلًا:

- صباح النور

قالت بنفس الدلال بعد ما تثاءبت متسائلة:

- صاحي من بدري؟

أغلق (سليم) قميصه وجلس فوق أريكة إسفنجية وهو يرتدي حذاءه وتابع وهو يقول لها:

- من نص ساعة كده يا دوب عملتلي فنجان قهوة.. صحيح إيه شقتك دي كلها ده أنا توهت فيها يا شيخة.. أنهى سليم جملته وهو ينظر إلى هاتفه بيأس وتابع قوله:

- يا نهار أسود و منيل.. تليفوني فاصل شحن من امبارح و زمان رئيس التحرير قالب عليّا الدنيا المفروض كُنت أعمل معاكي حوار صحفي و آخدلك كام صورة ماكنتش عارف إن الليلة هتبقى صبّاحي.. أنهى جملته وهو يغمز لها بعينه مبتسمًا و ينهض من جديد ليقف أمام المرآة.

نظرت له وهي منتشية من ليلة أمس وقطمت شفتيها الحمراء وهي تقول بدلال:

- بصراحة كانت ليلة تجنن و أنت كمان كنت تجنن يا سليم ياريت تتكرّر تاني.

ابتسم لها ولم يعقّب على كلامها كان مستمرًا في إرتداء

ملابسة أطفأ سيجارته في المطفأة وهو يقوم بتصفيف شعره فقالت من جديد:

- (سليم)

- نعم

- ما تيجي نتجوز و أجيبلك شقة قد دي مرتين و أدخّلك الوسط و أخلّي الصحافة تكتب عنك أخبار في الجرايد بتعتهم وتبقى مشهور زيي و يمكن أكتر كمان.

استدار (سليم) بجسده ونظر إليها وظهرت ابتسامة على قسمات وجهه الوسيم و اقترب منها حتى جلس على حافة السرير، نظر إلى عينيها الواسعة فداعبت رائحته أنفها المدببة وصوت أنفاسه جعلها كالجمرة المتوهجة من جديد قطمت شفتيها الحمراء التي حجزت من ورائهم الكلمات و ضربات قلبها كان يسمعها وهو بجوارها مررت يديها على لحيته الناعمة منتظره الرد فقال بثقة وهو ينظر إلى عينيها الواسعة قائلًا:

- أنا الوسط بتاعكم ده مليش فيه.. و غير كده أنا أول مرّة أشوفك فيها كان إمبارح وقولتلك إنّي مش بتاع جواز، ثم اقترب أكتر منها و طبع قبلة على شفتيها وتابع قوله

- ولو كنتي ناسية أحب أفكرك إن أنا اللي بكتب الأخبار و بنجّم الناس، مش حد تاني. أنهى جملته وهو يأخذ حقيبته وكاميرته الموضوعين على المنضدة الصغيرة أمامه ذاهبًا فقالت من خلفه:

- هشوفك تاني؟

قال وهو ما زال يعطي لها ظهره ذاهبًا خارج الغرفة و بصوت مرتفع قليلًا:

- وقت ما تحبي تشوفيني قولي جزر وهكون عندك.. سلام..

***

(جريدة الساعة)

وقف (سليم) أمام المبنى الصحفي المزخرف بأحجار كلاسيكية من الخارج بدراجته النارية. خلع تلك الخوذة من فوق رأسه وأخذ حقيبته الجلدية الصغيرة ثم نظر إلى رجل الأمن الواقف مستقيمًا أمام الباب الرئيسي للجريدة و ابتسم له فرحّب به الأخير.. و فور دخوله للجريدة سمع صوتًا من خلفه، صوت ليس بغريب على أذنه يقول له بنبرة مرتفعة فيها شيء من الحدة:

- أنت فين يا زفت من إمبارح قالبين الدنيا عليك؟

نظر (سليم) خلفه ليجد صديقه (أحمد مهران) يرتدي بذلة ثمانينية كعادته ونضارة طبّية تملأ وجهه القمحي الصغير وقد ظهرت على ملامحه نظرات الغضب، ابتسم (سليم) و اقترب منه وهو يقول بخفة ظل لكي يهدئه:

- أبو حميد حبيبي والله كنت لسه على بالي

اقترب (أحمد) من سليم وهو يعقد يده خلف ظهره و يقول بنفس النبرة قائلًا:

- مردتش عليا يا (سليم) كنت فين من إمبارح و الزفت المحمول اللي أنت شايله ده حاولنا نتصل بيك عليه من مكتب رئيس التحرير لقيناه مقفول؟

هرش (سليم) في مؤخرة رأسه وهو يقول بتردد و بصوت لا يسمعه أحد قائلًا:

- كُنت في شغل

- نعم! بتقول إيه يا حبيبي؟

نظر له سليم وقال بنبرة صوت أعلى:

- كنت في شغل يا أحمد.. ومُكلّف بيه من رئيس التحرير بنفسه

- أااه شغل وطبعًا الشغل ده مع الرقاصة (حياة) لحد وش الصبح مش كده

رفع (سليم) سبابته أمام وجه (أحمد) وهو يقول بنبرة ساخرة:

- مسمحلكش يا (أحمد) لو سمحت مسمهاش رقاصة اسمها فنانة استعراضية

- لا والله طيب و الفنانة الاستعراضية دي بقى فضلت قاعد معاها ليه لحد وش الصبح؟

ابتسم (سليم) وأردف قائلًا:

- كنت بشرحلها إزاي بنستخرج الماغنسيوم من باطن الأرض بس أحب أطمنك يا أحمد البنت طلعت ممتازة جدًا و استوعبت كل اللي شرحتهولها بكل سهولة

ابتسم (أحمد) في وجه صديقه قائلًا:

- أنا مش قادر أفهم أنت بتجيب وقت لكل البنات اللي أنت بتعرفهم دول منين المهم رئيس التحرير مستنيك من الصبح وجي النهاردة قالب وشه علينا كلنا.

استلقى وعدك منه بقى يا عم الحبيب

بلع (سليم) ريقه بصعوبة وهو يقول في نفسه:

- ربنا يستر..

بعد دقائق بسيطة وقف (سليم) أمام باب خشبي تزيّنه لوحة نحاسية منقوش عليها مكتب رئيس التحرير، فسمع صوتًا جهوريًا من الداخل يعنّف أحد المحرّرين بصوته الغليظ.. بلع (سليم) ريقه بصعوبة وتردّد في الدخول و لكن قد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، بعد لحظات بسيطة فُتح الباب على مصراعيه ودلف للخارج المحرر الذي كان مع رئيس التحرير منذ قليل، وأمامه رأى فتاة جالسة وهي (رقية) تلك الفتاة الغامضة صاحبة الـ 27 عامًا والتي لا وفاق دائمًا بينها و بين (سليم)، فنظر (جلال الحناوي) رئيس التحرير ليجد (سليم) يقف مرتعبًا في الخارج ابتسم (جلال)

وهو يقول بنبرة ساخرة قائلًا:

- أهلًا أستاذ (سليم) بنفسه شرّف و جِه مكتبه ده إحنا نفرّق شربات على الموظفين بقى طيب كُنت قولنا..سيبلنا خبر يا أخي إن معاليك جاي كُنا فرشنا الأرض رمل.. أو كنت جيت استقبلتك بنفسي.

تنهّد (سليم) في خجل من رئيسه و تقدّم للأمام وهو يختلس النظرات إلى رقية الجالسة والتي ظهرت ابتسامة خبيثة على وجهها فقال سليم إلى رئيسه:

- أنا يا ريس كنت مع..

قاطعه (جلال) وهو يقول بعد ما ضرب بيده طرف مكتبه:

- ماهو المصيبة إن أنا عارف أنت كنت مع مين يا بيه..كنت يا سيدي مع الرقاصة اللي بعتك عندها إمبارح تعمل معاها حوار صحفي، وطبعًا أنت نسيت نفسك معاها ماهو أنت نسوانجي.

- يا ريّس أنت فاهمني غلط.. دي طلبت مني معروف فقُلت مكسفهاش

نظر له (جلال) وهزّ رأسه بيأس و جلس خلف مكتبه وهو يقول:

- مشكلتك معايا يا (سليم) إني بحبك و عارف إنك شاطر في شغلك المهم أقعد وقولي فين الحوار الصحفي و الصور علشان ينزلوا في عدد بكره.

- جاهزين يا ريّس.. قالها (سليم) وهو يخرج بعض الصور من حقيبته و يمدّ يده بها نحو (جلال) نظر الأخير إلى رقية المنتبهة إليهما منذ بداية الحوار فاستطرد:

- كنتي محتجاني يا (رقية) خير في حاجة في الشغل؟

قالت بصوتها الناعم:

- أنا يا ريّس كُنت عاوزه أبلّغ حضرتك...

قاطعهم صوت الهاتف الداخلي لجلال فرفع السماعة بعد ما أوقف حديث رقية بإشارة من إصبعه وقال بصوته الرخيم:

- ألو..

-..

- للأسف لا لسه يا فندم.. محدش من الصحفين عاوز يروح

-..

- طبعًا يا باشا عارف إن ده شغل بس برضو الموضوع صعب على أي صحفي

-..

- حاضر يا باشا النهاردة هيكون الموضوع ده خلصان بإذن الله متشلش همّ

أنهى (جلال) المكالمة ولم يفهم (سليم) شيئًا وهو جالس أمام (جلال الحناوي) فمدّ رأسه للأمام وهو يقول بفضول قائلًا:

- هو في إيه يا ريس؟

نظر له (جلال) من خلف نضّارته وهو يقول في حيرة:

- صاحب الجريدة اللي بيقبضني و يقبضكم إنتوا الاتنين طلب نبعت مراسل للغربية لمكان اسمه عزبة فرعون يغطّي الحدث اللي هناك، بيقولوا يا سيدي في ضابط كان منقول لهناك في طريقة اكتشف جثة و الموضوع قالب الداخلية كلها، فقرّرنا ننفرد بالحدث ده ونبعت حد بس للأسف محدش من الزملاء موافق يروح يغطّي الحدث من هناك الكل خايف برغم إننا جايبين موافقة أمنية

تشاجرت الأفكار في رأس (سليم) وبعد لحظات قال:

- أنــا..

نظر له (جلال) بعدم فهم و شبّك أصابعه ببعض وهو يقول متسائلًا:

- أنت إيه يا سليم؟

- أقدر أنا أكون المراسل اللي يروح عزبة فرعون يا ريس

ضحك (جلال) حتى فاضت عيناه من الدمع وهو يقول:

- أنت يا سليم عاوز تروح عزبة فرعون..

- مش مناسب ولا إيه يا ريس؟ قالها سليم مستفهمًا وهو قاطب حاجبيه بعدم فهم

- لا مناسب طبعًا يا (سليم) بس أنا عارف إن دي مش

دماغك.. طيب قولي هتنسى حريمك إزاي؟

تنحنحت (رقية) في جلستها فتنبّه إليها (سليم) و جلال فنظر إليها الأخير وهو يقول:

- أيوه يا (رقية) أنا آسف اتفضلي كملي كنتي هتطلبي مني حاجة

- أنا يا ريس جاية من الصبح وقاعده مع حضرتك بخصوص الموضوع اللي بتتكلم فيه ده مع الزميل سليم.

عقد (جلال) حاجبيه و تبادل مع (سليم) النظرات بعدم فهم، ثم عاد بنظراته إليها من جديد وهو يقول:

- تقصدي إيه يا رقية؟

- أقصد يا ريس موضوع عزبة فرعون أنا أول ما عرفت الخبر جيت و قُلت أبلغ حضرتك إن أنا عاوزة أكون المراسلة اللي تروح عزبة فرعون تغطي الحدث

- بس يا بنتي الموضوع ده صعب على أي بنت.

- يا ريس صعب إزاي يعني على أي بنت، حضرتك عارفني كويس إنّي أقدر أعمل أي حاجة بنفس كفاءة أي راجل

- طيب والدتك عارفة إنك عاوزه تروحي عزبة فرعون؟

قطّبت حاجبيها وهي تقول:

- وماما مالها في شغلي يا ريس أرجوك توافق

قال (سليم) بغضب:

- أنا مقدرش يا ريس أروح مأمورية زي دي وشايل هم بنت تكون معايا

ابتسمت (رقية) ونظرت إلى (سليم) وقالت:

- وإيه إللي دخل حضرتك في الموضوع أصلًا

- نعم!! قالها سليم وهو رافع حاجبه الأيسر مندهشًا من حديثها

عادت بنظراتها إلى (جلال) وهي تقول بعطف:

- يا ريس أنا هنا في مكتبك بقالي أكتر من ساعة قبل ما الزميل (سليم) يجي من سهرته اللي كانت مع الفنانة (حياة) من إمبارح و كمان يا فندم، ده تخصصي "قسم الحوادث" و أنا اللي بطلب منك يا ريس إنّي أروح المأمورية دي بعد إذنك ياريت توافق.

نظر إليها (سليم) متعجبًا من طريقتها...و قال بنفاذ صبر إلى (جلال) :

- وأنا اللي قُلت الأول يا ريس إنّي محتاج أروح المأمورية دي، وأظن أنت عارف كويس إنّي هقدر أجيبلك كل التفاصيل.

ابتسم (جلال) و شبّك أصابعه فوق صدره وهو يقول:

- خلاص كفايا إنتوا الاتنين.. إنتوا هتتخانقوا قدامي و لّا إيه..

أنهى جملته وهو ينظر إليهما بتركيز ثم طرق بأصابعه فوق مكتبه قائلًا:

- خلاص إنتوا الاتنين هتروحوا مع بعض العزبة وهيساعدكوا في كده عم (جمال البهنساوي) مدير الأمن ساكن قريب من العزبة وهتكونوا في استضافته.. لمدة 48 ساعة

- مســـتـــحـــيـــل

قالها (سليم) و (رقية) في آن واحد متعجّبين من قول (جلال)

- مالكوا مش عاجبكوا قراري ولا إيه؟

- يا ريّس أنا مش هبقى مطمنة وأنا مع الشخصية دي لوحدنا.. قالتها (رقية) وهي تشير بأصبعها نحو (سليم).

- وأنا يا ريس مش هبقى في مأمورية صعبة زي دي و شايل هم واحدة ممكن تعطّلنا كتير لحد ما نجيب معلومات عن القضية.

نظر إليهما (جلال) وقال بغضب:

- خلاص أنا قررت إنكم إنتوا الاتنين اللي هتروحوا العزبة ولو كده ممكن نبعت معاكم واحد تالت علشان لو حصلت بينكم مشكلة و اللي أنا متأكد إن أكيد هيحصل بينكم مشاكل كتير بس يا ترى مين الشخص التالت ده اللي هقدر أقنعه يروح معاكم..

في هذه اللحظة فتح الباب ليتقدّم (أحمد مهران) ببدلته العثمانينية قائلًا:

- أستاذ (جلال) دي بروفة العدد الجديد قبل الطبع ، اتفضل اطّلع عليها.. انتهى من جملته و نظر إليهم فوجد (جلال) و(سليم) و(رقية) يحدّقون إليه مبتسمين.. فتعجّب أحمد من نظراتهم إليه و ارتعشت ابتسامته و رفع نضّارته بيده وهو يقول ببلاهة:

- إنتوا بتبصوا لي كده ليه..

***

(2)

جلس (سليم) خلف مكتبه وهو يشعل سيجارة و يمسك كاميرته يتفحّصها بحماس شديد قبل رحيلهم إلى عزبة فرعون، نفخ دخان سيجارته في الهواء دون رجعة، ثم نظر إلى صديقه (أحمد) وهو ما زال ينوح و يلعن معرفته (بسليم)، فضحك سليم في نفسه على ما يفعله صديقه قال (أحمد) بعصبيّة شديدة بعد ما نبتت قطرات عرق متناهية الصغر على جبينه رغم برودة الجو وهو يقول:

- أنا مالي بيك و مالي بالقرف ده كله أنا راجل بتابع الشغل في المطبعة قبل الطبع، إيه اللي يخليني أتكعبل معاك في حواراتك دي.

أخرج (سليم) إضاءة بيضاء من كاميرته وهو يوجّه كلماته إلى صديقه قائلًا:

- مالك بس يا أبو حميد دي تجربة جديدة علينا إحنا الاتنين و ربنا يسهّل كده نبقى صحفيين علينا القيمة..

نظر (أحمد) إليه بغضب وهو يقول:

- معاليك عاوز تثبت نفسك و تغيّر من أسلوبك و عاوز تروح مكان زي ده أنا مالي أروح معاك ليه فهمني؟؟

نظر إليه (سليم) و لم يتفوّه بكلمه، صبّ تركيزه كله على كاميرته التي يتفحصها قبل رحيلهم.. في هذه اللّحظة دخلت عليهما (رقية)، فنظر إليها (أحمد) وهو يشير إليها بيده

كحركة مسرحية وتابع قوله:

- وأهي الهانم شرّفت هي كمان الأستاذة (رقية) اللي عاوزة تثبت للكل إنها أحسن صحفيّة في الجريدة.. انتهى من جملته وتحرّك حتى توسّط الغرفة و أشار إليهما بيده بعصبية مبالغ فيها وهو يستطرد:

- إنتوا الاتنين تدخلوا لأستاذ (جلال الحناوي) دلوقتي و تطلبوا منه إن مش هينفع آجي معاكم..اتفقنا.

اقتربت منه (رقية) وهي تقول بأدب:

- على فكرة صاحبك السبب أنا ماكنتش عاوزة حد يطلع معايا المأمورية دي من الأساس.

- لا أنا اللي كنت هموت علشان أطلع معاكي، قالها سليم بنبرة ساخرة وهو ينظر إلى كاميرته ولم يعيره ما قاله (أحمد).

نظر إليهما أحمد و رفع نضّارته بسبابته وهو يقول:

- بصوا إنتوا الاتنين خلافاتكم دي أنا ماليش فيها و أنا مش هاااجي معاكم المأمورية دي.. ولو على جُثتي..

***

في نفس اليوم بعد مرور عدة ساعات وقف (سليم) يحمل حقيبة جلدية فوق كتفه بداخلها كاميرته و بعض من متعلقاته الصغيرة، مهندم في ملابسه يرتدي نضّارة شمسية تزيد من جذابيته يقف بجواره (أحمد) صديقه وهو يرتدي

فيست بني وقبعة تحمل نفس اللون و حذاء رياضي و حقيبة كبيرة فوق ظهره و نضّارة شمسية تخفي ملامح وجهه الصغير يقف مضطربًا بجوار سليم ينظر من حين لآخر إلى ساعة يده التي لا تتحرك منتظرين أن تأتي إليهما (رقية) للذهاب إلى مغامرتهم التي لم تبدأ بعد.. نظر (سليم) إلى صديقه الخائف وهو يقول مازحًا:

- إيه اللي أنت لابسه ده يا (أحمد) هو إحنا رايحين نحارب.

نظر إليه (أحمد) من خلف نضّارته ولم يعقّب على كلامه..ظل مضطربًا ،اقترب منه (سليم) وهو يربّت على كتفه ليطمئنه قائلًا:

- أوعدك إن المأمورية دي هتغيّر مصيرنا كصحفيين.. متقلقش هما كلهم 48 ساعة وهنرجع..

- ده لو رجعنا.. قالها (أحمد) وهو ينظر إلى الفراغ.

لوى (سليم) شفتيه وهو يقلب دفة الحديث قائلًا:

- آه صحيح يا أبو حميد، أنت ماشفتش صاحب الجريدة اللي إحنا شغالين فيها دي أنا معرفش صاحبها خالص.

نظر (أحمد) إلى ساعة يده وهو يقول:

- أنا كمان ماشفتهوش بس اللي أعرفه إن الجريدة شراكه ما بين رجل الأعمال (فؤاد عادل) وما بين واحدة ست كده معرفش اسمها.

قطع حديثهما وقوف سيارة أجرة أمامهما لتدلف منها

(رقيه) وهي تحمل حقيبة متوسطة الحجم فوق ظهرها لتقترب منهما وهي تقول بنبرة جادة:

- آسفة على التأخير.

هزّ إليها (سليم) رأسه بينما أحمد أخذ نفسًا ملأ صدره بالهواء وقال بصوت مرتعش:

- ربنا معانا و تعدّي المأمورية دي على خير علشان أنا مش مطمّن..

قطع حديثهم صوت عم (جمال البهنساوي) داخل سيارة تابعة للجريدة بيضاء اللون يجلس بجانب السائق أشار إليهم بيده وهو يقول مبتسمًا:

- يالا يا أساتذة عاوزين نوصل للعزبة قبل الشمس ما تغيب.

استجابوا جميعًا لقوله حيث تقدّم (سليم) ليأخذ مقعدًا خلف السائق و بجواره وضع (أحمد) حقيبته وجلس هو الآخر أما عن (رقية) فأخذت مقعدًا منفردًا خلفهم جميعًا..

***

بعد مرور ساعة تقريبًا كانت السيارة تتحرّك باتجاة الغربية وصوت الراديو يدوي بأغنية للعندليب بداخلها ينظر (سليم) إلى الشوارع عبر النافذة بينما (أحمد) فقد أراح رأسه للوراء فاتحًا فمه على مصراعيه نائمًا، و أصبحت (رقية) تدندن مع الأغنية الصادرة من الراديو، نظر إليهم عم (جمال) وهو يتحدّث بصوته لكي يقطع وصلة الملل هذه قائلًا:

- العزبة دي بقى يا أستاذ (سليم) من أغرب الحاجات اللي ممكن تخطر على بالك

توقّفت (رقية) عن الدندنة و استمعت لعم (جمال) بتركيزٍ شديدٍ فقال (سليم) مستفهمًا:

- مش فاهم تقصد إيه يا عم (جمال)؟

ابتسم (جمال) وهو ينظر إلى (رقية) قائلًا:

- في حكايات كتير حوالين العزبة دي وعلشان كده الناس بتخاف تقرّب منها، بيقولك من سنين أيام الاحتلال في عيلة بحالها ماتت و ادفنت تحت أرض العزبة دي.

بلع (سليم) ريقه وهو ينظر إلى (أحمد) الغارق في النوم وحمد الله أنه لم يسمع قول (جمال) ثم نظر خلفه إلى (رقية) التي اندهشت من قول عم (جمال) وهي تقول:

- ممكن توضح أكتر يا عم (جمال) لو سمحت؟

ابتسم عم (جمال) بغموض و شعر أن هناك حديث يتحدّثه يلفت انتباههما فقال وهو مبتسم:

- أبويا الله يرحمه اسمه بدير البهنساوي كان صديق (رفعت السويسي) صاحب العزبة دي كلها وهو اللي حكالي إن في يوم حصلت مذبحة بين عيلة السويسي وعساكر الاحتلال الإنجليزي و وقتها عيلة السويسي دي كلها ماتت و ادفنت تحت أرض العزبة و من وقتها العزبة مهجورة ملهاش صاحب لحد ما ظهرت الجثة دي فيها إمبارح و الضابط شافها.

في هذا الوقت تحرّكت السيارة إلى ممر صغير منجرف غير ممهّد و إشارة الراديو أصبحت مذبذبة لعدم وجود إشارة لذلك.. نظر (جمال) للخارج و هو يقول:

- خلاص يا أساتذة جهّزوا نفسكم، كلها خمس دقايق و نوصل البيت إحنا كده دخلنا عزبة فرعون

بلع (سليم) ريقه وهو يتبادل النظر إلى (رقية) التي حاولت أن لا يظهر خوفها على قسمات وجهها و لكنها باءت بالفشل..

رفع (سليم) نظارته السوداء فوق جبينه حتى اتضحت الرؤية له أكثر، و نظر من النافذة ، فوجد أن هناك ساحة واسعة محترقة.. و لكنها لم تنج من آثار الحريق كانت ملطخة بالسناج متأهبة للاشتعال.. و هناك مظلّة ملتف حولها بعض رجال الشرطة،ظنّ أن هذا المكان هو مكان الحادث، اقترب منهم أحد رجال الشرطة..وهو يتساءل إلى أين يذهبون، ليخبره السائق وعم (جمال) عن هويتهم حيث أخرج (سليم) ورقة الموافقة الأمنية و أعطها لهذا الشرطي ليتفحصها، بعد لحظات مرّت السيارة بأمان للأمام في طريقها إلى منزل (جمال البهنساوي) نظر (سليم) بتركيز في الخارج فوجد منزلًا قديمًا كبير الحجم يبدو من فخامته أنه لمالك العزبة قديمًا كان المنزل مُغلقًا، الأتربة تغطّيه من الخارج و بجواره ببضع أمتار مسجدٌ مهجورٌ بابه مخلوع و جدرانه مهدّمة، مرّت السيارة من أمامهم لتظهر كلمة أمام عين (سليم) مكتوبة بخط لا بأس به و بلون أحمر، ظنّ أن تلك الجملة مكتوبة بدم شخص ما على جدار المسجد من

الخارج نظر إليها (سليم) بتركيز وقالها في سره

" أين أنتم عندما تبعثرت أشلاؤنا"

لم يدرك متى كُتبت تلك الجملة ومن كتبها،و لكنه أيقن أن هُناك لغز غامض داخل العزبة في انتظاره..

توقفت السيارة أمام منزل قديم صغير الحجم في هذا الوقت استيقظ (أحمد) من نومه وهو يستوعب إنهم قد وصلوا أخيرًا.. خرجت من المنزل امرأة أربعينية وقفت في مقدمة المنزل مرتدية عباءة منزلية وتحكم شعرها الذي غطاه بعض الشيب بحجاب مبتسمة في وجوههم وهي ترحّب بالضيوف بينما خرجت فتاتان تتباين أعمارهن من بين الـ 8 سنوات إلى الـ10 سنوات يرتدين عباءات منزلية ويقفن خلف تلك المرأة التي قالت بصوتها:

- أهلًا وسهلًا يا حضرات نوّرتوا المكان.

دلف (جمال) من السيارة وهو يساعدهم على النزول بحقائبهم، ونظر إلى المرأة الواقفة أمامه وهو يشير بيده قائلًا:

- عفاف مراتي أم البنات..

ابتسم إليها كلًا من (سليم) و رقية فرحبت بهما وهي تهز رأسها و تشير إليهما بيدها مرحبًا بهم داخل المنزل..

***

كان المنزل قديم الطراز صغير الحجم من طابقين الطابق

الأول يوجد به ردهة متوسطة الحجم و حجرتان وغرفة المعيشة، أما الطابق الثاني فهو عبارة عن حجرتين فقط، تقدّم (سليم) للأمام وهو ينظر إلى كل أركان المنزل، حتى وقف أمام صورة أبيض و أسود داخل برواز كبير، معلقة على أحد الجدران لرجلين مرتديين عباءات لم تتضح ألوانهما، أما رقية فوقفت تداعب الفتاتين، تقدّم عم (جمال) حتى وقف بجانب (سليم) الذي صبّ تركيزه كله على تلك الصورة وهو يقول:

- دي صورة أبويا بدير البهنساوي و اللي جنبه ده عم (رفعت السويسي) صاحب عزبة فرعون.

نظر إليه (سليم) وهو مبتسم وهزّ رأسه متفهمًا قوله.. في هذا الوقت سمعوا صوت (أحمد) وهو يضع حقيبته على الأرض قائلًا:

- طيّب ممكن تقولنا يا عم (جمال) اليومين دول هنقعد فين.

نظر إليه (جمال) و تقدّم بخطوات سريعة وهو يشير بيده إلى إحدى الغرف قائلًا:

- عدم المؤاخذة يا أستاذ (أحمد) عارف إن البيت مش قد المقام بس الأوضة دي هتقعد فيها أنت و أستاذ سليم.. أما الأستاذة رقية هتقعد في الأوضة اللي جنبكوا دي.. يالا دلوقتي تقدروا تتفضلوا ترتاحوا شوية لحد ما (عفاف) تحضر لنا لقمة نتغدى بيها..

اقترب منه (سليم) وجذب ذراعه للأمام وهو يهمس له قائلًا:

- عم (جمال) لازم من الصبح ندخل الوحدة السرية اللي تبع الداخلية مش عاوز أوصيك.

ابتسم إليه (جمال) وهو يربت على كتفه قائلًا:

- متشلش هم يا أستاذ سليم كل حاجة أنا مرتب لها سيب الموضوع ده على الله ثم عليا أنا..

اقتربت منهما (رقية) وهي تقول بشك:

- إنتوا بتقولوا إيه؟؟

- بنتكلم في الشغل.. قالها عم (جمال)، أما (سليم) فشد انتباهه تلك الفتاة الصغيرة وهي تختبئ خلف منضدة صغيرة خائفة تنظر إلى باب المنزل بخوف وكأنها تشعر أن هُناك شخص ما يقتحم المنزل الآن اقترب منها (سليم) ولكن أوقفه (أحمد) وهو يقول:

- امسك يا عم (سليم) معايا شنطتك دي و تعالى نرتاح شوية من الطريق.. نظر إليه (سليم) ثم نظر من جديد نحو تلك الفتاة الخائفة و التي ما زالت تنظر إلى باب المنزل بخوف ثم أخذ الحقيبة من صديقه و دلفوا داخل الغرفة..

***

(3)

قبل غروب الشمس من نفس اليوم وقفت سيارة الشرطة أمام الوحدة السرية دلف منها كلًا من المأمور (سليمان) و المقدم (عمر)، ومن خلفهما تقدّم الصول (عتمان) و الدكتور (حسن).. دخلوا مبنى الشرطة الصغير المكون من ثلاثة طوابق و المحاط بالأسلاك الشائكة ، رفع العسكري -الواقف في هذا الوقت نبطشية- يده بالتحية العسكرية، فمرّوا من أمامه و تقدموا حتى وقفوا في رواق الطابق الأول كان الطابق مستطيل الشكل.. وأبوابه كئيبة وقفوا أمام غرفة حتى استدار المأمور (سليمان) بجسده ونظر في وجه (عمر) وهو يقول:

- ده مكتبك يا سيادة (المقدم) نفس مكتب سيادة الوالد في السبعينات عارف إن النهاردة كان في أحداث كتير أنت مريت بيها بس حابب نتكلّم مع بعض شوية في مكتبي يا (عمر)..

هزّ (عمر) رأسه بالإيجاب ثم نظر إلى الصول (عتمان) و أردف قائلًا:

- إستناني يا (عتمان) أنت و الدكتور في مكتبي لحد ما أخلص مع (سليمان) باشا

بلع (عتمان) ريقه وهو يهز رأسه في وضعية القبول فقد فقد أعصابه في تلك الليلة المُخيفة ، نظر بطرف عينه إلى الدكتور (حسن) الواقف مستقيمًا خلفه منكمشًا تحت معطفه الثقيل يُخرج أنفاسه على هيئة بخار أبيض يتطاير من

فوقهما، تقدّم (عتمان) وفتح باب الغرفة ومدّ يده ليضغط على مفتاح الإضاءة لتضيئ الغرفة بأكملها..كانت الغرفة كبيرة مستطيلة الشكل السقف على ارتفاع سبعة أمتار تزينه مروحة كبيرة الحجم ساكنة لم تتحرك ، تقدّم الدكتور (حسن) وراءه وهو يتأمل حركة الصول (عتمان) القهرية وهو يحاول أن يفرض سيطرته على أعصابه التى في حالة من الانهيار.. توسّط الغرفة (عتمان) و جلس على أريكة أسفنجية التي في مؤخرة الغرفة ضربات قلبه وصلت إلى أقصاها وضع وجهه في راحة يده خائفًا.. جلس على الكرسي المقابل له الدكتور (حسن) يراقب تعبيرات وجهه الخائفة و يده المرتعشة..

خلع الدكتور (حسن) نضارته و مسحها في معطفه بدون داعٍ ثم وضعها من جديد أمام عينيه.. ظلّ يراقب (عتمان) حتى شدّ أطراف الحديث قائلًا:

- أول مرة من ساعة ما مارست مهنة الطب تقع قدامي حالة بالشكل ده.

أنهى جملته و انتبه ليرى رد فعل (عتمان) و لكن بدون جدوى كان يريد أن يستفزّه ولكن فشل. حاول مرة أخرى فقال وهو ينظر إلى المروحة المعلّقة في السقف الساكنة وهو يقول:

- الحالات دي لازم أكتب عنها في البحث بتاعي و أبحث عن تفسير ليها

بلع الظعم الصول (عتمان) هذه المرة فرفع رأسه وهو ينظر

إلى الدكتور (حسن) قائلًا:

- بقالنا زمن مشفناش بعض يا دكتور (حسن) مصدقتش لما شوفتك جاي مع (سليمان) باشا.

و ابتسم حسن ابتسامة شاحبة ظهرت على قسمات وجهه ومازالت عيناه متصلبتين تجاه المروحة المعلقة فوقه، ثم نظر إلى (عتمان) قائلًا:

- أنا زي ما أنا يا (عتمان) في مكاني أنت اللي اختفيت.

نهض (عتمان) و اقترب من حسن و وقف أمامه وهو يقول بخوف:

- أنت مش خايف من اللي بيحصل ده، دي نفس العلامات بتحصل تاني يا دكتور

أمسك (حسن) بيد (عتمان) و أجلسه أمامه بهدوء وهو يقول:

- أخاف من إيه يا (عتمان) دي كلها صُدف و أنا واحد من الناس اللي مش بتؤمن بالصُدف.

- بس أنت لازم تؤمن يا دكتور المرة دي من اللي شوفناه، أنت شايف إن اللي بيحصل ده طبيعي.

نفخ الدكتور (حسن) في يده ليشعر بالقليل من الدفء، ومال بجسده للأمام وهو ينظر إلى عين (عتمان) الخائفة و وجهه الشاحب ويقول:

- اهدأ يا (عتمان) أنا هفهمـــ...

ابتلع الكلمة من على لسانه قبل أن ينطقها عندما وجد باب الغرفة ينفتح و يدلف للداخل المقدّم (عمر) تقدّم حتى جلس خلف مكتبه بعد أن خلع سترته الجلدية ثم نظر إليهما و قال:

- إستناني بره أنت يا (عتمان) محتاج أتكلّم مع الدكتور حسن لوحدنا.

وقف الصول (عتمان) و رفع يده على جبينه وهو يقول:

- تمام يا فندم.

جرجر (عتمان) قدميه للخارج وهو على نفس الحالة، انتظر (عمر) حتى خرج ثم نظر إلى الدكتور (حسن) و شبك أصابعه فوق مكتبه وهو يقول:

- ممكن تفسير واحد يا دكتور من اللي بيحصل ده ، و ياريت يكون تفسير منطقي يعني إيه جثة ميتة بقالها أكتر من خمسة وعشرين سنة و بعد الفترة دي القلب يرجع ينبض من جديد وتكون لسه عايشة، أنت شايف أن ده كلام منطقي زمن المعجزات انتهى خلاص يا دكتور..

رفع (حسن) نضارته بأصبعه، لا يوجد لديه مصطلح علمي يقوله و لا إثبات لما يحدث فتحدّث من خلف نضارته قائلًا:

- مضطرين ننتظر ونشوف الحالة هتفوق ولا لأ، ولو توفّت في الساعات اللي جاية هننتظر تقرير الطب الشرعي وهو اللي هيحدد بالضبط هي ماتت إمتى؟

وإزاي؟وممكن يكون تشخيصـــــ..

قاطعه (عمر) و أخذ الكلمة من لسانه و أردف قائلًا:

- تقصد إنه ممكن يكون تشخيصك غلط؟؟!

ابتسم (حسن) في وجهه ونطق في برود قائلًا:

- وممكن يكون صح يا (عمر) بيه مفيش حاجة مستحيلة

توقّفت الكلمات في حلق (عمر) و أصبح يطرق بأنامل أصابعه فوق مكتبه في توتر وهو ينظر في وجه (حسن) و اهتززات قدمه أصبحت ترجُّ المبنى بأكمله.. أخرج سيجارة من علبته و قذفها في فمه و أشعلها وهو على نفس الحالة.

نظر الدكتور (حسن) فوجد أن الشمس قد اقتربت من المغيب، فوجّه نظراته إلى المقدم (عمر) وهو يقول:

- هستأذن أنا يا فندم محتاج أرتاح شوية مرهق جدًا من ليلة امبارح، وهتابع مع حضرتك التشخيص و الحالة..

التفت إليه (عمر) في استنكار وظلّت عيناه متصلبتين عليه، نفخ دخان سيجارته في وجهه وهو يقول:

- تمام يا دكتور اتفضل طبعًا.

استقبل (حسن) كلمات (عمر) و عدّل معطفه و مد يده ليأخذ حقيبته الجلدية الموضوعة بجانب قدميه و وقف مستقيمًا و أردف قائلًا:

- أستأذن أنا..مع السلامة يا فندم..

استدار الدكتور (حسن) و تقدّم و قبل أن يفتح الباب سمع صوت المقدم (عمر) يقول له:

- تشخيصك هيطلع غلط يا دكتور

وقف حسن و استدار لينظر في وجه (عمر) من جديد ابتسم ابتسامة ساخرة وهو يقول:

- أتمنى يا (عمر) باشا، بس مظنش.

في هذه اللحظة دلف للداخل شرطي، وقام بالتحية العسكرية في وجه المقدم (عمر) وهو يقول:

- في شخص يا فندم لقيناه واقف بعربيته قريب من العزبة، ومن مكان الحادثة عربيته نفس موديل العربية اللي لقيناها في عزبة فرعون، ولما اتكلمنا معاه عِرفنا إنه محامي و اسمه مصطفى العطار.

دفن (عمر) سيجارته في المطفأة الموضوعة أمامه وهو يقول بلهفة:

- فتشتوه وفتشتوا عربيته؟

- أيوه يا فندم و لقينا معاه ملف يخص العزبة و يخص المجني عليها يا فندم.

نهض (عمر) وهو يشير بيده قائلًا:

- هو فين دلوقتي؟

- واقف بره يا فندم

- دخّلوه بسرعة..

***

دخل كلٌ من (سليم) و صديقه (أحمد) إلى حجرتهما التي خصّصها لهما عم (جمال البهنساوي) كانت الغرفة مستطيلة الشكل يتوسطها سريران متوسطا الحجم وخزانة خشبية صغيرة مستندة على أحد جدران الحجرة و لمبة متدلية من السقف تصدر ضوءًا أصفر باهت و نافذة صغيرة على الجانب الأيسر مرسوم بجوارها رسومات طفولية، اعتقد (سليم) إن تلك الغرفة، غرفة الفتاتين وضعوا أغراضهما في الخزانة حيث تقدّم (أحمد) وهو ينظر متأففًا من المكان قائلًا:

- طول عمري شايف عم جمال ده شخصية غامضة و دلوقتي اتأكدت أكتر لما دخلت بيته..

مرّت كلمات (أحمد) على أذن (سليم)، ثم تذّكر الكلمة المكتوبة على جدار المسجد والذي رآها عند مرورهم.

" أين أنتم عندما تبعثرب أشلاؤنا" فعاد بنظره إلى صديقه الواقف خلفه جالسًا على أحد السريرين و أردف قائلًا:

- ليه بتقول كده يا أحمد؟

نظر إليه أحمد بعد أن خلع القبعة من فوق رأسه وهو يقول:

- يعني أنت مصدق موضوع العيلة اللي ماتت و اتّدفنت تحت أرض العزبة دي..اللي هو هحكاها !

جحظت عين (سليم) من معرفة صديقه لهذه الحادثة كان

يعتقد إنه كان نائمًا فضحك (أحمد) وهو يقول:

- متستغربش كده يا (سليم) أنا مكنتش نايم و سمعت الكلام اللي قاله ده غير إنّي مش جبان زي ما أنت فاكر، كل الحكاية إنّي مابحبش حاجة تحصل وأنا مش مرتب لها ومأمورية العزبة دي جت من غير حسابات.

ضحك (سليم) وتقدّم حتى جلس بجواره و ربّت على يده وهو يقول:

- أوعدك إن اليومين دول هيعدُّوا على خير و إن المأمورية دي هتغيّر حياتنا كلها متقلقش، عندما انتهى من جملته الأخيرة سمعا طرقًا على الباب، و لم ينتظرا كثيرًا حتى وجدا الباب فُتح و يقف أمامهما عم (جمال) يقول لهما متصنعًا ابتسامة على وجهه:

- الغدا جهز يا أساتذة..

مرّت لحظات وهم على الغداء يجلسون على أرض غرفة المعيشة ملتفين حول منضدة خشبية قديمة يلتهمون الطعام في استمتاع شديد حيث، بدأ عم (جمال) من جديد في الثرثرة حول العزبة و أبيه (بدير البهنساوي) وحول عائلة (السويسي) التي دُفنت جميعًا تحت أرض العزبة، نهرته زوجته عند بداية الحديث لوجود أطفال بينهم و لكنّه لا يعيرهم اهتمامًا، وظلّ يتحدث بطريقة سينمائية و لكن الغريب في الأمر أن تلك الفتاة الصغيرة التي تبلغ الثمانية أعوام الجالسة أمام (سليم) و التي طوال الحديث ما زالت

تنظر إلى باب المنزل، و كأنّها تتأهب لحدث جلل انتبه إليها سليم منذ جلوسه على منضدة الطعام يحاول أن يفسر نظراتها المخيفة نحو باب المنزل ولكن الغريب في الأمر ألّا يهتم بها أحد، ولا يتساءلون عمّا حلّ بها وما السبب التي جعلها هكذا دائمًا صامته تنظر إلى باب المنزل.. ابتسم إليها (سليم) وهو يحاول أن يلفت انتباهها نظرت إليه بوجهٍ خالٍ من المشاعر و التّعابير ملامح جامدة لا تناسب عمرها الصغير ثم نظرت إلى صحن الطعام الموجود أمامها و بدأت في تناوله..

انتهى الطعام و انتهت معه ثرثرة عم (جمال) ذهب كل واحد منهما إلى غرفته.. دخلت (رقية) إلى غرفتها و جلست فوق فراشها و أخرجت كتاب من حقيبتها الجلدية الصغيرة و ظلّت تطالعه لفترة بعد مرور عشر دقائق كان السكون هو المخيم على المشهد، رفعت خصلات شعرها خلف أذنها وهي تقلب ورقات الكتاب الذي بين يديها، في هذا الوقت سمعت طرقًا على الباب أغلقت الكتاب و نهضت اقتربت من الباب و قامت بفتحه ولكن لم يوجد شيء أمامها لا يوجد طارق السكون هو المخيم على هذا المنزل الغامض، تقلّبت بنظرتها يمينًا و يسارًا فلم تجد أحد أغلقت الباب و عادت من جديد للداخل تقدّمت حتى وقفت أمام النافذة لتشتم رائحة الهواء، نظرت نحو ذلك المنزل الفخم الذي أمامها شبابيكه حديدية مغلقة و الأتربة تحيط به، كلمات عم (جمال) نحو هذه العائلة التي تملك تلك العزبة تدور في رأسها علامات استفهام كثيرة

أمام عينيها حسّها الصحفي يؤكد أن هُناك شيء ما وراء تلك العزبة ولكن ما لفت انتباهها و جعلت عينيها جاحظة هو هناك غرفة في هذا البيت ظهرت بها الآن إضاءة شحيحة لم توجد من قبل..

***

جلس (سليم) فوق فراشه يحمل بين يديه كاميرته شاردًا في نظرات الخوف التي رآها في عيون تلك الفتاة تلك النظرات لا تختفي من أمام عينه ، لا تستسلم جفونه للنوم تحت ستار الظلام فمأموريته لم تبدأ بعد ، نظر على الفراش المجاور له فوجد صديقه (أحمد) يغطُّ في النوم العميق الصوت الذي أصدره من أنفه يدلُّ على ذلك إنه نائم في سبات، ابتسم في نفسه و وضع الكاميرا أمام عينه و التقط صورة لصديقه وهو على نفس الوضع.. وقف مستقيمًا بعد ذلك و أصبح يدور داخل الغرفة ثم تحرّك نحو النافذة الصغيرة و أزاح الستار بيده ليشتم رائحة الهواء كان الظلام شديدًا لا يخفف سواده سوا شعاع النجوم الساهرة.. ظلّ ينظر في الخارج فوجد هناك على بُعد 500 مترٍ رجال الشرطة وهم يقفون منتصبين لا يهابون المكان، يقفون حول موقع الجريمة و لكن لفت نظره هناك ظلًا لشخص يخرج من منزل عم (جمال)، توقّع أنه عم جمال بنفسه و لكن لماذا يخرج في هذا الوقت، استدار خلف الستار حتى لا يلاحظه عم جمال و لكن ما جعله مشدوهًا و يقف ينظر بعدم فهم عندما وجد الظل يكشف عن صاحبه، لم يكن عم جمال كما

ظنّ (سليم) و لكنّها صديقته في العمل (رقية) تخرج من المنزل بخطوات بطيئة تتحرك فوق أطراف أصابعها، ظلّ يتابعها بعينيه بعدم فهم، حتى وجدها تنظر خلفها وتختلس النظرات وتقترب نحو منزل عائلة السويسي بترقب شديد، حتّى وجدها تقف أمام المنزل و تأخذ نفسًا عميقًا حتى تقترب أكثر و من ثمّ صعدت دَرج المنزل الرخامي ثم اختفت من أمام عينيه.. ظلّ ثواني غير مستوعب ما يدور حوله، لم يفهم شيئًا لماذا دخلت هذا المنزل الآن ما الشيء الذي تُخطط له، و لكن وقف عن تفكيره وزمّ شفتيه حيرة وهو ينطق في نفسه بعدم فهم، كيف استطاعت أن تدخل المنزل وهو مغلق بإحكام؟

تحرّك نحو أحمد وهو يربّت بيده فوق كتفه بلطف قائلًا :

- أحمد اصحى

كرّر نداءه إلى أحمد أكثر من مرة حتى فتح أحمد عينيه ببطء وفركها بيده ثم قال إلى (سليم):

- في إيه يا سليم؟

نظر سليم إليه وهو يقول:

- رقية خرجت من البيت و دخلت البيت المهجور اللي بره، لازم أخرج أنا كمان و ألحقها ضروري.

عَقد أحمد حاجبيه ومدّ يده و أخذ نضّارته الطبيّة و وضعها أمام عينيه وهو يقول:

- ودي دخلت البيت ده ليه و إزاي دخلته من الأساس..

- هو ده اللي هروح و أفهمه، المهم خلّي عينك على الباب مش عاوز حد يعرف حتى عم جمال، مفهوم.

هزّ الأخير رأسه متفهمًا قول صديقه، فنهض سليم و فتح الباب و خرج من الغرفة هناك إضاءة ضعيفة في غرفة المعيشة، كان الهدوء هو المسيطر على المنزل بأكمله، تحرّك ببطء نحو باب المنزل، كان يجب عليه أن يذهب وراء (رقية) ليفهم ما يدور في رأسها، و لكن قبل أن يفتح الباب سمع صوتًا خلفه، صوت بكاء نظر خلفه و اتسعت حدقتا عينيه عندما رأى تلك الفتاة الصغيرة تجلس على الأرض ضامة ركبتيها إلى صدرها، تتلألأ الدموع في عينيها قالت بصوتها الطفولي والذي سمعه سليم لأول مرة منذ دخوله إلى هذا المنزل بعد ما مسحت بيديها الصغيرة دموعها التي انسالت على وجنتيها وهي تقول بخوف:

- أنقذها...

***

المـطـاردة

(1)

الغربية عام 1945 يوم المذبحة

فقدت عائلة السويسي سيطرتها على الأوضاع بعد ما رأت السيارات الإنجليزية المصفّحة و المدججة بالجنود يطلقون عليهم من جديد الرصاصات ليسقط من يسقط و يفرّ من يفر.. وتصبح السيطرة الكاملة لجنود (فرانك) من جديد بعد ما كانت راية النصر مرفوعة بيد (رفعت السويسي)، في هذا الوقت خرجت من العزبة (فاطمة) متّشحة بالسواد تخبئ أسفل خمارها الأسود الطفل الصغير، الذي لا يكفُّ عن البكاء و الصراخ و تسند بيدها الأخرى فاتن وهي شبه فاقدة للوعي بعباءتها الممزقة، و الجروح التي تملأ وجهها الصغير وجسدها النحيف، وقفت (فاطمة) بعيدًا عن تلك الأجواء و هي تتلفت حولها عن أي شيءٍ يساعدها على الخروج نهائيًا خارج العزبة فلم تجد شيئًا سوى صوت الرصاصات الصادر من خلفها ؛ ليعلن عن سيمفونيات رائعة من الموسيقى الكلاسيكة الكئيبة، نظرت في ذُعر خلفها مع صوت الرصاصات وهي ترتجف أكثر، تحاول أن تتماسك و تحاول الحفاظ على ما تبقى من أعصابها، وجّهت نظراتها على الجهة اليسرى فوجدت سيارات أخرى آتية، و لكن ليست كسيارات الجيش الإنجليزي، وجدت بداخلها شبابًا ملامحهم لا تختلف كثيرًا عن ملامح (فرعون)، بلعت ريقها بصعوبة

وهي تراهم ينزحون إلى داخل العزبة هم الآخرين.. في هذا الوقت ظهر أمامها من العدم حنطور، ليظهر من خلف الحصان رأس لشخص أسمر اللون يرتدي بنطالًا كلاسيكيًا فضفاضًا و قميصًا أبيض اللون وهو يطلق صفيرًا من فمه لهم، نظرت إليه (فاطمة) و حاولت أن تستجمع قوتها من جديد وهي تهمس في أذن (فاتن) الغير قادرة على النهوض وهي تقول:

- فاتن استحملي شوية أرجوكي.

أنهت جملتها الأخيرة و هي تتحرك ببطء شديد و صوت صرخات الطفل وصل إلى عنان السماء، نزل الشاب الذي يقود الحنطور و ساعدها هي و فاتن على الصعود، وقبل أن يذهب بهم بعيدًا عن تلك المذبحة، سمعوا جميعًا صوت انفجار داخل العزبة، أخرجت فاطمة رأسها من الحنطور و هي تعود بنظراتها للخلف نحو العزبة من جديد لترى دخانًا كثيفًا خارجًا من العزبة، تحرّك الحنطور للأمام وهي مازالت تنظر إلى مصدر الدخان..

***

ظل الحنطور يخوض ممرات ضيقة خارج العزبة، و طرقٍ غير ممهدة حتى سمعوا فجأة صوت سرينة سيارات الانجليز تظهر خلفهم من العدم، تهاجمهم من جديد بعد ما أطلقوا الرصاصات عليهم.. جحظت عينا (فاطمة) في ذُعر و خوف نظرت إلى الرضيع و هو بين يديها و قبّلت جبينه بحنان، و أمسكت بيديها الأخرى (فاتن) لكي تطمئنها، ظلّ الشاب الذي

يقود الحنطور في الفرار من الرصاصات الطائشة من الجيش الإنجليزي دون أن يصيبه مكروه، حتى دخل بالحنطور زقاقًا ضيقًا كان من الصعب دخول سيارات الإنجليز به، ضحك في خبثٍ وهو ينظر إليهم لإنه نجح في مبتغاه، و أن السيارات أصبحت لا تلاحقه و لكن لم تستمر سعادته كثيرًا حتى وجد نفسه بعد خروجة من الزقاق في ساحة واسعة والناس من أمامه تهرول في هرجٍ و مرجٍ شديدٍ ليرى الشاب من بعيد سيارة أخرى من الجيش الإنجليزي تتقدم نحوهم تطلق عليهم نارًا، نظر الشاب بعدم فهم و شعر لأول مرة بالاضطراب ثم نظر خلفه فوجد سيارة أخرى تقترب منه و يخرج منها عساكر إنجليز يُشهرون في وجهه السلاح وجّه عينيه إلى الجهة اليمنى، فوجد ممرًا ضيقًا من الصعب أن يمر به بالحنطور تشاجرت الأفكار في رأسه و هو ينظر إلى السيارات من أمامه ومن خلفه و أصبحوا على بُعد أمتار بسيطة منه، قبل أن يتّخذ القرار صاح في حصانه حتى اندفع الحصان بقوة للأمام وهو يخوض ذلك الممر الضيق هاربًا.. ظلّ الوضع هكذا لفترة ليست بقصيرة حتى نجح هذا الشّاب في عبور الممر و الهروب من الجنود الإنجليز، من جديد ظلّت فاطمة تهمهم بالأذكار و تحمد و تشكر الله حتى وصل الحنطور أمام مكان في حارة جانبية بعيدة عن الأنظار، يعلو هذا المكان لوحة خشبية منقوش فوقها " قهوة الحبايب" استقر الحنطور أمامها، ثمّ وجّه الشاب نظراته نحو (فاطمة) الجالسة خلفه وهو يقول:

- اجهزوا إحنا وصلنا خلاص..

أنهى جملته و دلف من الحنطور و هو يقترب من القهوة التي كانت مُغلقة بباب خشبي ضخم، أمسك الشاب ذراعه متألمًا ثم طرق الباب طرقتين لم ينتظر كثيرًا حتى فتحت لهم (نعيمة) تلك الفتاة الذي لا يستطيع أحد وصف جمالها، تلك الفتاة صاحبة البشرة البيضاء و الجسد البض المشدود، تخبئ شعرها البني المنسدل تحت حجاب خفيف و ترتدي عباءة ملتصقة بجسدها الناعم، نظرت إلى الشاب الواقف أمامها يبدو عليه الإرهاق والتّعب بل نظرت إلى هيئته فوجدت ذراعة الأيمن ينزف دمًا، أمسكت ذراعه في خوف و دفعته برفق للداخل، ثمّ هرولت نحو الحنطور وساعدت (فاطمة) و (فاتن) على الهبوط، أدخلتهما القهوة ثم نظرت بعينيها يمينًا و يسارًا في الخارج ؛ لتطمئن أن المكان خالي من الجنود الإنجليز ثم أغلقت من جديد الباب الخشبي في هدوء خلفهم..

كان المكان من الداخل واسعًا للغاية يبدو إنها قهوة شعبية يوجد طاولات خشبية متراصّة بجانب بعضها البعض بشكلٍ متساوٍ و مرتب و بار صغير يقف خلفه شابٌ ينظر إليهم بامتنان حيث يوجد أيضًا سلم خشبي في الداخل، يؤدي إلى طابقٍ ثانٍ به عدة طاولات خشبية و هناك غرفتان مغلقتان،

نظرت إليهما تلك الفتاة وهم يقفون أمامها، العرق يتصبّب منهم رغم برودة الجو ثم هرولت نحو الشاب و أمسكت ذراعة الذي ينزف دمًا وهي تقول بصوتها الناعم:

- في رصاصة في دراعك يا (شعبان) أفندي، ولاد الهرمة صابوك. قالت جملتها و رفعت صوتها في الداخل وهي تتابع قولها..

- تعالوا ساعدوا (شعبان) أفندي بسرعة يخرّج الرصاصة دي من دراعه..

فور انتهائها من مقولتها الأخيرة حتى خرج من الداخل شابّان يرتديان كما يرتدي (شعبان) بنطالًا كلاسيكيًا و قميصًا أبيض فضفاضًا، ثمّ وجّهت نظرتها نحو فاطمة الواقفة أمامها بعدم فهم، حتى اقتربت منها و وقفت على بُعد نصف مترٍ تقريبًا رمقت (فاتن) التي أنهكها التعب و فستانها ممزق و على الطفل الرضيع الجائع الذي ما زال يبكي وهو بين يدي (فاطمة)، ثم ابتسمت في وجههم قائلة:

- حمدالله على سلامتكم.

بادلتها (فاطمة) بنفس الابتسامة وهي تقول بلطف:

- الله يسلمك يااا..

قاطعتها تلك الفتاة وهي تقول:

- نعيمة محسوبتك نعيمة..

ابتسمت إليها (فاطمة) في امتنان كبير.. نظرت إليها (نعيمة) وهي تدور في منتصف القهوة و تشير بيديها كحركة مسرحية وهي تقول:

- هِنا بيتجمعوا الصحاب، هِنا النّضال هِنا الحق.. ماتخفوش من حاجة هِنا محدش يقدر يقرب منكم خالص.

عقدت (فاطمة) حاجبيها وهي تقول بعدم فهم:

- مش فاهمة إنتي تقصدي إيه يا ست (نعيمة)

نظرت إليها (نعيمة) وهي تقول معاتبة نفسها دون أن ترد على سؤال فاطمة قائلة:

- يوه.. متأخذونيش نسيت أعملكم حاجة تاكلوها ترموا عضمكم بيها.

أوقفتها (فاطمة) بإشارة من يديها وهي تقول بعد ما هزّت رأسها:

- مالوش لزوم يا ست (نعيمة) بس لو ينفع نرتاح شوية ولو بس في لبن علشان (راشد) جعان..

زمّت (نعيمة) شفتيها في عطف وهي تقول:

- يا حبّة عيني من أول يوم ليه في الدنيا و هو شاف اللي محدش شافه، حاضر يا حبيتي تعالوا دلوقتي ادخلوا الأوضة دي استريحوا لحد ما أجيبلكم اللّبن..

قالت جملتها و تقدّمت حتى فتحت إحدى الغرفتين ليجدوا بداخلها سريرًا نحاسيًا صغيرًا، تقدّمت (فاطمة) وهي تسند بيديها (فاتن) التي أغمضت عينيها الآن من شدة الإرهاق حتى أجلستها على الفراش، نظرت إليهم (نعيمة) و تحرّكت للخارج وهي تقول:

- مش هتأخر عليكم.. عشر دقائق وهرجعلكم..

***

خرجت (نعيمة) من الغرفة متّجهة إلى (شعبان) للاطمئنان عليه، وجدت حالته مستقرة اقتربت منه قائلة:

- فرعون نجا من ولاد الأبالسه دول..

هز (شعبان) رأسه نافيًا وهو يقول:

- محدش يعرف حاجة عن اللي بيحصل في العزبة بس مظنش فرعون هيقدر يهرب المرة دي لو رجالتنا ملحقتهمش عيلة السويسي كلها هتكون ماتت دلوقتي.

خبطت على صدرها في خوف و ذعر قائلة:

- متقولش كده يا (شعبان) أفندي إن شاء الله فرعون هو والرجالة هيرجعولنا بألف سلامة.. قالت جملتها الأخيرة و تقدّمت خلفه و مدّت يديها و أخذت ملاية لف سوداء و قامت بارتدائها وهي تتابع قولها.. أنا رايحة أجيب لبن للواد الصغير اللي جوه يا حبة عيني جعان و مش لاقي حد يأكّله مش هتأخر عليكم..

خرجت للخارج لتذهب إلى أحد البائعين لتشتري الحليب. كانت الشوارع هادئة تمامًا لا توجد حركة كثيرة في الخارج، الجميع يعلم ما يحدث الآن داخل عزبة عائلة السويسي، في النهاية نجحت (نعيمة) في شراء الحليب و نجحت أيضًا في تجاهل تساؤلات البائع الفضولية لها، و حين عودتها وجدت

سيارة من الجيش الإنجليزي تقترب من القهوة حتى استقرت أمامها، حاولت (نعيمة) ألّا يظهر على وجهها القلق فوقفت بثبات أمام أحد الضباط الإنجليز الذي دلف من السيارة و اقترب منها وهو يقول بلغة عربية مكسرة:

- غريبة إنك مش فاتحة القهوة بتاعتك يا (نعيمة)

أخذت (نعيمة) نفسًا ملأت صدرها بالهواء وهي تقول بثبات:

- البلد كلها عارفة يا خواجة باللي بيحصل لابن رفعت السويسي في العزبة و الكل راح يشوف مراسم الإعدام حتى العمال و الصبيان اللي عندي راحوا علشان يشوفوا اللي بيحصل، أصل مفيش حد هيتعدم كل يوم في العزبة يا باشا وعلشان كده قفلت و قولت لمّا الدنيا تهدى والرِجل ترجع زي الأول هافتح

هزّ العسكري رأسه متفهمًا قولها ثم زمّ شفتيه قائلًا:

- طيب إيه مش هتدخليني جوه تعزميني على كاس.

نظرت إليه بخوف ثم نظرت على باب القهوة المغلق، وتلعثمت في قولها وهي تقول:

- طبعًا يا خواجة هو أنا في ديك الساعة إنك تشرّفني بس أنا كنت لسه بقولك كل الصبيان راحوا على العزبة و مفيش لسه بضاعة، أنت تنورني بالليل و أنا عينيا ليك قالت جملتها وهي تقترب منه في دلال شديد، ابتسم في وجهها الضابط

و وافقها في قولها وعاد إلى سيارته وذهب من أمامها.. فور ذهابه أخرجت زفيرًا لتهدأ من نفسها ثم بصقت على الأرض و قالت في نفسها:

- في ستين داهية السكة اللي تودي يا خواجة..

اطمأنت أن كل شيء على ما يرام، فطرقت باب القهوة برفق ففتح أحد الشباب فدخلت مسرعة وهي تخلع تلك الملاية وتقول بصوتها:

- حضروا مية مغلية بسرعة وحضروا اللبن ده، الواد هيموت من الجوع..

قالتها في وجه أحد الشباب اللذين في الداخل، ثم هرولت نحو الغرفة لتجد (فاطمة) مستلقية فوق الفراش مغمضة عينيها وهي تحتضن فاتن و الطفل الرضيع، ابتسمت من ذلك المشهد وعادت أدراجها إلى الخارج قامت بتحضير اللبن للطفل، ثم اقتربت منهما وربتت بيدها على ذراع فاطمة فانتفضت فاطمة في خوف فأشارات (نعيمة) بيديها لتطمئنها قائلة:

- ماتخفيش ماتخفيش يا ختي أنا (نعيمة) خدي اللبن أهو رضعي الواد..

ابتسمت (فاطمة) وهي تأخذ الحليب من يد (نعيمة) وتقوم بإرضاع الطفل لا يمر من الوقت سوى بضع دقائق حتى سمعوا وهم بالداخل طرقات قوية على الباب الخشبي من الخارج.. نهضت (نعيمة) بخفة من جلستها متجهة نحو

الشُراعة التي في الغرفة ونظرت للخارج، اتسعت حدقة عينيها و تسارعت دقات قلبها عادت بنظراتها نحو فاطمة التي نظرت إليها حتى قالت (نعيمة) بخوف:

- دول ضباط إنجليز..

جحظت عيناهما فشعرت فاتن بالخوف من جديد وتكوّنت الدموع في عينيها وهي تنظر إلى فاطمة التي حاولت بقدر المستطاع أن تطمئنها، ربتت الأخيرة على يدها الناعمة وهي تهمس لها:

- ماتخفيش..

هرولت (نعيمة) للخارج و مازال الطرق من الخارج يسيطر على المشهد قالت للشباب من حولها بتوترٍ شديدٍ:

- خرّجوا شعبان أفندي من الباب الخلفي للقهوة بسرعة.

أنهت جملتها وعادت بسرعة للغرفة من جديد فوجدت فاتن تتشبث بيديها في جلباب فاطمة خائفة نظرت إليهما في حيرة وهي تقول:

- قوموا دلوقتي من هنا..

فهمت فاطمة ما ترمي له نعيمة فنهضت بخفة من فوق الفراش وهي تحتضن الطفل وبجانبها فاتن تختبئ خلفها خائفة، فتحركت نعيمة بخفة نحو الفراش و أزاحت الفراش حتى ظهر باب خشبي أسفله جحت على ركبتيها وهمّت بفتح ذلك الباب الصغير ثم نظرت إلى (فاطمة) وهي تقول:

- يالا بسرعة مفيش وقت انزلوا هِنا استخبوا يلا اتحركوا..

هرولت (فاطمة) بسرعة و من خلفها تحرّكت فاتن هي الأخرى لا مجال الآن للتردد حتى نزلوا ذلك السرداب السري.. أغلقت من خلفهم (نعيمة) الباب و حرّكت الفراش من جديد ليعود إلى موضعه الطبيعي، ثم هرولت للخارج و قامت بفتح باب القهوة بثبات وثقة، وجدت أمامها ذلك الضابط الإنجليزي الذي كان يقف معها منذ قليل واقف أمامها يظهر على وجهه ابتسامة خبيثة توحي بما في جعبته و من خلفه عسكريين آخرين، رفعت خصلات شعرها للوراء و وضعت يديها فوق خصرها وهي تقول بثبات:

- أفندم.. في حاجة يا خواجة مش أنا لسه كنت بقولك مفيش بضاعة و القهوة مش شغالة دلوقتي..

ابتسم في وجهها الضابط حتى ظهرت أنيابه و دفع الباب بيده بقوة لتندفع معه (نعيمة) للداخل ظل ينظر في كل أركان القهوة بدون أن يتفوّه بكلمة هو و بقية العساكر الذين معه، تقدّم نحو الغرفة التي بداخلها فاطمة و دفعها بقدمه حتى فُتح الباب على مصراعيه توسط الغرفة وهو يبحث بعينيه عن أي شيء حتى وجد إناءً به لبن ساخن لمسه بيده وهو يضحك بخبث شديد ثم خرج من جديد ليتوسط القهوة وينظر إلى (نعيمة) و أردف بصوته:

- هما فين يا نعيمة؟

اعتدلت نعيمة من وقفتها بعد ما دفعها ذلك العسكري وهي

تقول:

- هما مين دول يا خواجة؟

اقترب منها ذلك الضابط أكثر وهو ينظر على الطابق الثاني ليظهر العسكري الآخر وهو يشير إليه برأسه لعدم وجود أحد في الأعلى، عاد بنظراته من جديد في وجه نعيمة وهو يرفع يده بالإناء ويقول:

- اللي إنتي مخبياهم يا نعيمة.

قالت بثقة وهي تنظر في عينه:

- أنا مش مخبية حد يا خواجة.

صفعها بيده الضخمة حتى شعرت بدوار يجتاحه ا، وألقى الإناء باللّبن فوقها ثم أمسكها من خصلات شعرها وهو يهمس في أذنيها قائلًا:

- أنا مبحبش الكدب يا نعيمة قوليلي إنتي خبتيهم فين... انطقي؟

خيط من الدماء انسال من فمها على فكيها فضحكت وهي تقول بطريقة ما:

- المكان عندك يا خواجة تقدر تفتشه براحتك.

دفعها بيده ليرتطم جسدها على الأرض و تأخذ معها في طريقها طاولة خشبية جرحت يدها أيضًا، صرخ ذلك الضابط في الآخرين وهو يقول بعنف:

- دوّروا كويس لازم نلاقيهم، أنا متأكد إنهم هِنا، أنهى جملته وهو يعود من جديد إلى الغرفة، ومن ثمّ إلى جميع الغرف التي بالداخل فلا يوجد أي أثر لأحد، جلست نعيمة على الأرض تنزف دمًا و وصلت دقّات قلبها إلى أقصاها تخشى أن يراهم ذلك الإنجليزي ليلقى بحدفهم إلى النهاية المحتومة، ظلّ الضابط الإنجليزي يبحث حول نفسه في حيرة، ثم اقترب من جديد نحو نعيمة وجثا على ركبتيه ليصبح في مستوى عينيها و أمسك من جديد بخصلات شعرها وهو يقول:

- مدام مش عاوزه تنطقي و تقوليلي همًا فين، يبقى إنتى اللي هتيجي معايا لحد ما تعترفي.

ابتسمت في وجهه بدون خوف، فجز الضابط على أسنانه بنفاذ صبره، وهو ينهض و يجعلها تنهض معه بالقوة و لكن شيئًا ما أوقفه قبل خروجه من القهوة، شيء بث الذعر في قلب نعيمة ووقف الزمن حينها،عندما سمعوا صوتًا مكتومًا صادرًا من داخل الغرفة صوت لطفل يبكي من داخل الغرفة مجددًا.. ظهرت ابتسامة خبيثة على وجه الضابط وهو يترك يد نعيمة و يهرول من جديد نحو الغرفة.

***

(2)

الغربية عام 2000 منزل جمال البهنساوي

وقفت (رقية) أمام النافذة مشدوهة بعد أن لاحظت الإضاءة التي ظهرت فجأة في ذلك المنزل الغامض المهجور الذي يتوسط العزبة، ظلّت تفكر كثيرًا و لكن ليست فقط تلك الإضاءة التي جعلتها مندهشة، لكن الذي جعل جسدها ينتصب و تنظر مصدومة في خوف و ذعر، عندما وجدت ظلًا لشخص ما داخل هذه الغرفة في المنزل، بلعت ريقها في خوف وهي تغلق النافذة الي توسطت الغرفة وهي تهرش في رأسها مفكرة في الأمر، ذلك البيت المهجور كيف ظهر فيه ظلّ لشخص من العدم. نظرت من جديد نحو النافذة ثم تسحّبت ببطء نحو باب الغرفة لتفتح جزءًا منه و تخرج رأسها فقط للخارج، تقلّبت بنظراتها بالخارج فوجدت الهدوء يخيّم على المنزل، فقرّرت أن تخرج بالفعل ارتدت حذاءها الجلدي و خرجت بهدوء تام، كانت تعتقد أنّ لا أحد يراها و لكن كانت هناك تلك الفتاة الصغيرة صاحبة الـ 8 سنوات تراها جيدًا.. همّت رقية بالخروج ففتحت الباب ببطء و خرجت، ظلّت تتحرك فوق أصابعها حتى لا يشعر بها أحد.. وصلت أمام المنزل، وجدت بابه موارباً و الإضاءة بالداخل شحيحة فلم ترَ أحدًا من موقعها بالداخل ، وجب عليها ألّا تتراجع الآن و أن تذهب للداخل، أخذت نفسًا ملأت صدرها بالهواء و أخرجت زفيرًا هادئًا و صعدت درج المنزل و قامت بالدخول.. بلعت ريقها عند دخولها لهذا المنزل المُخيف ضربات قلبها

وصلت إلى أقصاها، هواءٌ ساخنٌ يلتفُّ حولها لا تعرف مصدره تسحّبت ببطء فلم تسمع شيئًا، ولم تلاحظ شيئًا غير مألوف ظلّت هكذا حتى وصلت أمام الدرج الذي يقودها إلى الطابق الثاني، ومن ثم إلى الغرفة التي رأت بها ظل الشخص المجهول.. استجمعت قواها من جديد و هي تستعد للصعود..

***

كلمة تلك الفتاة الصغيرة إلى سليم جعلته يشعر بالاضطراب و عدم الاتزان عندما قالت بصوتها الرقيق و الدموع على وجنتيها "أنقذها"، هرول بخفة نحو الباب و خرج بهدوء حتى لا يشعر به عم (جمال)، خطا فوق العشب بخطوات تكاد تكون سريعة حتى وصل أمام المنزل وجد بابه مفتوحًا لم يتردد في الدخول.. دخل مسرعًا لكي يصل إلى (رقية) تلك العنيدة التي أخذت أول خطوة في المأمورية بمفردها، توسط الردهة الواسعة و هو يدور حول نفسه يبحث بعينيه عن (رقية)، مصابيح الإنارة ترتعش من فوقه حتى نظر ، وجدها تقف في نهاية الردهة أمام الدرج تستعد للصعود إلى الطابق الثاني، أسرع خطواته نحوها وقبل أن تصعد أخذ بيدها بقوة نحوه، شعرت (رقية) بالخوف من المفاجأة وقبل أن تصرخ وضع (سليم) يده فوق فمها و استندت بظهرها على أحد الجدران و هو يضع سبابته على فمه و يقول بهدوء لكي يهدّئها و بصوت خافت:

- شششش أنا سليم متخافيش.

نظرة عدم الفهم التي ظهرت على قسمات وجه (رقية)كانت كافية لتعبّر عمّا بداخلها أنزل يده فعدلت من وقفتها وهي تهمس بصوت ضعيف قائلة:

- إنت إيه اللي جابك هِنا؟

نظر لها معاتبًا و لكن اكتفى بنظراته لها، لم يتفوّه بكلمة وهو ينظر إلى الطابق الثاني بعينيه و يفكر في شيء.. اقتربت (رقية) أكثر منه وهي تقول بنفس النبرة:

- إنت شوفت نفس اللي أنا شوفته في البيت

نظر إليها في خوف وهو يقول مستفهمًا:

- إنتي شوفتي إيه؟

مالت برأسها وهي تقول مستفسرة:

- معنى كدة إنك ماشفتش حاجة غريبة في البيت؟

أخرج زفيرًا وهو يقول:

- أنا شوفتك إنتي و جيت وراكي في إيه هِنا يا ريت تفهميني؟

كان يتحدث بصوت خافض حتى لا يسمعه أحد ولكن قطع حديثهما صوت شخص يتحدث عبر الهاتف من الطابق الثاني، و صوته قريب منهما نظرا إلى بعضهما البعض و أمسك (سليم) بيد (رقية) وهما يتسحّبان إلى ركن بعيدٍ لا توجد به إضاءة مختبئين ظلا واقفين في زاوية لا يوجد بها إضاءة

من المستحيل أن يراهما أحد يستمعون لصوت الشخص الذي يتحدث عبر هاتف المحمول.. كان صوته مألوفًا بالنسبة لهما كان يقول بصوته:

- مفيش داعي للقلق كل حاجة تمام و الأوضاع كلها مستقرة..

-..

- لا أنا جوه البيت أهو و فتشته حتة حتة مفيش حد جوه خالص

-..

- لا مش مستهلة أنا عيني على البيت هِنا طول الوقت لو حسيت بأي حركة غريبة هكلمك أبلغك.

كان الشخص المتحدث يقف أمام عينيهما يعطي لهما ظهره لم يروا وجهه فحسب.. حتى صدر من (رقية) صوت خافض عندما رأت جرذًا أسود يتحرّك بسرعة خلفها، انتبه إلى هذا الصوت الشخص المتحدث ثم أنهى المكالمة التي معه على الفور ذهب نحو الصوت نظر (سليم) إليها في خوف وهو يضع أصبعه على فمه تحذيرًا لها أما هي فحبست أنفاسها وهي تضع يديها فوق فمها كي لا تصرخ من شدة الخوف مرة أخرى، اقترب الشخص أكثر وهما يحبسان أنفاسهما في ركن ما حتى لا يشعر بهما و لكن عندما اقترب منهما ظل يبحث دون أن يراهما و لكن الإضاءة المعاكسة بيّنت ملامح ذلك الشخص جحظت عينهما وهما ينظران إلى بعضهما البعض

بلاهة و عدم فهم عندما رأوا أمامهم عم (جمال البهنساوي) هو الشخص الذي كان يتحدث بالهاتف، اقترب منهما أكثر وهما يحبسان أنفاسهما لكي لا يشعر بهما حتى عاد من جديد من حيث أتى عندما فشل في إيجادهما، وخرج خارج المنزل و لكن الشيء الذي كان خارج الحسبان عندما سمعوا تكة غلق الباب من الخارج..

نظرت (رقية) وهي تهدأ من نفسها ونظرت إلى سليم بخوف قائلة:

- إحنا أتحبسنا هِنا ده قفل الباب من بره.

لم يتفوّه سليم بكلمة إليها، ظلّ ينظر إلى الباب المُغلق ويتساءل لماذا عم جمال دخل المنزل و لماذا تلك الطفلة قالت له " انقذها" الأمر كان في غاية الصعوبة علامات استفهام كثيرة تدور أمام عينيه حتى سمع صوت (رقية) من خلفه تقول من جديد بنبرة خائفة:

- هنخرج إزاي يا سليم من هِنا.

نظر إليها و فهم المشكلة التي وقعا فيها، ظلّ يبحث عن شيء يفتح به الباب ولكن دون جدوى، لم تفلح كل أساليبه للخروج من هذا المنزل ، حتى استقر و وقف أمام نافذة تطلُّ على العزبة من الخارج حاول أن يقوم بفتحها ظلّ الأمر مُعلقًا للحظات حتى نجح في مبتغاه نظر إلى (رقية) و ابتسم وهو يقول:

- دلوقتي نقدر نخرج..

***

ظلّ (أحمد) يدور حول نفسه في قلق يفرك في يديه وهو يختلس النظرات من النافذة متوترًا بلع ريقه وهو يستعد هو الآخر للخروج إليهما، لا يستحمل الانتظار أكثر من ذلك و لكن لا ينتظر كثيرًا حتى وجد باب الغرفة الموارب يفتح و يدخل على استحياء عم جمال، نظر إليه أحمد مفزوعًا حيث تصنّع عم جمال ابتسامة وهو يقول:

- متأخذنيش يا أستاذ أحمد أنا لقيت الباب مفتوح قُلت إنتوا صاحين، قال جملته وهو ينظر إلى فراش سليم الذي وجده خاليًا وما زال مرتبًا ،عقد حاجبيه و تابع قوله:

- هو أستاذ سليم راح فين؟

توتر أحمد قليلًا و رفع نضارته بسبابته وهو ينظر إلى فراش سليم وهو يقول بعدم فهم:

- سليم يا عم جما...

قاطعهم صوت سليم من خلف عم جمال وهو يدخل من الباب قائلًا:

- كنت في الحمام يا عم (جمال)..

ابتسم أحمد عندما رأى صديقه أمامه أخيرًا، ثم جلس على الفراش و أخرج زفيرًا هادئًا، نظر عم جمال إلى (سليم) الواقف خلفه فوجد ملابسه بها بعض الأتربة نظر إليه نظرة شك وهو يقول:

- هو التراب اللي على لبسك ده من الحمام؟

نظر سليم فوق كتفه فوجد بالفعل هناك بعض الأتربة فقال وهو يتقدم للأمام:

- تلاقيني سندت على أي حاجة متشغلش بالك أنت يا عم جمال

هز الأخير رأسه بشكٍ واضحٍ على قسمات وجهه وهو يتابع قائلًا:

- طيب أسيبكوا تناموا بقى يا حضرات شكلكوا تعبان.

خرج عم (جمال) فنهض (أحمد) من فراشه وجلس أمام سليم وهو يقول متلهفًا قائلًا:

- ها..حصل إيه عرفت (رقية) دخلت البيت ده ليه؟

هز رأسه وهو يقول بيأس:

- الموضوع أكبر من دخول رقية البيت يا أحمد.

- مش فاهم تقصد إيه؟

خلع سليم قميصه و استلقى فوق الفراش وهو يقول:

- أنا كمان مش فاهم حاجة بس أوعدك هفهم كل حاجة قريب..

عاد (أحمد) إلى فراشة و استلقى هو الآخر وهو يقول:

- نام دلوقتي يا سليم بس خلي في علمك بكره لازم تشرح

لي كل حاجة أنا خايف ليكون في خطر قريب مننا..

ابتسم سليم و تقلّب في رقدته وهو يعطي ظهره إلى صديقه وقال في نفسه:

- للأسف إحنا شكلنا في قلب الخطر يا أحمد..

***

(3)

في نفس اليوم قبل ساعات

جلس (مصطفى العطار) على الكرسي المقابل إلى المقدم (عمر) و لم يفهم لماذا أتوا به إلى هُنا ولم يفهم أيضًا تلك الأسئلة التي يرمي إليها المقدم (عمر) في وجهه و كأنه مجرم قد فعل جُرمًا ما، مرّت نصف ساعة من تساؤلات (عمر) حول وجود (مصطفى) في هذا الوقت في عزبة فرعون، ولم يقتنع بتلك الأجوبة التي يتفوّهها (مصطفى) حتى مسح الأخير بيديه على وجهه و قال بنفاذ صبر:

- ممكن أعرف يا سيادة المقدم أنا هِنا لحد دلوقتي ليه؟

رماه (عمر) بنظرة صارمة وهو يشبّك يديه معقودتين أمام صدره قائلًا:

- مش هتمشي من هِنا غير لما تجاوب على كل الأسئلة.

نظر (مصطفى) إلى الفراغ وهو يعود بنظرةٍ متجهمةٍ في وجه (عمر) قائلًا:

- رغم إنّي مش عارف إيه الدّاعي من وجودي هِنا.. و برغم إن اللي حضرتك بتعمله ده مش قانوني.. و برغم إن جاوبتك على كل الأسئلة اللي حضرتك بتوجهها لي من غير ما أعرف إيه السبب، بس برضو أنا معاك اتفضل اسأل و أنا هجاوب تاني قصدي هجاوب تالت ، أنهى جملته وهو يشبك أصابعه و يضع ساقه اليمنى فوق اليسرى مبتسمًا في وجه (عمر)..

أخرج (عمر) سيجارة من علبته و تناولها لحظة من السكون و الصمت و التأمل حتى نظر إليه وهو يقول:

- إيه اللي جابك في الوقت ده العزبة وعاوز إجابة منطقية.. شغل إنك كنت معدي بالصدفة ده مش داخل دماغي..

كان (مصطفى) لم يعطِ أي أجوبة صحيحة إلى المقدم عمر تنفيذًا لوعده إلى العميلة (فاطمة) التي طلبت منه عدم البوح بسر بيع العزبة وألّا يخبر به أحدًا، ولكن زمّ شفتيه في حيرة ونظر إلى الفراغ لثوانٍ وهو يشعر أنّه يجب عليه أن يقول الحقيقة هذه المرة فعاد بنظرته إلى (عمر) الذي نفخ دخانه في وجه فقال (مصطفى):

- زي ما حضرتك عارف إنّي محامي عندي مكتب صغير في القاهرة، في واحدة وكّلتني أبيع العزبة ليها ، وده سبب وجود ملف بخصوص مالك العزبة في عربيتي واللي قدام سعادتك دلوقتي.

النبرة التي تكلم بها (مصطفى) تلك المرة جعلت (عمر) ينتبه إليه وهو يعتدل في جلسته فبادر (عمر) بالسؤال من جديد:

- أنت بتقول واحدة ست؟

هزّ مصطفى رأسه وهو يقول بنفس النبرة:

- أيوه يا فندم كانت واحدة ست جت لي المكتب وعرضت عليا أن أبيع ليها العزبة وأثبتت ملكيتها بالورق اللي قدام حضرتك.

- طيب أنت ليه مقولتش كده من الأول؟

سكت (مصطفى) لبرهة وهو ينظر في وجه (عمر) الجامد وهو يقول:

- لسببين.. أول سبب إنها كانت قيلالي إنّي معرّفش أي حد بخصوص بيع العزبة تاني سبب هو إنّي مش عارف أنا بعمل هِنا إيه.. وعاوز أخلص.

دفن عمر سيجارته في المطفأة التي أمامه وهو يتابع قوله:

- ممكن توصفلي شكل الست اللي جاتلك المكتب.

نظر (مصطفى) أمامه و أطرق مليًا كأنه يُفكر في الجواب قبل أن يرفع رأسه وهو يهزها إيجابًا..

ابتسم له (عمر) وهو يتابع مصطفى وهو يصف تلك المرأة التي تدعى فاطمة، قد وصفها كما رآها بالفعل حيث أن (مصطفى) بارع في الرسم فأخذ ورقة و قلم من مكتب عمر و تابع وهو يرسمها بتفاصيلها كما أنه يتمتع بذاكرة تصويرية جيدة، أنهى رسمته وهو يضعها أمام (عمر) وقال:

- هي دي يا فندم.

رفع (عمر) الرسمة أمام عينيه و ابتسم إنها تلك المرأة هي نفسها تلك التي رآها أسفل المظلّة وهكذا ستكون شكوكه في محلها و أنها ليست متوفاه منذ 25 عامًا كما قال له الدكتور حسن، وأن هناك شيء غامض لم يكتشفه بعد فأنزل يديه وهو ينظر في وجه (مصطفى) و يقول:

- أنت متأكد يا متر من الرسمة دي؟

و ابتسم (مصطفى) ابتسامة ساخرة وهو يقول:

- متأكد طبعًا يا فندم.

شفّر (عمر) عن ساعديه وهو ينظر إلى (مصطفى) و تابع في خبث قائلًا:

- تقول إيه لو قولتلك إن الرسمة دي لوحدة ماتت من 25 سنة.

جحظت عينا (مصطفى) و لم يفهم ما يرمي إليه (عمر) اندهش من قوله و هو يقول:

- إزاي يا عمر باشا أنا بقولك كانت عندي في مكتبي و في شهود كمان زميلتي في المكتب و كمان السكرتيرة.

- مش ممكن تكون شبهها

ابتسم (مصطفى) قائلًا:

- لا أنا متأكد من كل كلمة أنا بقولها.

شبك (عمر) يديه أمام صدره وهو يقول بحزم:

- بص يا (مصطفى) أنا هبقى صريح معاك.. أنا لسه متعيّن جديد هِنا ومن حُسن حظي إن لقيت قضية في أول ساعة أخطي فيها المكان هِنا وعلشان كده أنا مبسوط جدًا وحاسس إن أنا ربنا بيحبني إن يوقّع قدّامي جريمة زي دي في أول يوم في خدمتي في مكتبي الجديد.

هزّ (مصطفى) رأسه متفهمًا ما يقوله (عمر) فتابع الأخير وهو يقول:

- أنا لقيت جثّة في عزبة فرعون، مش بس كده أنا لقيت نفس الست دي، قال جملته وهو يرفع الرسمة التي رسمها (مصطفى) منذ قليل في وجه، فجحظت عينا (مصطفى) وتلعثم في الكلام وهو يقول:

- أنا يا فندم معنديش أي..

قاطعه (عمر) وهو يقول:

- عارف إنك ماكنتش تعرف وهصدّق كلامك إنك جيت هِنا علشان تعاين العزبة وإن أنت محامي المجني عليها بس في حاجة غريبة يا درش.... في إن رجالتنا لقوا أثار دم في عربيتك اللي هي نفس الموديل العربية اللي لقيناها في مسرح الجريمة..

أخرج (مصطفى) زفيرًا و هدّأ من نفسه و ابتسم ابتسامة ودودة وهو يقول بسخرية:

- و إنتوا دلوقتي بتقبضوا على أي حد راكب عربية مرسيدس موديل 75

ابتسم عمر من طريقة مصطفى المصطنعة وهو يقول:

- لو ده هيخليني أقبض على القاتل يا متر، أكيد هعمل كده بس ماظنش إن أي واحد معاه عربية مرسيدس موديل 75 هلاقيه موجود في نفس يوم الجريمة في عزبة فرعون،

و كمان هلاقي أثار دم في عربيته.. أنا عارف إنك محامي شاطر بس للأسف أول ما المعمل الجنائي يثبت إن الدم اللي كان موجود في عربيتك مطابق لدم المجني عليها أظن ساعتها هتبقى قدامي أنت المتهم الوحيد..

عاد وجه (مصطفى) للجديّة و بلع ريقه وهناك علامات استفهام كثيرة أمام عينيه، نظر إلى الفراغ و هو يحاول أن يسيطر على أعصابه و أن يتماسك حتى استطرد:

- أنت مش شايف حاجة غريبة يا سيادة المقدم؟

- حاجة زي إيه؟

- إن واحدة ست تجيلي و توكّلني أبيع لها عزبة وهي عارفة إنّي أكيد هروح وهعاين المكان، وفي نفس الوقت تتقتل في نفس المكان رغم إنها قالت لي إنها مش مستقرة في العزبة.. مش ملاحظ إن في حاجة غلط..

عقد (عمر) حاجبيه وهو يقول:

- ضدفة..

- وأنا مش مؤمن بالصدف.. كُلنا هِنا في دايرة بتكمّل بعض يا سيادة المقدم.. وجودها عندي في المكتب مش صدفة.. نقلك من القاهرة و إنك تخدم في الغربية في الوقت ده بالتحديد مش صدفة.. إنك تشوف الجثة و إنت في طريقك برضو مش صدفة.. الدم اللي في عربيتي و اللي هيخليني قدامك و قدام القانون أنا القاتل برضو مش صدفة، إحنا هِنا

كلنا بنكمل الدايرة مفيش حاجة اسمها ضدف..

شرد (عمر) في حديث (مصطفى) و ابتسم وهو يقول:

- شكلك محامي شاطر يا متر، بس في النهاية هو ده اللي حصل و لو ثبت إنك أنت المتهم لازم تؤمن بالصدف يا متر..

قطع حديثه صوت جرس هاتفه الداخلي، رفع (عمر) السماعة وهو يقول:

- حاضر يا فندم جاي لمعاليك.. انتهى من المكالمة السريعة و نهض وهو يقول في وجه مصطفى:

- خليك قاعد هِنا لحد ما أرجعلك.

***

مرّت لحظات قصيرة حتى فتح (عمر) الباب على المأمور (سليمان) وهو يقول:

- حضرتك طلبتني يا (سليمان) باشا.

كان (سليمان) يجلس خلف مكتبه في يده ورقه يتمعّن النظر فيها، نظر إلى (عمر) وهو يقول:

- اتفضل يا عمر.. أقعد.

تقدّم (عمر) حتى جلس على الكرسي المقابل له قال سليمان مباشرةً:

- عملت إيه مع المحامي اللي لقوه قريب من العزبة.

هزّ (عمر) رأسه وهو يقول:

- بدأت أستجوبه.. و زي ما عرفت حضرتك مستحيل تكون الجثة دي متوفية من 25 سنة.

- ليه بتقول كده؟

- المجني عليها كانت عند المحامي اللي في مكتبي يوم الحادثة الصبح، أظن ده كافي يخلّينا نقول إن تشخيص الدكتور حسن غلط.

هزّ (سليمان) رأسه متفهم جيدًا ما قاله (عمر) وهو يقول:

- طبعًا عرفت أثار الدم اللي لقيناها في عربية المحامي.

- طبعًا يا فندم و أكيد المعمل الجنائي هيثبت إنها مطابقة لأثار الدم اللي لقيناها متجلطة في مسرح الجريمة.

مسح سليمان بيده على وجهه وهو يقول بترقبٍ شديد:

- نتيجة المعمل طلعت يا (عمر).

اعتدل (عمر) في جلسته و قال بحماس شديد:

- ها يا فندم مطابقين؟

هزّ (سليمان) رأسه إيجابًا.. فزداد حماس (عمر) وهو يقول:

- مطابقين للمجني عليها مش كده؟

بلع (سليمان) ريقه وهو يقول:

- للأسف لا يا عمر مش مطابقين للمجني عليها..

نظر (عمر) إلى الفراغ وهو يقول مفكرًا:

- معنى كده لازم ناخد عينة من (مصطفى) المحامي ونطابقها بالدم ده..

- ملوش لزوم يا (عمر).

نظر إليه (عمر) بعدم فهم، ولم يفهم (سليمان) طريقته الباردة تلك فقال له:

- مش فاهم تقصد إيه يا باشا؟

- بص يا عمر هو في حاجة غلط أكيد.. وقريب أكيد هنعرفها.

ابتسم (عمر) وهو يقول:

- مالك يا (سليمان) باشا أنا مش فاهم حضرتك تقصد إيه.. وإيه الحاجة الغلط اللي بتقول عليها دي..

ظلّ سليمان ينظر إليه ثم قال:

- عينتين الدم مطابقين زي ما قولتلك يا عمر.

- أيوه يا باشا مطابقين لمين بقى؟

فتح (سليمان) ذرج مكتبه و أخرج ذلك المنديل الذي كان مع عمر وقت الحادثة يكتم به جرحه ووضعه فوق مكتبه أمام عمر.. نظر إليه عمر مندهشًا ولم يفهم شيئًا نظرة الاستغراب كانت تحتل مركزها الأول على قسمات وجه عمر، فتابع سليمان وهو يقول:

- حسّيتك غريب وقت ما جيتلك العزبة، وكلامك الغريب

اللي كان على البيت المهجور و الست العجوزة اللي قابلتها جوه، ده خلاني أقول إن في حاجة غلط وقتها و كان يستدعي للشّك، أنا أخدت المنديل ده بعد ما رميته وخليته معايا

مال (عمر) برأسه وهو ينظر إلى سليمان مندهشًا وهو يقول مستفسرًا:

- أيوه يا باشا وده معناه إيه بقى؟

- عينتين الدم مطابقين لدمك أنت يا عمر.. الدم المتجلط اللي كان قريب من الجريمة دمك أنت و مطابقة كمان لأثار الدم اللي في عربية المحامي وده معناه إنك نفذت جريمتك قبل ما تيجي هِنا..

- جريمتي! قالها و ابتسم ابتسامة سخرية و تابع قوله.. في إيه يا سليمان باشا هي وصلت للدرجة دي؟

- آسف يا عمر خائّي التعبير.. بس دلوقتي يا ترى مين اللي بيحمل نفس فصيلة دمك لو ملقيناش الشخص اللي عمل كده، مفيش حل هيبقى قدامي غير إن أبلّغ النائب العام.

جحظت عين (عمر) غير مستوعب ما تسمعه أذنه، تدور الغرفة من حوله. لم يفهم شيئًا.. لم يستوعب أنه سيكون هو المتهم أمام سليمان و أمام القانون على جريمة لم يرتكبها..

***

رائــحــة المــوت

(1)

خرج (عمر) من مكتب المأمور سليمان شارد الذهن، أصبح لا يفهم شيئًا.. ظلّ يسير متخبطًا بأقدام مهترئة لم يعِ جيدًا ما قاله في وجه سليمان منذ قليل. كيف يكون هو المتهم؟ كيف ستكون دماؤه تُلطخ موقع الجريمة؟ تشاجرت الأفكار في رأسه، لم يعيره اهتمامًا رجال الشرطة اللذين يمرون من أمامه و يحيونه، كان مشتّت الرأس تائهًا حتى وصل أمام غرفة مكتبه، اقترب منه (عتمان) عندما رآه يسير بخطوات بطيئة شارد الذهن ليسأله عمّا حل به، و لكن لم يرد عليه (عمر) و مرّ من جانبه دون أن يتفوّه بكلمة واحدة، دفع بابه ودخل غرفته وجد (مصطفى العطار) ما زال جالسًا في انتظارة، التفت إليه الأخير دون أن يتفوّه بكلمة، تحرّك (عمر) و أغلق الباب ببطء في وجه (عتمان) و تقدّم حتى جلس خلف مكتبه مرة أخرى، لحظات من الانتظار و التشويش حتى مسح على وجهه ببطء ثم نظر في وجه مصطفى وقال:

- إحنا آسفين يا أستاذ مصطفى حضرتك تقدر تتفضل دلوقتي بس ممكن نطلبك تاني في التحقيق.

شعر مصطفى بشيء غريب حدث لعمر، زمّ شفتيه و اقترب برأسه وهو يتساءل منتظرًا الرد:

- سيادة المقدم..أنت كويس؟

نظر (عمر) في وجه مصطفى طويلًا ثم فرك في عينيه مرهقًا واستطرد:

- أنا كويس يا متر مفيش حاجة بس لو معاك كارت ياريت تسيبه يكون فيه أرقامك و رقم مكتبك علشان لو طلبناك تاني في القضية.

- أيوه طبعًا أوي أوي، قال مصطفى جملته وهو يُخرج محفظة جلدية من جيب سترته و أخرج كارتًا ورقيًا صغيرًا، و مدّ يده به في وجه عمر مد الأخير يده و أخذ الكارت ونظر فيه وقرأ الأسم " مصطفى راشد عبد المنعم السويسي " عقد (عمر) حاجبيع وقال بعدم فهم:

- مصطفى راشد؟ أومال أيه مصطفى العطار ده؟

ابتسم (مصطفى) وهو ينهض من مجلسه مستعدًا للرحيل قائلًا:

- ده لقب مش أكتر يا باشا العطار دي مهنة خالي اللي مربيني و أنا بعتز جدًا بالاسم ده..

هزّ عمر رأسه متفهمًا ما قاله مصطفى.. أنهى جملته الأخيرة وذهب وترك عمر داخل مكتبه مشتّت الذهن، تتشاجر الكلمات في رأسه أصوات مختلطة و متداخلة و أصوات مختلفة تتحدّث بداخله، وضع وجهه في راحة يديه وهو يحاول أن يوقف تلك الأصوات التي لا يستطيع إيقافها، موسيقى تصويرية ألحّت بلا استئذان لتصنع جوًا إجباريًا من الرهبة و التوتر، سمع صوت العجوز التي رآها في ذلك المنزل المهجور

وهي تقول:

- محدّش هيصدقك يا عمر.

صوت عتمان وهو يقول:

- أنت رايح فين يا باشا المكان هِنا مهجور بقاله زمن.

يتابعه صوت سليمان و هو يقول:

- بيت إيه.. و ست عجوزة إيه يا (عمر) اللي أنت بتقول عليهم دول، المكان هنا مهجور بقاله زمن و محدش أصلًا يقدر يجي هنا و يقرب من العزبة.

صوت العجوز من جديد:

- محدش هيصدقك يا عمر.

تشارك في الأصوات صوت الدكتور حسن وهو يقول:

- الجثة دي متوفية بقالها فترة.

صوت العجوز:

- يعود الجميع إلى مسرح الجريمة عاجلًا أم أجلًا"

صوت سليمان:

- عينتين الدم مطابقين لدمك أنت يا عمر.

صوت مصطفى العطار:

- كُلنا هِنا في دايرة بتكمل بعض يا سيادة المقدم.

صوت سليمان:

- وده معناه إنك نفّذت جريمتك قبل ما تيجي هِنا..

صوت العجوز:

- محدش هيصدقك يا عمر

شششششششش قالها لنفسه وهو يحاول أن يهدأ قليلًا ويحاول أن يستعيد تفكيره، أخرج سيجارة بيد مرتعشة و أخرج قداحة و اقترب بوجهه من اللهب الأزرق يقتبس نارًا، أخذ نفسًا من السيجارة و أطلق زفيرًا عاليًا حتى الآن لم يفهم هل حديث سليمان معه اتهام صريح، أم مجرد شكوك، ظل يسأل نفسه كيف وجدوا دمي في مسرح الجريمة و الشيء العجيب كيف وجدوا تلك الدماء في سيارة المحامي مصطفى، وقف الزمن به فجأة و هو يحاول أن يلملم أفكاره، أمسك تليفون مكتبه و مرّر أصابعه على القرص الذي يعلو الأرقام وطلب رقم منزله، فترة من الانتظار على الخط حتى سمع صوت شقيقته (ديجا) ترد بصوتها الناعم:

- ألو؟

تكلم (عمر) مسرعًا وهو يقول:

- أيوه يا ديجا أنا عمر، لو بابا جنبك متحسسهوش إنك بتكلميني.

في هذا الوقت و قبل أن يتصل عمر كانت ديجا تجلس تطالع كتابًا بجوار والدها الذي كان يرتدي نظّارة طبية

و يجلس أمام شاشة التلفاز يشاهد فيلمًا قديمًا لنجيب الريحاني.. تلقّت ديجا كلمات أخيها و هي تنظر بطرف عينها إلى أبيها الذي مازال منتبهًا بشدة إلى الفيلم فغيّرت نبرة صوتها و هي تضحك قائلة:

- إزيك يا بنتي عاملة إيه.. و ليه ماجتيش الكلية النهارده ومتصلة بيّا متأخر كده ليه، قالتها وهي تسحب سلك التليفون ونهضت من مجلسها، نظر إليها أبوها مبتسمًا ثم تابع الفيلم الذي يشاهده، تحرّكت بعيدًا عن أبيها و خفضت صوتها وهي تضع يدها بالقرب من فمها قائلة:

- مالك يا عمر فيك إيه، وليه مش عاوز بابا يعرف إنك أنت اللي متصل؟

- هو لسه صاحي.. قالها بصوت بارد.

- أيوه لسه صاحي، بيتفرج على الريحاني ماهو أنت عارفه بيموت في أفلامه.. المهم أنت قلقتني عليك أنت كويس يا عمر؟

زفر عمر آخر نفس من سيجارته ودفنها في محتواها الأخير في المطفأة التي أمامه وهو يقول:

- أنا كويس بس عاوز أعتمد عليكي يا ديجا في حاجة من غير ما بابا يعرف.

- خير يا عمر في إيه؟

- بابا أول ما يدخل ينام أدخلي أوضة مكتبه، محتاجك

تدوّري كويس على أي حاجة ليها علاقة بمنطقة اسمها عزبة فرعون.

صمتت قليلًا و هي تتابع والدها بعينيها وهو يضحك بشدة على ما قاله الريحاني في فيلم لعبة الست فقالت من جديد:

- مكتب بابا.. أنت عارف إن محدش فينا بيقدر يقرّب من المكتب ده.

- عارف إنه صعب عليكي بس حاولي يا ديجا، و ركّزي في اللي بقوله ده منطقة اسمها عزبة فرعون، أي ورقة أي شخبطة أي تفصيلة عن المنطقة دي فاهمة كلامي

- عزبة فرعون ! طيب قولي ليه فهمني.

- هافهمك بعدين يا ديجا المهم لو لقيتي حاجة ليها علاقة بالمكان ده كلميني على الرقم اللي هديهولك دلوقتي ده رقم مكتبي تمام.

- تمام يا عمر.. متقلقش

***

بعد مرور ساعة تقريبًا انتهى فيلم الريحاني و أغلقت الأنوار، و دخل كلًا من والد (عمر) و ابنته ديجا كلّ إلى غرفته.. لحظات من الصمت و الإثارة مرّت حتى رفعت (ديجا) الغطاء من فوقها وتسحّبت ببطء من فوق فراشها وهي تفتح باب غرفتها بحرص حتى لا يسمعها أحد، وأخرجت رأسها للخارج ومسحت بعينيها الشقة لتطمئن

أن كل شيء على ما يرام، شعرت بهدوء يخيّم على المنزل كانت تلك اللحظة المناسبة لاقتحام غرفة أبيها لتنفيذ ما قاله لها أخوها (عمر) ظلّت تسير فوق أطراف أصابعها حتى وصلت أمام باب خشبي عريض يزيّنه زجاج من المنتصف يعطي أهمية لأهل المنزل (ممنوع الاقتراب و التصوير) مدّت يديها نحو مقبض الباب وهي ترجع بنصف جسدها العلوي للوراء وتصوب عينيها نحو غرفة أبيها لتطمئن.. ثم قامت بفتح الغرفة ببطء حتى لا يصدر صريرًا مزعجًا و يكشف عن فعلتها.. الغرفة كانت مُظلمة إلا من انعكاسات أضواء أعمدة الشارع التي تسلّلت من النافذة.. مَكتبٌ فخمٌ و عددٌ لا بأس به من الأوراق فوقه، في الأمام دولاب متوسط الحجم وعلى اليسار مكتبة ضخمة تنوء رفوفها بحمل من الكتب المكدسة.. دخلت بخفة و أغلقت الباب خلفها بسرعة، لم تعرف ما هي النقطة التي ستبدأ منها ولكن سرعان حتى أخذت أول خطوتها و تحركت نحو المكتب و جلست فوق الكرسي الجلد الضخم، ثم بدأت تبحث في تلك الأوراق المتناثر فوق المكتب عن شيء يخص تلك المنطقة التي أخبرها بها أخوها، و لكنّها ظلت تبحث دون جدوى حاولت أن تقوم بفتح أدراج المكتب ولكن فشلت في ذلك أيضًا كانت الأدراج مُغلقة بمفتاح لا يوجد له أثر.. هرشت في مؤخرة رأسها و ظلّت تفكر حتى نهضت من فوق الكرسي و تحركت نحو المكتبة و ظلّت تبحث من بين الرفوف والكتب عن شيء و لكن باءت بالفشل هذه المرة أيضًا، و لكن أمسكت بكتاب غريب غير شكل الكتب الموضوعة بالمكتبة كتاب قديم و أوراقه مهترئة

لم تهتم به في البداية و لكن وقع من يديها و ظهر منه صورة قديمة.. عقدت حاجبيها و جثت ديجا على ركبيتها وحملت الصورة وجدت صورة أبيض و أسود لطفلين تجاوزا العاشرة من عمرهما، صبي يرتدي جلبابًا فلاحيًا تفاصيل ملامحة تحمل كثيرًا من والدها فبتسمت عندما رأت صورة لوالدها في طفولته و بجانبه تقف فتاة ترتدي عباءة مطرزة بالورود، تزيّن شعرها البني بضفيرتين ينظران إلى الكاميرا مبتسمين ابتسامة بريئة تلقائية، ابتسمت (ديجا) و هي تمرر أنامل أصابعها فوق الصورة ثم نظرت خلف الصورة فوجدت بخط لا بأس به مكتوب (فاتن السويسي).. اندهشت ديجا ونظرت إلى الفراغ وهي تهمس إلى نفسها قائلة "فاتن السويسي!"

***

تقلب (محمد الراوي) في رقدته، أشياء كثيرة تشغل تفكيره لم يذق طعم النوم منذ دخوله إلى غرفته، نهض من فراشه و قرّر أن يذهب إلى غرفة مكتبه ليقوم باتصال ضروري من هاتفه المحمول الذي يتركة دائمًا في غرفة مكتبه، نهض و ارتدى روبه الصوف و تحرّك للخارج.. عند خروجه نظر نحو غرفة (ديجا) وجد باب الغرفة مفتوحًا عقد حاجبيه و تقدّم نحو الغرفة و نظر فلم يجدها بداخلها، نظر نحو الحمام فلم يجدها أيضًا، وقف في حيرة ثم تحرّك نحو غرفة مكتبه ولكن قبل أن يصل إلى الغرفة أصطدمت (ديجا) بجسد والدها فصرخت بخوف وهي تقول:

- إيه يا بابا أنت منمتش؟

نظر إليها والدها بعدم فهم وهو يقول مستفهمًا:

- إنتى إيه اللي مصحيكي لحد دلوقتي و كنتي بتعملي إيه؟

نظرت إليه متوترة و وصلت دقات قلبها إلى أقصاها و تلعثمت في قولها:

- أنا..أنا..

- إنتي مالك يا بنتي في إيه؟ إنتي كنتي بتتكلمي في التليفون ولا إيه؟

ظهرت إبتسامة مرتعشة على قسمات وجهها البريء وكأنها وجدت ضالتها وأشارت بيدها في توتر نحو الهاتف وهي تقول:

- أيوه صح.. أنا كنت بكلم واحدة صاحبتي في التليفون بقولها إن بكره المحاضرات أتلغت و كده.

- في الوقت ده؟

- أصل حرام يا بابا يعني زميلتي تروح الكلية ومتلاقيش محاضرات فافتكرت فقلت أكلمها قبل ما أنام..

نظر إليها بشك وهو يقول بنبرة آمرة:

- خلاص اتفضلي على الأوضة بتاعتك ونامي.

أنهى جملته، فتحركت من جانبه بدون أن تنظر له وبحركة سريعة ذهبت داخل غرفتها و أغلقت الباب..

نظر إليها حتى اطمئن إنها دخلت غرفتها و أغلقت الإضاءة، فتحرك نحو مكتبه ودفع الباب نظر في كل ركن في الغرفة فوجد أن كل شيء مرتب كما هو، أغلق الباب خلفه بالمفتاح وتقدم حتى جلس خلف مكتبه مرر أصابعه على المكتب وأخرج من جيب الروب الصوف مفتاحًا صغيرًا وضعه في إحدى الأدراج ليخرج هاتفه المحمول ولكن رأى شيئًا آخر جعله يبتسم قام بإخراج سلاح ناري صغير فضي اللون ألماني الصنع ليس بحديث صاحب 6طلقات، مرّر أصابعه فوقه وهو يكشف عن الخزنة ليجد خمس طلقات فقط نظر إلى الفراغ شارد الذهن وهو يتذكر كيف فقد تلك الرصاصة..

***

(2)

طريق الزراعي 11 أكتوبر عام 1975

مع منتصف النهار ترجرجت سيارة مرسديدس موديل السنة حديثة الطراز على الطريق الزراعي كانت الأعمدة التي تزين الطريق بعضها يصدر نورًا كئيبًا أصفر باهتًا و البعض الآخر منطفئ، مرّت السيارة بسرعة متوسطة، يجلس خلف عجلة القيادة شاب ثلاثيني قمحي البشرة شعره أسود فاحم ناعم مصفوف و بجواره تجلس امرأة يقترب عمرها من الخمسين ترتدي تاييرًا يناسب عمرها، تتطلع من الزجاج إلى الطريق و تشتم رائحة الهواء التي فقدته منذ ثلاثين عامًا.. و خلفهم تجلس امرأة في منتصف عقدها الرابع تنظر هي الأخرى من النافذة شاردة الذهن، نظر ذلك الشاب الذي يقود السيارة في المرآة لينظر لتلك المرأة التي تجلس خلفه وهو يقول مبتسمًا مداعبًا إياها:

- إيه يا تونا سرحانة في إيه؟ شكلك كده إفتكرتي الحب القديم..

نظرت إلى عينيه في المرآة وهي تقول بابتسامة جميلة ظهرت على قسمات وجهها:

- لأ إفتكرت إزاي هربنا من هنا و أنت في حضني يا راشد..

ابتسمت فاطمة وهي تجلس بجانب (راشد) و نظرت للخارج قائلة:

- مين يصدق إن بعد تلاتين سنة نرجع تاني للعزبة، قالت جملتها و نظرت في وجه (راشد) وهي تربت على كتفه قائلة:

- راجعين ناخد حقك و نرجّع أرضك و عزبتك و ورثك إنت وابنك يا خسارة،

يا ريت لبنى مراتك كانت جت معانا النهارده

ابتسم راشد وهو ينحدر بسيارته في منحدر أمامي وهو يقول:

- إنتي عارفة كلها كام يوم وتولد ماحبيتش أتعبها معانا في المشوار ده و خصوصًا إننا مش هنطوّل كلها يومين وهنرجع.

أخذت فاطمة نفسًا ملأت صدرها بالهواء وهي تبستم و تتجمع في عيونها الدموع وهي تقول:

- خرجت بيكوا هربانين من هنا و دلوقتي راجعين لنفس المكان ربنا يستر..

في هذا الوقت دخلت السيارة إلى شارع ضيق أدّى إلى مكان زراعي و لافته خشبية أمامهم منقوش عليها "عزبة فرعون". فرمل (راشد) السيارة و وقفوا أمام المنزل الضخم الذي مرت السنوات عليه و ما زال محتفظًا بهيبته، خرجت (فاتن) من السيارة بأقدام مرتعشة و عيون تجمّعت بداخلها الدموع و هي تنظر إلى المنزل الذي ولدت فيه و تربّت فيه و كذلك تذكرت كيف خرجت حية يوم المذبحة من داخل العزبة.. خرجت فاطمة هي الأخرى من السيارة و هي تتابع

رد فعل (فاتن) التي كانت تتوقعة، و رغم شعورها بعدم الاطمئنان إلا إنها ابتسمت و أخذت بيد (راشد) الذي أخرج من حقيبة السيارة حقيبة جلدية كبيرة بداخلها بعض الملابس، اقتربت (فاطمة) من (فاتن) و ربتت على كتفها بامتنان، فابتسمت الأخيرة و هي تخطو أولى خطواتها داخل العزبة متجهة إلى المنزل، وقفت ثواني ثم قاموا بالدخول، كان الباب غير مُغلق و هذا بثّ الريبة في قلب (فاطمة)، دخلوا المنزل... ابتسمت فاتن و تذكرت كل شيء مضى منذ ثلاثين عامًا، أما عن راشد فظلّ يبحث حول نفسه مبتسمًا -ببلاهة - سعيدًا أنه يرى و لأول مرّة المنزل و العزبة التي ورثها و التي سمع الكثير من القصص حولها، نظر إلى أحد الجدران بانبهارٍ شديدٍ وهو ينظر إلى صورة معلقة احتلتها خيوط العنكبوت لجده "رفعت السويسي" نظر في وجه عمته فاتن وهو يقول:

- تونا إنتي عيشتي هِنا في طفولتك..

ابتسمت و هزّت رأسها إيجابًا..

وضع الحقيبة التي في يده على الأرض وهو يلمس بيده التراب الذي تراكم فوق الأثاث الخشبي المتهالك، أمّا عن فاطمة فظلّت تنظر لهما بامتنان،خطت داخل المنزل وهي تقول:

- عاوزين نخلّص تنظيف البيت بسرعة و ياريت لو نقدر نشوف إزاي هنقدر نبيع البيت و العزبة في أقرب وقت

علشان مانطولش هِنا.

نظر إليها راشد و اتفق معاها في الحديث، أما عن فاتن فلم تنتبه لكلامها على قدر ما شعرت به عند دخولها المنزل..

مرّت خمس ساعات تقريبًا، كانوا قد نجحوا في تنظيف ردهة المنزل جيدًا، تحرّكت فاتن نحو غرفة الجلوس و واربت الباب خلفها و هي تنظر إلى باب السرداب الخشبي الصغير و تبتسم وهي تتذكر كل شيء، خُيل لها الآن والدها الحاج رفعت السويسي و هو يجلس في مقدمة المجلس و ملتف حوله جميع رجال العائلة، شعرت بالتوتر وهي ترى صورة والدها تتلاشى من أمامها..

كان (راشد) في هذا الوقت يقف فوق سلم خشبي يقوم بتشغيل مصباح الإنارة في الردهة الواسعة من المنزل بعد حملة التنظيف التي قاموا بها منذ خمس ساعات، أما عن فاطمة فتركتهما وصعدت إلى الطابق الثاني، ابتسم (راشد) و هو ينظر إلى المصباح بعد ما اشتعلت الإضاءة بداخله.. انتهى أخيرًا من مهمته فنزل من على السلم وجلس منهكًا على إحدى الكراسي الخشبية التي تتوسطت الردهة، متسخ الملابس و الأيدي، و بعد لحظات صغيرة سمع صوت فرملة سيارة بالخارج نهض وهو مندهش واقترب من الباب فوجد سيارة شرطة تقف أمام المنزل و يدلف منها شخص أربعيني طويل القامة يرتدي بذلة رجال الشرطة، يتقدم بخطوات واثقة و بهيبة شعره قد ظهر به بعض الشعيرات البيضاء التي زادت أكثر من هيبته، هرول خلفه شخص ضعيف البنيان

أحدب أسمر الوجه و شارب رفيع فوق شفتيه، اقترب ذلك الشرطي حتى وقف أمام (راشد) الذي نظر إليه نظرة الحيرة و عدم الفهم قال ذلك الضابط:

- حمدالله على السلامة، بلّغوني إن في ناس جت العزبة فحبيت آجي و أشوف بنفسي مين اللي وصل.

- أنت مين؟ قالها (راشد) مستفهمًا عاقدًا حاجبيه.

ابتسم الشرطي وهو ينظر له ويقول:

- (محمد متولي الراوي) ضابط شرطة في الوحدة السرية اللي هِنا و واحد من العيلة يا راشد إيه هتسبني واقف على الباب كتير؟

علامات استفهام تدور أمام عين (راشد) بدون أن يفهم شيئًا.. نظر الشرطي خلفه إلى العسكري نظرة يعلمها جيدًا ذلك العسكري الضعيف وقال:

- خليك واقف هنا يا (عتمان) لحد ما أخلص.

هزّ الأخير رأسه متوترًا متفهمًا ما قاله الظابط (محمد الراوي).. أزاح محمد الراوي بيده راشد و تخطّى داخل المنزل مبتسمًا وهو يضع يده في خصره و ينظر بعينيه على كل ركن من أركان المنزل، نظر إليه (راشد) و لم يفهم شيئًا، فقال بنبرة حادة:

- ممكن أعرف أنت مين.. و تفهّمني يعني إيه واحد من العيلة؟

- أخبار عمتك فاتن إيه؟

تجهّم وجه راشد ثم رماه بنظرة صارمة وهو يقول:

- مابحبش الغموض..ياريت تدخل في الموضوع على طول.

تحرّك "محمد الراوي" و جلس فوق مقعد خشبي و وضع قدمه اليسرى فوق اليمنى و أشعل سيجارة و نفخ دخان سيجارته في الهواء وهو يقول:

- أنا محمد متولي الراوي خال والدي يبقى الحاج رفعت السويسي جد حضرتك

ابتسم راشد و اقترب منه وهو يقول:

- أهلًا أهلًا.. أنا سمعت فعلًا عنك من تونا.. قصدي من عمتي فاتن، بس آسف ماكنتش متذكر الاسم، قالت لي كل ذكرياتكم مع بعض و أنتوا صغيرين بس للأسف مقالتليش إنك بقيت ضابط شرطة أنت مش متخيل أنا مبسوط إزاي إنّي بتعرّف على عيلتي من جديد.

ابتسم في وجهه محمد و حكّ أنفه بسبابته وهو يقول:

- وهي فين عيلتك دي يا راشد.. قالها بطريقة تدل على الاهتمام و الجزع..

رفع إليه راشد بعينين متسائلتين وهو يقول:

- تقصد إيه؟

- أقصد إن مبقاش موجود حد من العيلة خلاص كله بح..

والبركة في الحاج (رفعت السويسي) قالها (محمد الراوي) وهو يُخرج من حزامه الجلد سلاحًا ناريًا ألماني الصنع و يضعه على المنضدة الصغيرة التي أمامه، نظر راشد نحو السلاح الناري وهو يقول:

- أنا إتحكى لي القصة كلها من عمتي (فاتن) وحكت لي عن المذبحة اللي حصلت هِنا من تلاتين سنة.

- مهما إتحكى لك مش هتكون زي اللي شاف الموت بعنيه يا راشد.. أنهى جملته ولم يمهل راشد في الرد فتابع قوله.. هو أنت جاي ليه يا راشد؟

و ابتسم نصف ابتسامة وهو يقول:

- جي ليه! أنا جاي مكاني..جاي عزبتي مش دي عزبتي برضو و لا إيه؟

- و لا إيه.. قالها (محمد الراوي) و ابتسم و هو يدفن سيجارته تحت حذائه الجلد ونفخ دخانه الأخير في وجه راشد و مدّ يده وأخذ سلاحه الألماني وهو يقول:

- جاي بعد تلاتين سنة علشان تاخد حقك في الأرض.. طيب و اللي مات علشان الأرض دي ياخد حقه من مين؟

- بس ده ورثي.

نهض محمد و أعطي ظهره إلى راشد وهو يقف نَظر إلى أحد الجدران و على الصورة التي بها رفعت السويسي ويقول:

- أبويا شوفته بعيني و هو بيموت علشان خاطر فرعون يعيش، أنا أتيتمت علشان أبوك يا راشد و عمك فرعون يعيشوا، وجاي في الآخر تقولي ده ورثي.. تعرف إيه أنت عن العزبة غير شوية حكايات عمتك فاتن حكتهم لك..

وقف راشد مستقيمًا و دلّك جبهته كمن يستخرج عفريتًا و هو يقول:

- الله يرحمه ده نصيبه يا محمد باشا.

نظر إليه محمد وقال بغضب و بصوت عالي.

- وأنا نصيبي إيييه يا راشد، عارف أنا مستنيك تيجي هنا بقالي كام سنة،عارف أنا ليه طلبت إن أخدم في الغربية و أكون قريب من العزبة عارف ليه؟ علشان اللحظة دي يا راشد.. علشان أشوفك وأبص في عنيك.. السلاح اللي في أيدي ده أبويا إدهولي قبل يوم المذبحة، قالي دافع عن نفسك وعن أرضك مستخدمتهوش خالص سايبه ذكرى من أبويا، كنت خايف وقتها كنت عيل صغير مطلوب منى أحمي العزبة مع رجالة عيلة السويسي و أنت جاي بعد تلاتين سنة تقولي حقي !!

- أنا مش فاهم أنت عاوز توصل لأيه بالضبط.. أنا ذنبي إيه في كل الكلام ده؟

- ذنبك إنك شايل دم عيلة السويسي اللي قتلوا أبويا.. أيوه هما اللي قتلوا أبويا مش الإنجليز.

نظر إليه راشد بعدم فهم و أصبح يشعر بالتوتر لم يجد عمته فاتن و لا فاطمة بجواره و كأنهم اختفوا تمامًا منذ دخول ذلك الشرطي العجيب إلى هُنا

ابتسم محمد وهو يقول:

- أنت عارف أنا شامم ريحة إيه دلوقتي يا راشد؟

نظر إليه راشد بغضب وهزّ رأسه بعدم فهم، فضحك محمد ورفع سلاحه في وجه راشد السويسي و تابع قوله:

- أنا شامم ريحة الموت قريبة مننا..

في هذا الوقت كانت تتابع (فاتن) هذا الحديث من غرفة الجلوس، وكانت تشعر بالخوف تنظر بعينيها من الفتحة الصغيرة من الباب. كانت تتساءل كيف تغيّر محمد الراوي بهذا الشكل الموحش حتى سمعت صوت فاطمة يقطع حديثهما وتقول:

- و يا ترى ريحة الموت دي هتكون جاية تقبض على روح مين؟

نظر (محمد الراوي) اتجاة الصوت فوجد (فاطمة) تنزل من فوق الدرج بثبات وثقة و بزيّها الأسود المعتاد، تذكّرها في الحال و ابتسم ابتسامة ساخرة وهو يقول:

- مش تقولّي إن معاك ضيوف يا (راشد) كنت عملت حسابي.. ثم نظر إلى عينيها وتابع..

أنا فاكرك كويس فاكر اليوم اللي رجلك عتبت فيه العزبة

وشوفتك كمان و إنتي بتهربي ومعاكي (فاتن) من العزبة فاكر كل حاجة كويس أوي..

- عاوز إيه يا محمد؟

- مش عاوز أكتر من حقي.

- إيه هو حقك؟!

- عزبتي.. دي أرضي مش أرض حد تاني.

نظر راشد إلى فاطمة وهي تقترب من محمد الراوي وتقول:

- طيب ماهو إحنا سايبنها من تلاتين سنة مأخدتهاش ليه؟

نظر إليها محمد وظلّ يفكر بحقًا عن إجابة، فقاطعت تفكيره وهي تقول:

- معرفتش تاخدها علشان مش أرضك يا محمد، نزّل سلاحك ده و خلينا نتكلم بهدوء.

- مفيش كلام بينا أنا استنيت كل السنين دي علشان أبص في عنيكم و أنا بقتلكم واحد واحد، زي أبويا ما إتقتل يوم المذبحة...فاكرة يوم المذبحة؟؟؟

قال راشد بقوة:

- إحنا مالناش ذنب في موت أبوك صدقني زي ما أبوك مات. العيلة كلها ماتت وأنا كمان اتحرمت من أبويا زيك بالضبط

ابتسم محمد ابتسامة سخرية وهو يتحكّم في سلاحه و

يقول:

- البركة في جدك رفعت السويسي.

نظرت فاطمة بجوارها فوجدت إناءً زجاجيًا، ترددت في البداية و لكنها مدت يدها و أخذت الإناء و بخفة لم تتناسب مع عمرها ألقت به و كسرت الإناء فوق رأس محمد الراوي، تفاجأ محمد الراوي من هذا الفعل و وضع يده في مؤخرة رأسه ، وجد دمًا و جرحًا قد أصابه فقام بصفعها بقوة، ارتطم جسدها بقوة على الأرض فاقدة للوعي صرخ (راشد) وهو يقول:

- فاااااطمة.. قالها وهو يهرول نحوها فنظر إليه (محمد الراوي) و أطلق عيارًا ناريًا من سلاحه استقر في صدره فسقط في الحال..

لم يستوعب محمد الراوي ما حدث ظل ثابتًا شاخصًا بصره على الجثتين.. دخل عليه (عتمان) عند سماعه للصوت، نظر فوجد بركة من الدماء غارقًا بداخلها راشد وتلك المرأة، و في المنتصف يقف (محمد الراوي) صرخ في وجهه قائلًا:

- خليك واقف بره راقب المكان،، اتحرك بسرعة

نفذ (عتمان) أمر محمد الراوي وعاد من جديد ليقف في الخارج..

شهقت (فاتن) عندما رأت هذا المشهد لم تستطع الحراك، جحظت عيناها بخوف و تذكّرت كل شيء حدث في الماضي

عادت بجسدها للوراء غير مستوعبة ما يدور حولها، و كأن وجودهم في هذا المكان لعنة عليهم، بالفعل اصطدمت بجسدها بطاولة نحاسية فسقطت الطاولة على الأرض ليصدر منها صوتًا رنانًا، انتبه إليه (محمد الراوي) فهرول مسرعًا نحو غرفة الجلوس فوجدها مُغلقة من الداخل قام بدفعها بكتفه أكثر من مرة ولكن باءت محاولاته بالفشل، تقف (فاتن) في الداخل تضع يدها فوق فمها لتكتم صرخاتها، ثم نظرت نحو باب السرداب و عزمت على الهروب قامت بفتحه و بدموع منهمرة تسقط من عينيها دخلت السرداب من جديد في هذا الوقت نجح "محمد الراوي" بفتح الباب لم يجد بداخل الغرفة أحدًا، نظر بعينيه نحو أركان الغرفة فوجد بابًا صغيرًا في زاوية مفتوح على مصراعيه. تقدّم ونظر فكان الظلام هو المسيطر على المشهد، فعاد من جديد نحو الجثث في الخارج وجثا على ركبتيه و وضع يده على عنق (فاطمة) فلم يجد نبضًا على الإطلاق فصرخ بصوت عالي:

- عتماااااان

دخل عليه عتمان بجسد مرتعش و أعصاب قد أرهقها هذا الموقف فقال بنبرة آمرة:

- اتحرك و ساعدني نتخلص من المصيبتين دول

نظر إليه (عتمان) وظل واقفًا لم يستطع الحراك، فصرخ (محمد الراوي) قائلًا:

- أنت يا زفت يا عتمان هو أنا بكلم نفسي

هرول عتمان نحوه ليساعده، في هذا الوقت رأى محمد الراوي حركة غير طبيعية في الخارج نظر من النافذة المطلة على العزبة من الخارج فوجد فاتن تهرول مسرعة هاربة تسقط تارة وتنهض تارة أخرى، ظلّت تهرول بعد خروجها من باب المسجد حتى رأت شخصين ظهرا من العدم أمامها، شخص يرتدي جلبابًا فضفاضًا والآخر شخص يرتدي قميصًا و بنطالًا كلاسيكيًا و يضع نضارة طبية، تحرّك الأخير في اتجاهها حتى ساعدها على النهوض وصعودها إلى سيارتها المرسيدس موديل 1975 ثم تحرّك بها مسرعًا خارج العزبة، تاركة خلفها جثة راشد السويسي و صديقتها فاطمة..

***

(3)

زين العابدين.. القاهرة عام 2000

انتهى الآن الإمام من صلاة الفجر خرج جميع المُصلين من المسجد وهُم يشعرون جميعًا بسلام نفسي بداخلهم و السكينة تدبُّ في قلوبهم تضرب وجوههم نسمات الهواء الباردة في انتعاش جميل.. في حارة جانبية من حواري القاهرة بعد الصلاة امتدّ ظلّ لرجل في بداية عقده الخامس على الأرض يرتدي عباءة تناسب عمره، يسير بهيبة و وقار وهو يستمع لصوت ضربات قدمه على الأرض.. يحمل في طياته لفافة اجتمع حوله جميع القطط الضالة في الشوارع و كأنهم رأوا بعد عناء من يرعاهم أخيرًا، ابتسم وهو يفتح لهم اللفافة و هم ينظرون له و لعابهم يسيل منتظرين أن يلقي لهم طعامهم، اقترب منهم أكثر و وضع اللفافة لهم و تركهم يتنافسون على الطعام.. أخرج مفتاحًا من جيب جلبابه و وضعه في باب خشبي عتيق قد مرّ عليه الكثير من الزمن و قام بفتح الباب ليخرج اللافتة التي تعلو ذلك الدكّان، مكتوب عليها بخط لا بأس به

" عطارة الحاج رجب العطار "

مرت لحظات عليه وهو داخل الدكان، يقوم بتنظيم البضاعة التي تحويه بشكلٍ منظمٍ و متساوٍ.. بعد انتهائة من ترتيب البضاعة قام برش المياه أمام الدكان ثم وضع مقعدًا خشبيًا أمام الدكان وجلس بعد ما مدّ يده ليشغل

راديو نحاسي قديم ليسمع صوت محمد قنديل يدوي المكان بأغنيته

" يا حلو صبّح يا حلو طل.. يا حلو صبّح نهارنا فل "

لم ينتظر كثيرًا حتى أتى له شخص في بداية عقده الثاني مبتسمًا اقترب منه و أردف قائلًا:

- صباح الخير يا عم (رجب)

ابتسم الأخير له وهو يقول:

- صباح الخير يا بني

- أبويا بعتني ليك بيقولك الوصفة حضرتهاله؟

- حضرتها من إمبارح و مستنيك تيجي تاخدها ثواني يا بني هقوم أجبهالك

نهض (رجب) وعاد من جديد داخل الدكان ليلتقط من الرف الزجاجي كيسًا بلاستيكيًا ملفوفًا بإحكام، تقدّم و مدّ يده نحو الشاب الواقف أمامه قائلًا:

- خد يا بني الوصفة أهي أبقى سلم لي على أبوك

- عينيا يا راجل يا بركة، امسك فلوس الوصفة، قالها الشاب وهو يمد يده بالمال لـ (رجب)، مد الأخير يده و أخذها من الشاب و قبلها، فتركه الشاب و ذهب وقبل أن يضعها (رجب) في جيب عباءته وجد المال يتخلله ورقة بيضاء صغيرة أخرجها وفردها أمام عينيه ،اتسعت حدقة عينيه عندما وجد

مكتوب بالدم " استعد للنهاية "

***

انقشعت سحب الظلام عن زرقة الفجر الناعسة و تسلّلت أشعة الشمس ملتفة بموجة هواء باردة في هذا الوقت استيقظ (سليم) من غفوته لا يستطيع أن ينام جيدًا، عقله كان مشغولًا طوال الليل، و ما رآه داخل المنزل و غموض عم جمال البهنساوي الذي ليس له تفسير حتى الآن، فتح عينيه عندما سمع صوت ضحكات أحمد صديقه في الخارج، رفع جسده وهو ينظر مندهشًا نحو باب الغرفة و الصوت الصادر من الخارج، وضع قدميه داخل حذائه الجلدي وهندم ملابسه و خرج صوب عينيه فوجد صديقه أحمد يداعب الفتاتين، وهما تضحكان بشدة بالغة، ابتسم (سليم) و أخرج كاميرته مسرعًا و التقط لهما صورة و هما على نفس الوضع، اقترب منهما فنظرت إليه الطفلة الصغرى وتوقّفت عن الضحك، اقترب منها سليم و جثا على ركبيته ليكون في مستوى عينيها وأمسك بيديها الناعمة الصغيرة وهو يقول:

- إيه اللي مخوفك يا حبيبتي؟

تراجعت بجسدها للوراء وهي تحتمي بجسد أختها الكبرى بدون أن تنطق.. نظر إليها سليم ثم استقام في وقفته وشعر بيأس أن تتحدث تلك الفتاة إليه ، نظر فوجد (رقية) تخرج من غرفتها هي الأخرى، تتجه نحوهم تبادلوا النظرات كانا يفهمانها جيدًا اتجهت نحو (سليم) و وقفت بجواره وهي

تهمس له قائلة:

- هنبدأ منين النهارده هندخل البيت تاني؟

وقبل أن يتفوّه و يقوم بالرد عليها، وجدوا عم جمال البهنساوي يخرج من غرفته مبتسمًا وهو يقول:

- صباح الخير يا أساتذة أنا جاهز يا ترى عاوزين تبدؤوا منين بالضبط..

***

قبل ساعة تقريبًا تلقّى (عمر) اتصالًا من شقيقته (ديجا) وأخبرته إنها تريد مقابلته للضرورة، و قد اتفقا على أن يأتي إليها (عمر) داخل كلية الإعلام قبل المحاضرات ارتدى (عمر) سترته الجلدية و أخذ سيارة الشرطة بمفرده وذهب إلى جامعة القاهرة ساعتين فقط، كانتا كافيتين للوصول إلى هُناك ظلّ منتظرًا داخل كافيتريا الكلية قد تناول الكثير من القهوة و أنهى على مصنعين من السجائر (LM) مدفونين أمامه في المطفأة، دخان أزرق يملأ المكان حتى أتت إليه شقيقته (ديجا) اقتربت منه بجسدها البض المشدود الناعم و شعرها الأسود الفاحم المنسدل فوق كتفيها ترتدي تيشيرت صوف ثقيل.. وبنطال جينز يجعل ساقها متناسقة ملفوفة و كعبها العالي طاغي النغمة يعزف أجمل المعزوفات، اقتربت منه مبتسمة قائلة:

- أنا آسفة يا (عمر) اتأخرت عليك.

نظر إليها بعين مرهقة ثم جلست على المقعد المقابل له فـاعتدل في جلسته وهو يقول:

- و لا يهمك يا ديجا المهم لقيتي اللي قولتلك عليه؟

ضمّت شفتيها و رفعت حاجبيها وهي تهز رأسها نافية وتقول:

- للأسف لأ.

عقد حاجبيه ممتعضًا وهو يقول:

- طيب ليه جبتيني على ملى وشي كده أنا منمتش بقالي يومين.

- علشان لقيت حاجة مفهمتهاش وقُلت إنت اللي هتفهمني يا عمر.

أراح بجسده على المقعد من جديد و يداه معقودتان أمام صدره وهو يقول:

- يا ترى إيه هي الحاجة دي بقى اللي أنا المفروض أفهمهالك..

تحوّلت قسمات وجهها للجدية هذه المرة وهي تسطرد:

- طول عمرنا عارفين إن بابا عاش حياته و طفولته و اتولد هِنا في القاهرة مش كده؟

مسح على وجهه وهو يقول بنفاذ صبر:

- أدخلي في الموضوع على طول

بلعت ريقها وهي تتابع قولها:

- امبارح وأنا بدور في مكتب بابا على المكان ده اللي اسمه عزبة فرعون وقعت قدامي صورة كان مخبيها في كتاب قديم في مكتبته، كان صغير أوي و الغريب إنه كان لابس لبس فلاحي و معاه واحدة جنبه متصورة لابسة برضو لبس فلاحي، و طبعًا إحنا عارفين إن بابا و عيلته كلها من القاهرة، معنداش جذور فلاحين أو صعايدة اللي خلاني أشك أكتر إن البنت اللي متصورة معاه دي اسمها فاتن، علشان كاتب اسمها على الصورة و أنت عارف إنه سماني (فاتن) علشان بيحب الاسم ده و كان بيقول إنه سماني كده على اسم جدتي وإحنا طبعًا عارفين إن إسم تيتا (بديعة)، فحسيت إن في ماضي بابا مخبيه علينا وإحنا مش عارفينه و خصوصًا إنت لما كلمتني و قولتلي على مكان عزبة فرعون اللي في الغربية، فقُلت ممكن الصورة دي تكون ليها علاقة باللي إنت بدور عليه.. و بصراحة فكرت أكلم ماما و أسألها بس خوفت منك.

جحظت عينا (عمر) وقال بحدة في وجه شقيقته:

- إحنا ملناش أم...أمنا ماتت من زمان وعالله أسمعك بتقولي إنك عاوزه تكلميها دي تاني فاهمة.

بلعت ريقها بصعوبة وهي تنظر حولها فرأت الجميع ينظرون إليهما متعجبين فهمست بهدوء قائلة:

- بالرّاحة يا (عمر). الناس بتبص علينا خلاص حاضر مش هجيب السيرة دي تاني المهم تهدى.

استمع عمر لها و قام بتهدئة أعصابه وهو يقول:

- أنا آسف إنّي انفعلت، بس أنا بتعصب لما بسمع سيرتها.. المهم إيه تاني لاحظتيه

- اللي لاحظته زي ما قولتلك يا عمر، حاسة إن بابا مخبي ماضي و مش عاوز يفتحه خالص.

استمع عمر لها جيدًا و شعر أن كلامها فيه بعض الغموض ولكن ليس بتلك الأهمية التي جعلته يأتي من الغربية إلى القاهرة، فمسح على وجهه مرة أخرى وهو يقول لها:

- طيب يا ستي فين الصورة دي؟

فتحت حقيبتها الجلدية التي معها وظلّت تبحث بداخلها حتى أخرجت تلك الصورة مدّت يديها لأخيها فأخذها وهو ينظر إلى أبيه وهو يرتدي جلبابًا فلاحيًا صغيرًا، يبتسم و بجواره تلك الفتاة الرقيقة تبتسم هي الأخرى ابتسم ابتسامة تلقائية قبل أن تتحول قسمات وجهه للجدية فجأة، وهو يركز في تفاصيل ملامح تلك الفتاة تلك الفتاة التي رأى صورتها بنفس هيئتها داخل المنزل المهجور، سمع الآن صوت العجوز في أذنه وهي تقول:

- صورتي عجبتك كنت لسه عيلة صغيرة مش شايلة هم للدنيا.

تلك الفتاة هي نفس تلك العجوز التي رآها من قبل داخل المنزل في عزبة فرعون نظر خلف الورقة فوجد مكتوب

بخط لا بأس به " فاتن السويسي"

- عمر أنت كويس قالتها ديجا بقلق؟

نظر إليها (عمر) و بلع ريقه و نهض وهو يقول:

- أنا لازم أرجع تاني.

نهضت هي الأخرى وقالت مستفهمة:

- ترجع فين يا عمر؟

- لازم أرجع عزبة فرعون

***

مع نهاية النهار، قد اقتربت الشمس على المغيب كان (سليم) و (رقية) و صديقهم (أحمد) قد انتهوا من تصوير و كتابة كل شيء عن عزبة فرعون و تصوير مسرح الجريمة بعناية،و عندما تملّك منهم التعب في هذا الوقت ترك (سليم) رقية تقوم بكتابة ما ترى في نوتة صغيرة في يدها، و ذهب حتى جلس فوق قفص من البوص و نظر نحو الجامع المهجور و وضع كاميرته فوق عينه والتقط صورة لتلك الجملة المكتوبة " أين أنتم عندما تبعثرت أشلاؤنا" اقتربت منه (رقية) و تابعهما صديقهم (أحمد)، وضعت رقية يدها فوق خصرها وهي تقول:

- إحنا كده خلّصنا كل حاجة هِنا في العزبة، بكره إن شاء الله ندخل الوحدة السريّة و نتكلّم مع الضابط اللى اكتشف الجثة.

هزّ إليها (سليم) رأسه متفقًا معها ثم قال وهو ينظر حوله:

- هو عم جمال اختفى و راح فين؟

نظرت (رقية) إلى (أحمد) و رفعت كتفيها وهي تقول:

- منعرفش.

نظر (سليم) نحو المسجد المهجور وهو يقول:

- ما تيجوا نصوّر بالمرة المسجد ده من جوه

- مش كفايا بقى يا (عمر)؟ قالها أحمد وهو يشعر بالتعب الشديد.

- يا أخي بلاش دلع مش هناخد وقت تعالوا بس ورايا.

تحرّك (سليم) للأمام و من خلفه تحركّت (رقية) و (أحمد)، دخلوا المسجد وجدوا أن العنكبوت والكلاب الضالة اتخذت من هذا المسجد منزلًا و مأوى لهم ظلّ (عمر) يصوّر كل ركن في المسجد،حتى وجد على الأرض سلاحًا ناريًا قديم الصنع متهالكًا، أخذه و ظلّ يصوّره بعناية ثم مدّ يده به إلى أحمد، فأخذه منه وهو ينظر إليه في إعجابٍ شديدٍ، ثم وضعه في الحقيبة التي يحملها، ظلّوا هكذا حتى لاحظت (رقية) بابًا خشبيًا بجوار المحراب ، اقتربت منه فوجدته مواربًا ففتحته و نظرت، فوجدت الظلام يحيط به.. نظرت إليهما وقالت:

- سليم..أحمد تعالوا بصوا كده.

تحرّك (سليم) و من خلفه (أحمد) و نظروا فوجدوا ظلامًا

دامسًا، أخرج (سليم) من جيب بنطاله الخلفي كشافًا صغيرًا وأشعل الإضاءة، فوجدوا سلمًا حجريًا نظر (سليم) في وجوههم قائلًا:

- ده سرداب!!

قال جملته و أعطى الكاميرا إلى صديقة أحمد و عاد ينظر من جديد نحو السلم الحجري و تقدّم للأمام ظلّ ينزل الدرج بصعوبة و من خلفه يسير ببطء أحمد ورقية التي احتمت بسليم خائفة، ظلّ ينظر ببطء حتى انتهوا من درجات السلم و وجدوا أنفسهم فوق أرض صلبة، الظلام يحيط بهم غير إضاءة المصباح الذي بيد سليم الذي يصدر ضوءًا ضعيفًا، و لكن لم ينتظروا كثيرًا حتى سمعوا صوت تكة قبس النور و من بعدها اشتعلت إضاءة نيون قوية في كل مكان، شعر أحمد بالقلق و ضربات قلبه وصلت إلى أقصاها، أغمضوا أعينهم فور اشتعال الضوء، ثم قاموا بفتحها ببطء، صرخت (رقية) فور أن فتحت عينيها و احتمت بسليم الذي كان يقف في المقدمة.. جحظت عينا سليم مما رأى هو وأحمد صديقه الذي تلفت أعصابه في تلك اللحظة، وجدوا (عم جمال البهنساوي) يقف أمامهم مبتسمًا ابتسامة لزجة في وجههم وبجواره تجلس امرأة عجوز على مقعد خشبي كبير و بيدها عكاز خشبي ابتسمت إليهم هي الأخرى و نهضت من مجلسها و قالت بصوتها العجوز:

- أهلًا بيكم يا شباب مستنياكم من بدري.

* * *

الـــبـــــدايـــــة

(1)

عزبة فرعون عام 1945

قبل القبض على فرعون بساعات و وقوعه في شباك الإنجليز الذين كانوا في هذا الوقت يحيطون بالعزبة بأكملها من كل مكان متربصين له منتظرين ظهوره بأي شكل، كان يجلس مع بعض الشباب الذين هم على شاكلته في الغرفة الخلفية من "قهوة الحبايب" و السرية أيضًا و الذين يجتمعون بداخلها دومًا كل ليلة هو و أصدقاؤه، جاء إليه منذ قليل خبر بوضع زوجة أخيه (عبد المنعم) ولدًا، شعر شعورًا غريبًا اجتاحه لأول مرة مزيج من الفرحة و الخوف و الطمأنينة.. فور سماعه لهذا الخبر استعدّ جيدًا و وضع الشال الأبيض على وجهه ليخفي معالمه ، ثم نهض من فوق المقعد الخشبي و بدون تفكير نظر في وجوه الشباب الجالسين أمامه قائلًا بنبرة جادة:

- أنا لازم أروح العزبة دلوقتي لازم أبارك لأبويا، كان مستني اللحظة دي من زمان الولد اللي هايجي و يشيل اسم عيلة السويسي.

تبادلت نظرات الشباب إلى بعضهم البعض و نظروا إليه مستائين من هذا القرار، وقبل أن يتفوّه أحد منهم قال (شعبان) صديقه المُقرب إليه معترضًا على ما قاله:

- أنت أكيد بتهزّر يا (فرعون)، أقعد كده و إهدى خلينا نتكلم بهدوء.

- مات الكلام خلاص يا شعبان أفندي أنا قررت إنّي هدخل العزبة يعني هدخلها و الليلة دي

نظر شعبان في وجوه بقيّة الشباب الذين كانوا منتبهين جيدًا للحديث، و نظر من جديد إلى فرعون ونهض من مجلسه هو الآخر، و أخذ بيد فرعون و ذهب به للخارج بعيدًا عن البقيّة ثم نظر في وجهه وقال بعنف:

- أنت مش بتغامر بحياتك أنت و بس يا فرعون، أنت بتغامر بكل المجموعة أنت عارف أنت عاوز تعمل إيه؟ نسيت إنك وقّعت منهم كام واحد ليلة إمبارح؟؟

لم يهتم (فرعون) بما يقوله شعبان ونظر إلى سلاحة ليتأكد إنه مليء بالرصاصات وأصبح يحضّره جيدًا ثم وضعه أخيّرا في جانبه قائلًا:

- ماتخفش عليّا يا (شعبان) العزبة أنا عارف مداخلها ومخارجها كويس مش عاوزك تقلق.

زفر شعبان في ضيق و أخرج علبة سجائر من جيب بنطاله القماش و أخرج واحدة و مدّ يده بها إلى فرعون ليكتسب بعض الوقت و يهدئه قائلًا:

- طيب امسك عَفّر..

نظر فرعون إلى يد شعبان و أخذ منه السيجارة و أشعلها

نفخ دخانها في الهواء وهو ينظر إلى شعبان و أردف قائلًا :

- هتسعدني؟

نظر إليه شعبان و دلّك جبهته وهو يقول:

- أنا عاوزك تهدى وتفكّر كويس الأول يا فرعون. أنت ناسي اللي أنت عملته ليلة إمبارح علشان تنقذ واحدة كانوا ناوين يغتصبوها، فكرك هيسيبوا اللي حصل ده بالساهل دول زمانهم عينهم في وسط راسهم مستنينك تغلط دول ولاد هرمة!!

- مانسيتش حاجة يا شعبان، بس كل اللي عاوزه دلوقتي إنّي أشارك عيلتي فرحتهم و و نفسي أشوف أبويا الحاج رفعت و أترمي في حضنه يا أخي وغير كده لازم أعرّف أبويا حقيقة (متولي الراوي) ابن عمتي، لازم أعرّفه إنه متحالف مع الإنجليز وإنه بيخونا، و ممكن في أي وقت يبيع العيلة كلها علشان مصلحته.. أنهى جملته ونظر في وجه (شعبان) ليرى كيف وقعت كلماته عليه، فزمّ الأخير شفتيه و وضع سيجارته في مثواها الأخير أسفل حذائه ودهسها و زفر دخانها في السماء وهو يقول:

- ناوي على إيه؟

ابتسم فرعون و أردف:

- هندخل العزبة بعد العشا في الوقت ده الدنيا بتبقى زحمة في العزبة، هنقدر ندخلها و إحنا متخفّيين، محدش هيحس

بينا خالص.

هزّ شعبان رأسه موافقًا على كلامه قائلًا:

- توكلنا على الله..

***

تلك المغامرة قد تطيح بحياتهم جميعًا و تقرّب من نهايتهم، بعد الانتهاء من صلاة العشاء كانا على مشارف النهاية، يقفان خلف سورٍ طوبي ينظران إلى العزبة التي دبّت بداخلها الحياة من الأجواء ومن الأهالي، نظر فرعون إلى شعبان و استطرد:

- إحمي ضهري يا شعبان أفندي، و أنا هدخل من هِنا متقلقش عليّا نص ساعة بالكتير وهرجعلك.

هزّ الأخير رأسه و ربّت على كتفه في امتنان وهو يقول:

- ربنا معاك يا بطل.

تقدّم فرعون للأمام و تسلّل العزبة بحرص شديد و لكن أول ما لمست قدمه أرض العزبة من الداخل سمع صوت صافرة، شرعت و كأنها تنتظره و ظهرت مجموعة من السيارات الإنجليزية المصفّحة من العدم أمامه إنارتها مسلّطة عليه، حاول الإفلات منهم و لكنه فشل و وضع يده بجانبه بسرعة وهو يُخرج سلاحه وأطلق رصاصة على سيارة آتية أمامه ولكن دون جدوى، شعر بخيبة الأمل و نظر نحو المظلة التي يجلس أسفلها دائمًا أبوه و هرول نحوها ليحتمي أسفلها و لكن أمسكه أحد الجنود ولكمه بمقبض بندقيته

الإنجليزية ليقع على الأرض غير قادر على الحراك.. قامت العساكر الإنجليزية بإمساكه و سحبوه جرًا حتى أجلسوه أسفل المظلّة ليكبّلوه بالحديد، ثم أتت السيارات الإنجليزية المصفحة ووقفت في مواجهته ثم سحبوه حتى وضعوه داخل إحدى السيارات و كأن وجوده الآن أسفل المظلة هو تحقيق لرؤية رفعت السويسي

***

- السلام عليكم.. قالها رفعت عندما اقترب من الدكان نظرت (نعيمة) إلى (رفعت) وهي تقول:

- يرضيك يابا الحاج (رفعت) (متولي) مش عاوز يبيع لي سكر أنا حالي كده هيقف في القهوة بتاعتي.

- مش عاوز تبيع لها ليه يا متولي؟

- يا حاج السكر مش موجود دلوقتي وهي عايزة كمية كبيرة.

نظر إلى وجهها المستدير وهو يقول:

- إنتي عايزة كمية قد إيه يا نعمية؟

- على الأقل عشرة عشرين كيلو أمشّي بيهم حالي اليومين دول.

هزّ رأسه متفهمًا قولها وهو يقول:ز

- روحي على قهوتك يا نعيمة و بكره الصبح هبعتلك حد

بالكمية اللي إنتي عايزاها

ابتسمت في وجهه وهي تمد يدها و تسحب يده و تقبلها بأدب و تقول:

- ربنا يخليك لينا يا حاج.. قالتها و ذهبت بدلالٍ فنظر (متولي) إلى مؤخرتها التي أمامه وهو يجز على أسنانه في انهيار شديد فسحب (رفعت) مقعدًا و جلس وهو يقول:

- كفايا بحلقة يا (متولي) و تعالى قولي أخبار الشغل إيه؟

اعتدل متولي في وقفته وهرول نحو (رفعت) وجلس على كرسي بجواره وهو يقول بحزن:

- الحال واقف والله يا خال (رفعت).

تحكّم (رفعت) من عكازه و هو يقول:

- ماهو لو تبطل النجاسة اللي أنت فيها دي و البصبصة على النسوان كان الحال هيكون أفضل من كده بس نقول إيه عيل خـــ..

بلع الكلمة من على لسانه عندما نظر بداخل الدكّان وجد (محمد) يجلس بالداخل ابتسم له و أمره أن يأتي إليه أمسك بيده و ابتسم وهو يقول:

- إزيك يا محمد كبرت و بقيت راجل.

- الحمد لله يا جدي.

- عندك كام سنة دلوقتي؟

- 15 سنة يا جدي.

- بسم الله ما شاء الله بقيت راجل يُعتمد عليك بجد.. قولي بقى نفسك تطلع إيه؟

قاطع حديثهم (متولي) وهو يقول مبتسمًا:

- نفسه يطلع "بكباشي" زي خاله اللي عايش في مصر

نظر إليه رفعت و ابتسم وهو يقول:

- البكباشي (محمد متولي الراوي) ربنا يباركلك يا بني علشان أنت اللي هتحمينا وهتحمي العزبة من بعدنا يا محمد.

قاطع حديثه (متولي) و هو يميل بجسده نحوه قائلًا:

- سمعنا إن مرات (عبد المنعم) ابنك ولدت النهارده يا حاج ألف مبروك.

نظر إليه و هزّ رأسه في وضعية الرضا و القبول و هو يقول:

- الله يبارك فيك يا (متولي) يا بني.

- مالك يا خال؟.. وهو لسه مفيش أخبار عن صدام برضو لحد دلوقتي؟

هز (رفعت) رأسه بأسى و قبل أن يتفوّه وجد شابًا صغيرًا يهرول من بعيد وهو يلوح بيده و يصرخ بصوتٍ عالٍ متجهًا نحو رفعت قائلًا:

- يا حاج رفعت يا حاج رفعت

اندهش رفعت وهو يقول مستفهمًا:

- مالك ياض في إيه؟

قال من بين أنفاسه المتسارعة:

- فرعون يا حاج

نظر (رفعت) للشاب بخوف و أمسك برسغه و هو يقول بفزع:

- صدام ابني ماله؟؟

- الجيش الإنجليزي مسكه يا حاج.

وقعت كلمات الشاب على (رفعت) كالصاعقة، ترك يد الشاب و ظلّ يهرول في جميع أنحاء العزبة حتى التقت عيناه بعين ابنه صدام وهو جالس في سيارة الجيش الإنجليزي قبل أن ترحل يشير بيده نحو المظلّة و كأنه يريد أن يبلغ أباه رسالة.. ومن بعدها تحرّكت السيارة لتذهب نهائيًا خارج العزبة..

تقدم رفعت إلى المظلّة ولم يفهم لماذا أشار ابنه إليها، سمع صوتًا خلفه صوت متولي الراوي وهو يقول بعد ما أخذ أنفاسه:

- في إيه يا خال خلاص كده صدام اتقبض عليه؟

نظر إليه (رفعت) و جزّ على أسنانه غضبًا وهو يقول بغضب:

- يومهم جي.. يومهم جي قال جملته و مر من جانب

متولي الراوي تاركًا خلفه لغزًا لم يفهمه قط..

***

في اليوم التالي وقف (متولي الراوي) داخل الدكان يباشر أعماله كالمعتاد بمساعدة ابنه (محمد)، أتت إليهما (فاتن) تلك الفتاة الصغيرة ابنة رفعت السويسي جاءت تخطو خطوات على استحياء، نظرت إلى (محمد) و ابتسمت له، بادلها نفس النظرة و ابتسم ثم نظرت إلى (متولي) الذي كان يعطي لها ظهره و يرتّب أشياء بداخل الدكان و قالت بصوتها:

- عم متولي يا عم متولي.

نظر إليها (متولي) و اقترب منها و هو يمسح يده المتسخة في جلبابه و أردف قائلًا:

- إزيك يا فاتن يا بنتي في حاجة و لا إيه؟ خالي رفعت كويس؟

- أبويا الحاج رفعت عاوزك دلوقتي في بيتنا ضروري

هرش في مؤخرة رأسه وهو يقول لها مستفهمًا:

- متعرفيش عاوزني في إيه؟

هزّت رأسها نافية وهي تقول:

- هو طلب يقابل كل رجالة العيلة و كلهم هناك دلوقتي وهو عاوزك ضروري.

زم شفتيه حيرة و ظلّ يفكّر ثم نظر إلى ابنه محمد و قال:

- خليك هِنا يا محمد متتحركش، قال جملته ثم عاد بنظراته إلى فاتن و تابع قوله.. يلا بينا يا فاتن يا بنتي، قالها و تحركا للأمام وما زال محمد ينظر إلى فاتن مبتسمًا لها..

***

خرج جميع رجال العائلة من غرفة الجلوس بعد ما أمرهم كبيرهم رفعت السويسي بذلك عندما أتت إليهما تلك الفتاة التي قطعت حديثهم، و التي عرّفت نفسها أمام رفعت السويسي وأمامهم جميعًا، ذهب الجميع و عاد متولي من جديد مشتت الذهن إلى الدكان من جديد، ستبدأ المعركة غدًا و كان عليه أن يتخذ قرارًا ذهب نحو الدكان بأقدام مهترئة نظر إليه ابنه محمد وقال مندهشًا:

- مالك يابا؟

لم يتفوّه بكلمة... متولي تهالك على المقعد الخشبي الموجّه للدكان.. اقترب منه محمد وهو يعيد سؤاله:

- مالك يابا فيك إيه؟

نظر إليه متولي وهو يقول بصوت مكتوم:

- خليك واقف هنا يا محمد، راقب المكان و أنا داخل جوه الدكان هعمل حاجة صغيرة وهطلع بسرعة ماشي.

هز (محمد) رأسه بعدم فهم، لم يفهم جيدًا ما يعيره والده في النهاية دخل متولي داخل الدكان و أغلق على نفسه و تحرّك نحو رف خشبي و أخرج تليفون أرضي من داخل

صندوق سري و قام بالاتصال بالقنصلية البريطانية ليخبرهم بما ينوي عليه رفعت السويسي و مكيدته لهم، و لكن اتصالاته باءت بالفشل زمّ شفتيه غضبًا، و عاد بالتليفون إلى موضعه مجددًا، ثم أخرج كيسًا بلاستيكيًا ملفوفًا بإحكام و أخرج منه سلاحًا ناريًا ألماني الصنع قد أخذه من فرانك في يومًا ما و عاد للخارج إلى ابنه محمد الذي كان يقف في الخارج، لم يفهم ما يفعله أبوه في الداخل عاد (متولي) ثم جلس على المقعد الخشبي من جديد وهو ينظر إلى وجه ابنه الصغير محمد وهو يقول له بصوت مليء بالخوف و الثقة في نفس الوقت قائلًا:

- محمد أنت دلوقتي كبرت و بقيت راجل و لازم أعتمد عليك.

علامات الاستفهام ظهرت على قسمات وجه محمد وهو يقول:

- أنا مش فاهم حاجة يابا.

أخذ متولي نفسًا ملأ صدره بالهواء و هو يقول:

- بكره هتحصل حرب هِنا في العزبة و عاوزك تخلي بالك من نفسك، امسك المسدس ده خليه معاك ودافع عن الأرض يا محمد اللي هقولهولك دلوقتي لازم تنفِّذه بالحرف الواحد، بكره الصبح هتطلع فوق سطح جدّك (رفعت السويسي) و تخلّيك فوق متتحركش من هناك و لو حسّيت بأي خطر استخدم السلاح ده، مفهوم يا محمد.

نظر محمد إلى يد والده الممدودة بالسلاح و شعر بالخوف و مدّ يده و أخذ منه السلاح و كانت تلك المرة الأولى الذي يمسك بها (محمد متولي الراوي) سلاحًا ناريًا قال مستفهمًا و هو ينظر إلى وجه أبيه الخائف:

- أدافع عن الأرض من الإنجليز يعني يابا؟

شبح ابتسامة ظهر على قسمات وجه متولي و تغيّرت نبرة صوته و نظرة الشر ظهرت في مقلتي عينيه وهو يقول:

- دافع عن الأرض دي من عيلة السويسي يا ابني اقتل أي حد منهم يقرب منك.

***

بَدت و كأنها نهاية العالم لا يوجد شيء الآن سوى العذاب، فقط العذاب جرجر محمد الراوي قدميه و هو يرتدي جلبابه الواسع ويخبئ السلاح الذي أعطاه إليه والده في الجيب الداخلي للجلباب و يضع يده عليه خائفًا، خرج من منزله وهو ينظر إلى الهيكل الخشبي الضخم الذي يتوسّط العزبة تحرّك وهو ينظر إلى جميع الأهالي التي كانت تحيط العزبة، في هذا الوقت نظر إلى أبيه متولي الذي كان يقف مستقيمًا مع بقيّة رجال العائلة، فهز له أبوه رأسه على تنفيذ ما قاله له، من قبل بلع محمد ريقه بصعوبة ثم تحرّك حتى دخل منزل رفعت السويسي كان ينظر يمينًا و يسارًا على الحركة الغير طبيعية التي دبّت داخل المنزل، كان الكل مستعد للحدث. وقف في منتصف الردهة وهو يتأمّل حركة الأطفال وهم خائفون و

هرولة النساء الغير منتظمة تتقدم نحو الدرج الخشبي، و صعد درجتين للأعلى حتى سمع صوت فاتن من خلفه قائلة:

- محمد أنت رايح فين؟

نظر إليها عاقدًا حاجبيه و يده ما زالت داخل جلبابه على السلاح قال متلعثمًا:

- أنا..أنا..

نظرت إليه مندهشة وقبل أن ينبس بكلمة سمعت فاتن صوت زوجة أخيها تنادي عليها من خلفها ، نظرت إليها ثم هرولت نحوها فهرول (محمد) هو الآخر مسرعًا إلى سطح المنزل كما طلب منه أبوه قبل أن تعود إليه من جديد فاتن و تكتشف أمره.

وقف (محمد الراوي) فوق السطح و رفع رأسه و نظر للأسفل.. الجميع يقف متأهبًا للحدث الجلل الذي سيحدث بعد قليل، سمع صوت سيارات الإنجليز قد أتت. الآن الجميع ينظرون بخوف، خرج فرانك و من خلفه ظهر فرعون متسلسلًا بالحديد في يديه و قدميه ينظر بفخرٍ و يخطو بعزة حقيقية، كان الصمت هو الذي يخيّم على المشهد حتى تفاجأ بصوت جميع الأهالي يهتفون بصوتهم العالي إلى (فرعون) أما الأخير، ظلّ يخطو خطواته بثقة في النفس وكأنه لن يعدم الآن ، نظر على هذا المشهد و وصلت دقات قلبه إلى أقصاها فوجد جدّه (رفعت السويسي) يتقدّم و يقف أمام فرانك و يتحدث إليه، لم يسمع ما يقوله جدّه رفعت

و لكن كان الخوف باديًا على قسمات وجه فرانك ، ثم وجد جدّه ينظر نحو المئذنة ويشير برأسه.. في تلك اللحظة سمع صوت عيارٍ ناريٍ في السماء كان مصدره سلاح عمه (عبد المنعم السويسي) ومن هُنا بدأت المذبحة.

كانت تلك البداية، ظلّ محمد خائفًا أنزل رأسه و استند بظهره إلى الحائط و ضمّ ركبتيه إلى صدره خائفًا وصوت الرصاصات تدوي في الأسفل، بعد لحظات أخرج سلاحه من جيب جلبابه بيد مرتعشة، و رفع رأسه مجددًا لينظر بعيون خائفة فوجد رجال عائلته قد اقترب انتصارهم على هؤلاء الجنود.. لاحظ حركة فرانك و معه جنود يتلصصون حتى اختفوا من أمام عينه، و دخلوا إلى المسجد. ظلّ الوضع هكذا يبحث بعينيه عن أبيه فوجده يخرج من الدكان. علامات استفهامٍ تدور حول عينيه الآن و لكن كان السؤال الذي يسأله في نفسه، ماذا كان يفعل أبي داخل الدكان في هذا الوقت؟

***

أصبحت الرصاصات تتطاير من كل اتجاه، هرول (متولي الراوي) و هو يبتعد عن تلك الأجواء و عن تلك المذبحة، أصبحت جنود فرانك تسقط أمام عينيه واحدًا تلو الآخر فذهب مسرعًا نحو دكانه و قام بفتحه و دخل في الخفاء و أغلق الباب الخشبي من خلفه، أخرج التليفون من ذلك الصندوق و بيدٍ مرتعشة قام بالاتصال بالوحدة البريطانية المتواجدة في الغربية، لحظات من الانتظار و التوتر حتى أتى الرد على الجانب الآخر، صوت لعسكري إنجليزي فصرخ

فيه (متولي) متلهفًا و هو يقول:

- ألو أيووووه ألووو أنا متولي الراوي

-...

- مش ضروري تعرف أنا مين دلوقتي المهم.. لأ أستنى متقفلش الخط دلوقتي في مذبحة في عزبة (رفعت السويسي) و الجنود الإنجليز بتموت و لازم تلحقوهم

-...

- أيوه هي.. لا صدام السويسي ماتعدمش و كل العساكر ماتوا لازم تلحقوا و تنقذوا الموقف، أنهى جملته الأخيرة و أغلق الخط على وجه السرعة و فتح الباب الخشبي للدكان من جديد و خرج وهو يتظاهر مجددًا بأنه يقاتل مع بقيّة العائلة..

***

" ظلّ فرانك يدور حول نفسه وهو يصرخ في رجاله أن يصمدوا نحو تلك المكيدة التي حضّرها له (رفعت). أخذ جانبًا هو الآخر و هو يبحث بعينيه عن فرعون و أبيه رفعت السويسي، هرول بخفة للأمام و هو يطلق بسلاحه رصاصات على رجال عائلة السويسي ، اقتربت ذخيرته على النفاذ، تحرّك مسرعًا و خلفه اثنان من العساكر يتبعون خطواته خائفين، يحاولون أن يستجمعوا سيطرتهم من جديد، أخذوا ساترًا بعيدًا عن الرصاصات المتطايرة من الجانبين، نظر

(فرانك) إليهم وهو يتصبّب عرقًا و ينظر إلى رجاله الآخرين الذين يسقطون أمامه واحدًا تلو الآخر، توجّهت عيناه إلى الجهة المقابلة له، وجد الباب الخشبي للمسجد مفتوحًا على مصراعيه، نظر إلى عساكرة الواقفين بجواره و هزّ رأسه إليهم وهرول نحو باب المسجد و من خلفه العساكر حتى أصبح بداخله.. كان المسجد خاويًا لا يوجد به أحد.. وقف في منتصف المسجد وظل يدور حول نفسه و بدأت أعصابه تهدأ قليلًا حتى لاحظ وجود باب صغير بجوار المحراب لونه نفس لون الحائط، تقدّم نحوه وحاول أن يقوم بفتحه ففشل، أمسك سلاحه و أطلق عيارًا ناريًا حتى فُتِح، نظر بداخله كان الظلام حالكًا و لكنه علم أنه سرداب، قرّر أن ينزله حتى تهدأ الأجواء حفاظًا على سلامته.."

تخطّي بأقدام ثابتة و من خلفه العساكر ظلّ هكذا ينزل من فوق السلم الحجري بحرص شديد، لاحظ في هذا الوقت أن سلاحه لم يتبقى بداخله سوى رصاصة واحدة فقط، لم يهتم بالأمر حتى وجد نفسه فوق أرض صلبة نظر إلى جنوده وهو يقول بلهجة عربية مكسرة:

- علشان نفضل عايشين لازم نفضل هِنا لحد ما أي قوة تيجي تنجدنا من المصيبة دي...مفهوم.

هزّ الجنود رؤوسهم في وضعية الرضا والقبول.. في هذا الوقت شد انتباهم صوت أشخاص آخرين في هذا المكان ، ابتعد فرانك و أخذ زاوية حتى لا يراه أحد ومن خلفه تلك الجنود و هو يحاول أن يفهم من هم هؤلاء الأشخاص الذين

اقتحموا عليهم هذا السرداب و لكن لم تتّضح الرؤية فحسب.. حتى وجد شخصًا طويل القامة يرتدي جلبابًا يقف في منتصف السرداب و ينزل من خلفه بعض النساء و الأطفال مذعورين خائفين، نظر (فرانك) خلفه نحو العساكر و وضع إصبعه فوق فمه تحذيرًا على ألا يشعر بهم أحد، سمع صوت هذا الرجل يقول إلى النساء بصوته الغليظ:

- هتفضلوا هِنا لحد ما نقضي على الوساخة اللي فوق دول، مش عاوزكم تخافوا خالص.. قال تلك الجملة في وجوه النساء و تركهن وعاد من جديد إلى المذبحة في الخارج، ظلّت النساء يحاولن أن يطمئِن الأطفال، حتى ظهر أمامهم فرانك و من خلفه جنوده من العدم وهم يشهرون في وجههن أسلحتهم، اعتلت الدهشة على وجوه النساء و شهق جميعهن وهم يكتمن صرخاتهن و أصبح الأطفال مذعورين أكثر من قبل يبكون بصوتٍ عالٍ غير قادرين على استيعاب الموقف، ابتسم فرانك وهو يقول بنبرة آمرة و ابتسامة سمجة ظهرت على قسمات وجهه:

- إزيكم يا حلوين بالراحة كده و واحدة واحدة كلنا نضم على بعض.

لم يهتممن لما قاله و ظللن يقفن متمردين في مواجهته و في مواجهة عساكره حتى صرخ في وجههن فرانك بصوت هز السرداب بأكمله قائلًا:

- قُلت نضم على بعض كلنا، قال جملته و أطلق آخر رصاصة

في سلاحه في الهواء فخاف الجميع و علت أصواتهن جميعًا خائفين، نفّذ الجميع الأمر و تحركن ليقفن بجوار بعضهن البعض نحو زاوية داخل السرداب كما أمرهن فرانك ، اعتقد الأخير في هذا الوقت أن النساء والأطفال هم السبب الوحيد لنجاته.

وقفت زوجة عبد المنعم و هي خائفة و جسدها يرتعش خائفة على طفلها تدعو الله أن لا تأتي إليهم فاتن، و لكن نظرت وك ما توقعت وجدت أمامها فاتن تقف خلف فرانك تحتضن الطفل الصغير جاحظة عينيها، لم تستوعب المشهد أشارت لها برأسها للعودة للخارج، فهمت فاتن قصد زوجة أخيها و عادت من جديد لأعلى في هذا الوقت ظل فرانك يبتسم في وجوههن وهو يشهر سلاحه في وجوه النساء، و لكن شيئًا ما أوقفه عندما سمع صوت صرخة طفل رضيع آتيه من اتجاة السلم الحجري، هرول نحو الصوت فوجد فاتن تجلس فوق السلم تبكي و تنظر إلى الطفل الذي بين يديها، و بين عيون فرانك اللئيمة ابتسم و هو يضحك بشدة و يجذب بذراع فاتن بقوة ليجعلها من ضمن الراهائن بل من أهم الرهائن بالنسبة له، ابتسم و شعر بالنشوة أنه سوف ينجح في مبتغاة..

***

توقّف إطلاق النار في الخارج و البقيّة من العساكر الإنجليز منبطحين على الأرض في استسلام شديد ، وقف رجال العائلة ومن بينهم (فرعون) و عبد المنعم الذي أصيب في

كتفه بعيار ناري و في أيديهم أسلحتهم فرحين أن خطتهم قد نجحت، نظر (رفعت) إليهم و نظر إلى ابنه (فرعون) و احتضنه وهو يقول:

- حمدالله على السلامة يا بني، كنا لازم ننقذك بأي تمن ثم نظر نحو الرجال وتابع قوله :

- عفارم عليكم يا رجالة السويسي قالها وهو مبتسم في وجوههم ثم تابع.. فين فرانك محدش شافه هرب إزاي؟

نظر الجميع إلى بعضهم البعض و لم يتفوهوا بكلمة، في هذا الوقت سمعوا صوت مجموعة من سيارات الجيش الإنجليزي جديدة آتيه بقوة نحو العزبة و يخرج منها فوهات أسلاحتهم وبدؤوا من جديد في إطلاق النار على عائلة السويسي.. مما جعلهم ينظرون إلى بعضهم البعض مندهشين من هذا المشهد..

نظر (رفعت) بخوف نحو أولاده و أمسك برسغ ابنه (فرعون) وهو يقول:

- اهرب أنت يا فرعون في باب في الجامع جنب المحراب أدخله هيوديك لسرداب تحت الأرض، استخبى فيه لحد ما نخلّص عليهم يا بني.

- أنا مش هسيبك و لا هسيب الرجالة يابا.

- بقولك اسمع الكلام يا صدام، قال جملته بحدة و هو ينظر نظرة قوية حاسمة في عينيه فاستجاب فرعون لأمر أبيه

و جثا على ركبتيه و أخذ سلاحًا ناريًا و قنبلة يدوية من عسكري إنجليزي منبطح تحت حذائه و هرول نحو المسجد، تقدّم للأمام فوجد (متولي الراوي) ينظر إليه نظرة حقد، تبادلوا النظرات و لا ينتظر كثيرًا حتى استقرت رصاصة في صدر (متولي) صادرة من عسكري إنجليزي سقط على آثرها أرضًا يصارع الموت نظر إلى الأعلى وهو يشير بيده نحو ابنه محمد وهو فوق السطح و الذي نظر إليه بعيون باكية، و بادله الإشارة بيده الصغيرة صرخ (رفعت) وهو يقول:

- متووووولي

تردّد (فرعون) في البداية و كاد أن يتحرّك نحو متولي و لكن كان قد أخذ قراره و تقدّم حتى دخل المسجد ظل يدور حول نفسه، وجد بابًا خشبيًا بجوار المحراب مفتوحًا على مصراعيه شعر بشيء غريب سمع أصوات رجال العائلة في الخارج وهم يحاربون، ظلّ مترددًا و حاول أن يعود إليهم من جديد و لكن في النهاية قام بالدخول إلى السرداب.

ظل يتحرّك ببطء حتى اقترب من نهاية الدرج طرقت على أذنه صوت لم يفهم من هو صاحب هذا الصوت من البداية، و لكن ظلّ يخطو بخطوات بطيئة و كلما اقترب كلّما وضح الصوت أكثر حتى نظر بنصف عين فوجد فرانك يقف مستقيمًا و من خلفه جنود موجهين أسلحتهم لنساء العائلة، جحظت عيناه من هذا المشهد استشاط غضبًا عندما وجد شقيقته فاتن تقف بجلباب ممزق وهي تحتضن طفلًا رضيعًا يبكي و صراخه و صل إلى عنان السماء و زوجة أخيه تقف

خائفة تبكي بشدة، دلّك جبهته و بلع ريقه و أخذ قراره، سمع فرانك يقول بصوته:

- إنتوا هتكونوا السبب في خروجي من هنا.. و وروني بقى رفعت السويسي و فرعون هيعملوا إيه؟

قاطع صوته صوت فرعون عندما دخل عليهم وهو يُشهر في وجهه سلاحه و قنبلة يدوية في يده الأخرى قائلًا:

- لأ و أنت الصادق يا فرانك هيكونوا هما السبب في موتك هِنا.

تلفّت الجميع نحو الصوت و فرحت النساء و الأطفال عند رؤيتهم لفرعون يقف أمامهم، جحظت عينا (فرانك) و شعر بالتوتر وهو يقول:

- أنت.. أنت لسه عايش؟؟

- ربنا كتب لي عمر علشان أقبض روحك بإيدي دلوقتي.. أشار برأسه و تابع قوله خلي شوية العيال اللي معاك دول يسيبوا الأطفال الصغيرة و الستات هما ملهومش ذنب في اللي بيحصل.

ضحك (فرانك) و وجّه فوهة سلاحه في مواجهة (فرعون) وسحب فاتن بعنف و أخذها بقوة و وضعها تحت يديه و ضغط على الزناد و هو يقول:

- لو مخرجناش من هنا هموتها و هموتك بعدها

شهق الجميع و ظلّت أفواههم مفتوحة ببلاهة، جلس

الأطفال في الأرض يضعون أيديهم فوق أفواههم خائفين، نظر فرعون نحو شقيقته التي تبكي بصمت و على الطفل الذي لا يكف عن البكاء بين يديها، صوب بنظره نحو الأطفال و النساء نجح فرانك بالفعل في تشتيت أفكاره و لكن سرعان ما ظهرت ابتسامة ثقة على وجه فرعون و اقترب نحو فرانك أكثر، فرجع فرانك بخطوات للخلف وهو يمسك بشدة شقيقته فاتن التي استجابت لخطواته بسهولة اقترب أكثر فرعون فقال فرانك بصوت مرتعش

- خطوة كمان وهقتلها يا فرعون.

ابتسم فرعون و رفع سلاحه في وجه فرانك و بسرعة وجّه فوهة سلاحة نحو الجنود الواقفين بجواره و أطلق على كل واحد منهم رصاصة فوقعوا في الحال يصارعون الموت نظر فرانك نحو الجنود مذهولًا و نظر من جديد نحو فرعون و بلع ريقه وهو يقول:

- اللي أنت بتعمله ده غلط يا فرعون هتتحاسب عليه.

- لو مش عاوز تبقى مكانهم سيبها و اتفاهم معايا أنا، خليك راجل و لو لمرة واحدة

- أنت لو قربت تاني هقتلها

لم يهتم فرعون لما يقوله (فرانك) و ابتسم في وجهه ثم شدّ فتيل القنبلة التي بين يده و هو يقول:

- إحنا عيلة السويسي مش بنخاف من الموت و لو كده كلنا

هنموت مع بعض هِنا إيه رأيك يا فرانك؟

جحظت عينا فرانك و توتر و هو يعلم جيدًا أن سلاحه فارغ من الذخيرة فترك فاتن، فنظرت فاتن نحو يد فرانك التي تركتها وتحرّكت للأمام و هي تنظر في وجه أخيها احتمت خلف ظهره، فنظر نحوها و هو يصرخ فيهم جميعًا:

- اخرجوا بسرعة من هِنا.

هرولت النساء و الأطفال و هن يصعدن من جديد إلى السرداب هربًا من فرانك.. تابع فرعون خطواتهن في الخروج، فنظر إليه فرانك و تحرك بقوة نحوه و هو يلكمه لكمة في وجهه ليهرب هو الآخر، وقع فرعون وهو يحافظ على ألا تسقط منه القنبلة و نهض مسرعًا وأطلق رصاصة على قدم فرانك، فسقط متألمًا قبل خروجه تحرّك نحوه فرعون و ظلّ يلكمه بيده و بقدمه، أمسك بتلابيبه و ظلّ يلكمه بقوة أما الأخير فظلّ متألمًا من الرصاصة التي أصابته حاول النهوض و وجه مليء بالدماء و الأتربة، تحرّك بصعوبة بقدم مصابة نحو فرعون الذي كان يقف أمامه بثبات و لكن لا ينتظرون كثيرًا حتى سمعوا أقدامًا آتية بقوة و من ثم ظهر جنود الإنجليز أكثر من عشرة جنود أتوا داخل السرداب، ضحك فرانك في خبث وهو يقول:

- إحنا مش ساهلين للدرجة دي يا.. فرعون

رجع فرعون بظهره للخلف و هو ينظر نحو الجنود ونظر ليده التي تحمل القنبلة وشعر أنها النهاية ، نظر إليه فرانك

خائفًا و فهم ما يفكّر فيه فرعون قال بتوتر:

- لأ.. لأ يا فرعون.

ابتسم فرعون و هو يقترب من الجنود و من فرانك و بخفة أسقط القنبلة من يده لتدوي انفجارًا داخل السرداب جعلت أجسادهم أشلاءً..

***

قبل لحظات من صعود النساء للأعلى، ظللن يتحركن بسرعة في هرج شديد، دخل عليهم الجنود الإنجليز، هرولت فاتن للخارج هربًا من الجنود و أصبح الجنود يطلقون رصاصاتهم دون رحمة نحو الأطفال و النساء ليسقط الجميع، في الحال أتت إليهم فاطمة فرأت (فاتن)، لم تستطع الوقوف على قدميها المهترئة مختبئة في الخارج وبين يديها الطفل، نظرت (فاتن) فوجدت كل رجال العائلة قد قُتلوا على يد الإنجليز سوى أبيها رفعت و رجلين فقط من العائلة، نظرت إليهما بخوف وهي تبكي بصمتٍ بكاءٍ شديدٍ، هرولت نحوها (فاطمة) و أخذت منها الطفل و حاولت أن تساعدها للخروج خارج العزبة بأكملها، نجحوا في ذلك قبل أن تستقر رصاصة أخيرة في صدر رفعت السويسي ليسقط فوق أرض العزبة يصارع الموت.

ظلّت (فاطمة) تقف في الخارج و معها (فاتن) و ذلك الطفل، حتى رأت سيارات أخرى من الإنجليز آتية و سيارات مختلفة بداخلها شباب آخرين، تتجه هي الأخرى نحو العزبة

ظهر أمامها حنطور، صعدت هي وفاتن بمساعدة شعبان صديق فرعون و الذي كان يقود الحنطور و تحرّك بهما بعيدًا عن العزبة.

أتت بقيّة المجموعة التي نظّمها فرعون نحو العزبة، أخرجوا أسلحتهم و ظلوا يصوّبون نحو الرجال الإنجليز ليسقط من يسقط منهم، نجحوا في إسقاط معظم جنود الإنجليز الذين كانوا يحيطون بالعزبة و من داخلها حتى سمعوا صوت انفجار أتي من الداخل قرّروا أن يكتفوا بذلك و أن يعودوا من جديد إلى مخبئهم و هي الغرفة السرية لقهوة الحبايب

***

ظلّ الحنطور الذي تجلس بداخله فاطمة وفاتن من الفرار من سيارات الإنجليز التي كانت تلاحقة، حتى وقف أمام قهوة الحبايب اعتقد منذ البداية أنه هرب من جميع عيون الإنجليز ولكنه كان مخطئًا، كانت هناك سيارة إنجليزية بالقرب من القهوة بداخلها ضابط إنجليزي رآهم جيدًا، دخل (شعبان) و من خلفه فاطمة وفاتن، ظلّوا في الداخل لحظات كان يتتبعهم هذا الضابط حتى رأى (نعيمة) تخرج من القهوة و تذهب و لم يمر الكثير حتى عادت من جديد و بيدها زجاجة حليب، تقدّم نحوها وحاول أن يفهم منها سبب عدم فتحها للقهوة و لكن محاولته كانت فاشلة تركها و تظاهر أمامها برحيله و بعد دقائق قرّر اقتحام القهوة هو وجنوده، قام بطرق الباب بيده بقوة، لحظات من الانتظار حتى فتحت

له (نعيمة) نظر إليها و ابتسم ابتسامة خبيثة فقالت نعمية بعد ما رفعت خصلات شعرها للوراء و وضعت يديها في خصرها:

- أفندم..في حاجة يا خواجة، مش أنا لسه كنت بقولك مفيش بضاعة و القهوة مش شغالة دلوقتي.

ابتسم الضابط في وجهها حتى ظهرت أنيابه و دفع الباب بيده بقوة لتندفع معه (نعمية) للداخل، ظلّ ينظر في كل أركان القهوة بدون أن يتفوّه بكلمة هو و بقيّة العساكر، ظلّ هكذا لفترة يبحث عن شيء قامت نعمية باعتراضه أكثر من مرة، فكانت النتيجة أنه ضربها بقوة حتى سقطت على الأرض أكثر من مرة، خيط من الدماء نزف من فمها و هي لم تستسلم، حتى سمع الضابط صوت طفل يأتي من الغرفة، تحرّك بسرعة و وقف في منتصف الغرفة فلم يجد شيئًا، كل شيء كما هو حتى عاد صوت بكاء الطفل من جديد صوت مكتوم ، اقترب الضابط نحو السرير و جذبه بقوة نحوه فوجد أسفله بابًا خشبيًا صغيرًا، قام بفتحه فوجد فاطمه تحتضن الطفل و بجوارها فاتن تبكي بكاءً شديدًا خائفة، ابتسم في وجههم وهو يجذبهم للخارج.

في هذا الوقت عادت مجموعة الشباب المناضلين بسيارتهم نحو القهوة فوجدو باب القهوة مفتوحًا على مصراعيه و نعمية ملقاة أرضًا تنزف دمًا، تحركوا بحرص فوجدوا عساكر من الإنجليز في الداخل، رفع أحد الشباب سلاحه و أطلق نحوهم عيارين ناريين فسقطوا في الحال.

انتبه لصوت الضابط و هو ما زال في الداخل خرج و معه فاطمة و فاتن و ذلك الطفل، دخل بقيّة الشباب القهوة رافعين أيديهم فقال الضابط:

- بالراحة كده و ارموا أسلحتكم على الأرض..

ثم نظر إلى جنوده فوجدهم قتلى، فعقد الضابط حاجبيه غضبًا و تابع قوله:

- إنتوا قتلتوا جنود إنجليز و ده فيه إعدام زي صاحبكم فرعون، عاوز هدوء و تعالوا معايا واحد واحد، استجاب الشباب له فألقوا بأسلحتهم على الأرض و رفعوا أيديهم أمامه حتى ظهر شعبان مجددًا من العدم من خلفهم وهو يطلق عيارًا ناريًا من سلاحه استقر في رأس الضابط ليسقط قتيلًا، صرخت فاطمة و فاتن و هرولوا للأمام فأمسكت نعيمة بيد فاطمة وهي تقول بخوف:

- لازم تهربوا من هنا دلوقتي لازم تسيبوا الغربية كلها، حد من الشباب هيوصلكوا لمحطة القطر خدوا أول قطر و اهربوا ملكمش قعاد هنا.

قالت فاطمة بخوف:

- طيب و أنتي يا ست نعمية؟؟

ابتسمت نعمية و هي تقول:

- متقلقيش عليا أنا واخدة على كده، المهم افلتي بجلدك إنتي و العيال الصغيرة دي

هزّت رأسها بالموافقة و هرولت حتى صعدت أتومبيل كان يقف في الخارج ركبه أحد الشباب و تحرك بهم نحو محطة القطار.

***

انتهت المعركة، نزل (محمد متولي الراوي) من فوق سطح المنزل وجد بركة من الدماء يسبح بداخلها جميع أطفال العائلة و جميع النساء، ظل يمر من جانب الجثث جثث عائلته و جثث الإنجليز حتى وقف أمام جثة أبيه و جثى على ركبتيه و هو يبكي بكاءً شديدًا في هذا الوقت سمع صوت سارينة سيارات الشرطة المصرية أتت في هذا الوقت، فوجدوا جميع الجثث ملقاة على الأرض ما عدا ذلك الطفل تحرك الضابط نحوه و هو يقول بهدوء:

- أنت كويس؟

لم يرد عليه محمد و ظلّ ينظر أمامه، عيناه تذرفان بالدموع بصمت

نظر الضابط نحو الجثة التي أمامه و هو يقول:

- شكله أبوك مش عاوزك تخاف خالص إحنا معاك.

ابتسم محمد و اقترب نحو الجثة و ظلّ يأخذ بدماء أبيه حتى كتب فوق جدار المسجد

" أين أنتم عندما تبعثرت أشلاؤنا"

***

(2)

القاهرة عام 2000

جلس (محمد متولي الراوي) داخل منزله أمام طاولة الشطرنج يضع يده فوق ذقنه و ينظر إلى الشطرنج بتركيزٍ شديدٍ، في هذا الوقت سمع مفتاح يولج في الباب ومن بعده تكة بسيطة ليفتح باب المنزل و تدخل منه ابنته (ديجا) قال وهو مازال ينظر إلى رقعة الشطرنج:

- كُنتي فين؟!

شهقت ديجا، و نظرت نحو الصوت فوجدت أباها يجلس أمام طاولة الشطرنج كعادته حاولت أن تهدأ قليلًا، و ابتسمت و هي تحاول أن تجمع شتات أفكارها و أعصابها التي أُتلفت في التو ثم قالت بتردد:

- أنا.. أنا كُنت في الجامعة.

نظر إليها نظرة قوية بوجه متجهّم وهو يقول بصوته:

- مش المفروض النهارده مكانش عليكي محاضرات زي ما بلغتي زميلتك إمبارح في التليفون ز

بلعت ريقها بصعوبة و هي تحاول أن تخرج من ذلك الموقف فابتسمت وهي تقول:

- أصل يا سيادة اللواء حصل.. قاطع قولها و هو يقول:

- اللي حصل إنك بتكدبي عليّا يا فاتن، ألقى جملته كالقنبلة

في وجهها ثم نهض من مقعده، و تقدّم نحوها. بلعت ريقها خائفة ووصلت دقات قلبها إلى أقصاها اقترب منها أكثر وهو يقول:

- مخبية عليا إيه يا فاتن و كنتي بتعملي إيه إمبارح في مكتبي؟!

ضمّت شفتيها و رعشة ظهرت على أناملها، أصبح وجهها شاحبًا لم تعرف ماذا تقول فقال هو بصوت غليظ:

- انطـــــقي

لم تتمالك أعصابها في هذا الوقت و ذرفت عيناها بالدموع وهي تقول:

- أنا ماليش ذنب يا بابا.

عقد حاجبيه وهو ينظر في عينيها بعدم فهم قائلًا:

- إيه اللي مالكيش ذنب فيه؟ اتكلمي

شعرت في هذا الوقت أن قلبها سيقفز من صدرها فقالت:

- عمر

نظر إليها و أمسك بذراعها بقوة وهو يقول:

- ماله عمر؟

و قبل أن تتفهوّه بكلمة، دقّ جرس الباب، نظرت نحو الباب وأفلتت من بين يد أبيها و تحرّكت مسرعة نحو الباب و كأنها وجدت ضالتها، قامت بفتحه فرأت الصول (عتمان) يقف

مستقيمًا أمامها، نظرت إليه بعدم فهم جاء أبوها من خلفها عاقدًا حاجبيه وهو يقول مستفهمًا:

- عتمان! إيه اللي جابك هِنا يا عتمان؟

- متآخذنيش يا باشا بس مقدرتش أستنى أكتر من كده.

نظر محمد الراوي إلى هيئة عتمان قائلًا:

- أدخل يا عتمان، ثم نظر إلى ابنته (ديجا) و تابع قوله و هو يقول لها أدخلي على الأوضة بتاعتك وهنكمل كلامنا بعدين.

هزّت رأسها متفهمة قوله و هرولت نحو غرفتها و أغلقت على نفسها من الداخل.. تقدّم عتمان حتى دخل الشقة نظر إليه محمد الراوي و هو يقول:

- في إيه يا عتمان إيه اللي جابك هِنا

بلع عتمان ريقه وهو يقول:

- الجريمة القديمة يا باشا.

انتفض محمد الراوي و أمسك بساعده بقوة و وضع يده الأخرى فوق فمه و نظر نحو غرفة ابنته ليطمئن إنه مغلق و هو يقول:

- أنت مجنون يا بني آدم أنت وطّي صوتك بنتي تسمعك، تعالى نكمّل كلامنا في مكتبي.

تحرّك محمد الراوي و من خلفه (عتمان) جلس الأخير على الكرسي المقابل له، فشدّ محمد أطراف الحديث وهو يقول:

- جايلي دلوقتي و بتفتح قصص قديمة ليه يا عتمان حصل إيه؟

بلع عتمان ريقة بصعوبة وهو يقول:

- عزبة فرعون يا باشا و اللي حصل فيها من خمسة و عشرين سنة و الراجل و الست اللي قتلناهم،

زفر محمد الراوي بضيق و بنفاذ صبر و هو ينظر إلى سقف الغرفة وقال:

- مالهم يا بني أدم...اخلص

بصوت مرتعش قال عتمان:

- الست اللي اتقتلت وقتها

- مالها؟

- جتتها ظهرت من جديد لعمر باشا.

لحظة من الصمت توقف بها الزمن في هذا الوقت بالنسبة له، تذكّر وقت الحادث ثم نظر إلى عتمان وهو يقول:

- ده إزاي حصل الكلام ده أنت متأكد؟

هزّ الأخير رأسه وهو يقول:

- متأكد يا باشا زي ما أنا متأكد إنّي قاعد قدام معاليك دلوقتي

هرش محمد الراوي في رأسه وهو ينظر إلى عتمان و تابع:

- عارف ده معناه إيه يا عتمان؟

هز عتمان رأسه بالنفي فتابع محمد الراوي قائلا:

- ده معناه إن الست دي مماتتش من خمسة و عشرين سنة.. إحنا لازم ندخل العزبة من تاني يا عتمان.

قال عتمان وهو يشير بيده إلى صدره قائلًا:

- قصدك أدخلها أنا يعني يا باشا؟

- إحنا الاتنين هندخل عزبة فرعون وهندخل البيت و النهارده.

***

(3)

عزبة فرعون 11 أكتوبر عام 1975

اهتزازات المصباح بالقرب من العزبة بعثت الحياة من جديد، تنعكس ظلال لشخصين يتسللان إلى داخل العزبة، أحدهما طويل القامة رفيع الجسد يرتدي جلبابًا واسعًا و يحمل مصباحًا في يده والآخر شاب في أواخر عقده الثاني يرتدي قميصًا فضفاضًا و بنطلونًا كلاسيكيًا ونضارة طبيبة تملأ وجهه الصغير، يسير ببطء خلف صاحب الجلباب بخوف و ذعر أوقفه بيده و هو يقول متلعثمًا:

- أنـــ..أنت جايبنا هِنا ليه يا عم (جمعة) مش المفروض نروح المقابر؟!

نظر إليه (جمعة) وهو يقول بصوت غليظ:

- الله مالك يا بشمهندس (حسن) مش على بعضك ليه يعني أنت خايف من العزبة ومش خايف تروح المقابر؟

رفع الشاب نضارته بسبّابته وهو يقول:

- دكتور أنا دكتور (حسن) مش مهندس

ابتسم (جمعة) ليكشف عن سن ذهبية في فمه و هو يقول:

- قصره يا دكتور (حسن) أنت طلبت مني جماجم لجثث تعمل عليهم أبحاث و كلام كبير كده اللي زي حلاتي مابيفهموش.. أنا جايبك هِنا علشان أديلك حاجة نضيفة و

محدش يشم خبر بوجودنا و يمسكنا و نروح في حديد، هنا في عزبة فرعون يا دكتور (حسن) الخير كله موجود متقلقش أنت وسيبلي نفسك خالص..

نظر الدكتور (حسن) حوله فوجد ظلامًا دامسًا سوى إضاءة المصباح التي تتراقص أمام عينيه داخل حوش العزبة، حيث وقف جمعة ثم وضع المصباح على الأرض و دسّ يده في جيب جلبابه و أخرج مفتاحًا صغيرًا و تحرك بخفة نحو كوخ صغير في بدابة حوش العزبة، فتح الكوخ و أخرج فأسًا و عاد مسرعًا إلى الدكتور (حسن) الذي كان يقف مضطربًا خائفًا، سمع الكثير من الحكايات المُخيفة عن تلك العزبة من أهل الغربية جميعًا.. وقف (جمعة) أمام (حسن) و هو يقول بنبرة صوته الغليظة و هو يبتسم:

- أديني جبت العِدّة، نص ساعة بالكتير و حبايبك هيكونوا في حضنك.

ارتعش صوت حسن وهو يقول:

- حبـــ.. حبايبي مين يا عم جمعة.

ضحك الأخير و هو يضربه بيده الغليظة على كتفه وهو يقول:

- الله حبايبك يا بشمهندس الجماجم يا بيه.

ابتسم حسن ابتسامة مجاملة في وجه جمعة فتابع الأخير قوله:

- إحنا هنتحرك لحد الجامع المهجور اللي هناك ده، و هنبدأ حفر و متقلقش من حاجة بس المهم أنت متنسانيش في الحلاوة، قالها جمعة و هناك ابتسامة لزجة ظهرت على قسمات وجهه، هز حسن رأسه متفهمًا قوله.

تحركا نحو العزبة فوقف حسن مذعورًا وهو يمسك بذراع (جمعه) قائلًا:

- عم جمعه في عربية واقفة هِنا هو في حد في العزبة.

- الله ده اسمه إيه ده.. مين اللي اتجنن في عقله و دخل العزبة في الوقت ده

- لتكون حكومة قالها حسن وهو يصوّب نظرة في الظلام

- إيه العبارة دي بقى حكومة إيه؟

ظلّوا لحظات في حيرة حتى شدّ نتباههما و وقف الزمن بهما لحظات عندما سمعا صوت عيار ناري صادر من المنزل الذي يتوسط العزبة، ضربات قلبهم وصلت إلى أقصاها و أصبحت القصص التي سمعها حسن من قبل تدور في رأسه، أمسك بجلباب جمعة و هو يقول خائفًا:

- يالا بينا يا عم جمعة من هِنا.

ارتعشت إضاءة المصباح و ارتعش معها جسد جمعة و ظلّت عيناه متصلبتين نحو المنزل و نحو الصوت الذي سمعه منذ قليل، ثوانٍ و خرجت من باب المسجد من بعيد امرأة أربعينية تهرول، تريد أن تنجو من خطر يلاحقها تسقط

على الأرض وتتسخ ملابسها، تنهض بخفة مرة أخرى و تكمل فرارها دون أن يفهم حسن و جمعة شيئًا، ظلّت تلوّح بيديها نحوهم ليساعدوها، لحظات من الاندهاش ظهرت على قسمات وجه حسن و لكن بدون تفكير تحرّك نحوها ليساعدها لتركب سيارتها المرسيدس و تهم بالخروج من العزبة نهائيًا..

***

خرج (محمد الراوي) مسرعًا من المنزل يهرول خلف فاتن ليلحق بها هي الأخرى حتى وجدها تستقل سيارتها و تذهب خارج العزبة، أخذ أنفاسه و نظر فوجد شخصين يقفان في مدخل العزبة رفع (جمعة) يده وهو خائف، نظر إليهما (محمد الراوي) و رفع سلاحه في وجههما وقال:

- إنتوا مين و إيه اللي جابكم هِنا؟

قال (جمعة) متلعثمًا بعد ما أسقط الفأس من يده وقال:

- إحنا.. كن..كنا جاين بالصدفة

ابتسم محمد الراوي وهو يقول:

- صدفة؟ صدفة إيه اللي تجيبكم في الوقت ده هِنا، انطقوا إنتوا مين بدل ما أفرّغ مسدسي فيكم إنتوا الاتنين،

قال الدكتور (حسن) بثبات:

- أنا الدكتور حسن إهدى حضرتك إحنا ممكن نقدر نساعدك

نظر إليه (محمد الراوي) ونظر إلى هيئته وهو يتحكّم جيدًا في سلاحه وقال:

- دكتورا وتقدر تساعدني إزاي

أمسك (جمعة) بيد الدكتور (حسن) وهو يقول:

- هو مش قصده حاجة يا باشا.. إحنا يا بيه هنرجع مطرح ما جينا و كأنك مشفتناش

ابتسم محمد الراوي وهو يقول:

- مش بالسهولة دي إنتوا شوفتوا كل حاجة و أنا مش هسيبكم تمشوا من هنا لحد ما تساعدوني زي ما صاحبك ما قال، امشوا قدامي و أي حركة مش طبيعية أنا مش مسئول عن رد فعلي.

تحرّك كلًا من (جمعة) وهو رافع يديه خائفًا و بجواره يسير دكتور (حسن) و من خلفهم تحرّك (محمد الراوي) و(عتمان) مُشهرين أسلحتهم في مواجهتهم حتى اقتربوا من المنزل، فوقف جمعة و حسن فقال (محمد الراوي)

- اتحركوا و ادخلوا البيت

استدار (حسن) و نظر إليه بعد ما رفع نضارته بمعصمه و هزّ رأسه متفهمًا قوله ثم تحرّك حتى دخلوا المنزل، و فور دخولهم وجدوا (راشد السويسي) غارقًا في دمه وبجواره (فاطمة) شهق (جمعه) بخوفٍ وهو يقول:

- يا نهار أسود و منيل قتيييل

- مش عاوز قلق هِنا فاهم.. قالها (محمد الراوي) بغضب ثم تابع قوله وهو ينظر إلى الدكتور (حسن) قائلًا:

- تقدر تشوفهم عايشين ولا خلاص ماتوا؟

نظر إليه (حسن) و هزّ رأسه، و تقدّم بحقة نحو (راشد) و جثى على ركبتيه و قام بفحصة فوجده قتيلًا، ثم تحرّك نحو (فاطمه) وقام بفحصها فوجد جرحًا في رأسها ينزف دمًا وضع يده فوق عنقها فلم يجد نبضًا، نظر إلى (محمد الراوي) وهو يقول:

- الاتنين ميتين للأسف

صرخ جمعة وهو يقول:

- يا نهار أسود يا نهار أسود

نظر إليه محمد الراوي بخوف و مسح قطرات العرق التي كانت تملأ وجهه وقال:

- حيث كده بقى اتحركوا معايا نخرّجهم من هنا و ندفنهم برّه

- إيه ندفنهم مستحييل قالها (حسن) غاضبًا

- أومال أنت فاكر إيه يا دكتور يالا اتحركوا بدل ما تبقوا مكانهم.

لحظات من الصمت و التفكير حتى استجاب حسن له، تقدّم جمعة هو الآخر بأقدام مهترئة و قام بمساعدة الدكتور

حسن هو والصول عتمان قاموا بإخراج الجثتين للخارج، أصبحت ملابسهم ملطخة بالدماء حتى وصلوا بهم إلى تلك المظلّة، وقف محمد الراوي و أمرهم بوضعهم أسفل المظلة حتى ينتهوا من الحفر، تقدّم محمد و قام هو و الصول عتمان بحمل راشد السويسي ووضعه أسفل المظلة و لم يعلم (محمد الراوي) في هذا الوقت أن الجرح الذي أصيب به في رأسه تساقط منه بعض قطرات الدماء التي لطخت مقعد المظلة دون أن يشعر.. ثم قام الدكتور (حسن) وجمعة بحمل فاطمة و وضعوها بجوار راشد.. مرّت نصف ساعة تقريبًا حتى انتهوا من الحفر. نظر إليهما محمد الراوي وقال لهم:

- دلوقتي نزّلولهم في الحفرة

وضع حسن يده فوق خصره مرهقًا و مسح بيده المتسخة قطرات العرق التي نبتت فوق جبينه و نظر من جديد نحو الجثث فوجئ في هذا الوقت أن يد المرأة تتحرك فتحرك نحوها دون أن ينظر إليه (محمد الراوي) ثم وضع يده فوق قلبها فوجد أن قلبها عاد من جديد لينبض ، بلع ريقه بخوف و تشاجرت الأفكار في رأسه ثم اقترب من (محمد الراوي) قائلًا:

- كنت عاوز طلب من حضرتك يا باشا

نظر إليه محمد وقال:

- عاوز إيه؟

- أنا دكتور تشريح و أصلًا كنت جاي هنا أخرّج جثة أشرحها

فبطلب من حضرتك ندفن الشاب و نسيب الست الكبيرة دي ليا أنا هشرّحها و محدش هيشك فيا خالص بما إن دي مهنتي.

نظر إليه (محمد الراوي) بشك و نظر نحو الجثث وقال:

- لأ الاتنين هيدّفنوا في الحفرة دي.

- أنا بترجّاك يا باشا، وغير كده محدش هيحس بأي حاجة وبدل ما تبقى جثتين تبقى جثة واحدة و نخلص و ماتشيلش هم الجثة التانية دي خالص

زمّ محمد شفتيه و ظلّ يفكر قليلًا ثم قال:

- موافق بس عارف لو اللي حصل و اللي شُفتوه ده إتقال لحد، أنا مش همانع إن تكون نهايتكم زي نهايتهم، أنا ضابط شرطة و مفيش أي حاجة تدينّي. الدور والباقي عليكم اللي بصماتكوا في المكان كله و على الجثث أظن كلامي واضح.

- ماتشيلش هم يا باشا، أنت مش هتشوفنا تاني نهائي، و إحنا مش هنفتح بؤنا بأي كلمة بس توافق إنّي آخد الجثة.

هزّ محمد رأسه بالموافقه فابتسم (حسن) و قام بحمل جثة راشد بمساعدة جمعة و قاموا بدفنها، ثم تحرّك مسرعًا و قاموا بحمل فاطمة هي الأخرى و تحركوا بها حتى وضعوها في سيارتهم و ذهبوا بعيدًا عن العزبة

***

(4)

القاهرة عام 2000

ظل (عمر) يدور في رأسه كلام شقيقته و كان يعلم في قرارة نفسه أن أمه بالفعل هي التي معها مفتاح تلك الألغاز كلها، في النهاية استقر (عمر الراوي) بسيارته أمام عقار فاخر في إحدى أحياء وسط البلد الراقية جالسًا بداخلها، بين يديه تلك الصورة التي أخذها من شقيقته ، ينظر إلى تلك الفتاة التي تقف بجوار والده بتركيز شديد بعد لحظات شد انتباهه وقوف سيارة أخرى أمام نفس العقار، لتدلف من السيارة امرأة حين لمحها (عمر) تذكر وصف أبيه لها.. ترتدي تاييرًا أبيض يتناسب مع عمرها في بداية عقدها الخامس محتفظة بجسدها البض المشدود شعرها الأسود الداكن منسدل على كتفها ترتدي نضارة طبية يحمل وجهها جمالًا مرممًا بثلاث عمليات تجميل، تتقدم بكعبها العالي نحو العقار لتدخله و في يدها حقيبة جلدية متوسطة الحجم وقفت أمام باب شقة في ذلك العقار، بجواره لوحة زجاجية منقوش فوقها (جيهان نصر الله) للاستشارات القانونية، دفعت الباب لتدخل بخطوات واثقة، هرول نحوها (إمام) شاب في منتصف عقده الثاني ليحمل من يدها تلك الحقيبة و يخطو بجوارها بخطوات سريعة، عند دخولها للمكتب وقفت أمامها موظفة الاستقبال وهي تتصنع ابتسامة على ملامح وجهها الدقيق، وقفت (جيهان) أمام تلك الموظفة و قالت بصوتها الرخيم:

- كل الموظفين موجودين؟

هزّت الموظفة رأسها و قالت:

- كلهم موجودين يا فندم

- تمام..بلغيهم إن في اجتماع بعد نص ساعة علشان هوزّع عليهم القضايا الجديدة قالت جملتها ثم نظرت إلى (إمام) الذي يقف بجوارها يحمل حقيبتها و تابعت قائلة

- و أنت يا (إمام) سيب الشنطة دي و اعملي القهوة بتاعتي بسرعة

- عينيا الاتنين يا أستاذة

قالت جملتها الأخيرة و تحرّكت نحو غرفة مكتبها، تقدّمت ثم جلست خلف مكتبها فوق مقعدها الوثير رتّبت بعض الأوراق المتناثر فوق المكتب و أصبحت تُخرج بعض الأوراق من حقيبتها، نظرت إلى تلك الصورة الموضوعة أمامها دائمًا فوق مكتبها صورة لها في مرحلة عمرية مختلفة و يقف بجوارها ابنها الصغير (عمر) يمسك يدها و بين يديها تحمل ابنتها (ديجا) و هي تضحك ضحكة تلقائية، و هم ينظرون ثلاثتهم إلى الكاميرا، ابتسمت و هي تتذكّر أولادها التي تركتهم منذ خمسة عشر عامًا قطع شرودها دخول (إمام) يحمل صينية نحاسية، تقدّم ثم وضع فنجان القهوة أمامها ثم رحل للخارج، أمسكت فنجان القهوة و ارتشفت أول رشفة من الفنجان في استمتاع شديد ثم وجدت طرقتين على باب غرفتها ومن ثم دخلت عليها موظفة الاستقبال وهي تقول

بأدب:

- أستاذة (جيهان) في واحد واقف بره في الاستقبال محتاج يشوف حضرتك

عقدت (جيهان) حاجبيها وهي تقول:

- واحدا مين ده قالك اسمه؟

- المقدم (عمر الراوي) يا أستاذة ابن حضرتك

لحظة من الصمت و الاندهاش و عدم التصديق كيف أتى إليها (عمر) بعد هذه السنوات؟ كم مرة حاولت جاهدة أن تراه؟ و كان يرفض رؤيتها رفضًا قاطعًا؟ كم من مرة كانت تريد أن تشرح له أسباب ابتعادها عنه؟ و رفض أن يقابلها من الأساس كم كانت تلك الجملة التي ألقاها في وجهها يومًا " أنا أمي ماتت من زمان" ترن في أذنيها و جعلتها تبكي بكاءً شديدًا، هو الآن يقف في الخارج يريد أن يراها، ضربات قلبها وصلت إلى أقصاها، احمّر وجهها ثم ابتسمت و هي تنظر إلى الموظفة قائلة:

- دخّليه بسرعة و مدخليش أي حد علينا و بلغي كل المحامين إن الاجتماع اتلغى.

هزّت الموظفة رأسها متفهمة قولها.. لحظات مرت عليها كالدهر كانت تريد تلك اللحظة منذ زمن و لكنّها الآن غير مستعدة لمقابلته، فجأة فتح الباب ودخل عليها عمر، وقف ثابتًا ينظر إليها بحرص قد أخذ عهدًا على نفسه بعدم رؤيتها

طوال حياته و الآن خَلَف الوعد، نظرت إليه و ترقرقت عيناها بالدموع و وقفت مستقيمة غير مصدقة أنه أمامها الآن، تقدمت نحوه حتى وقفت أمامه سقطت دموعها على وجنتيها ووضعت وجهه في راحة يديها وهي تنظر إلى عينه و قالت بصوت مكتوم حزين:

- أنا مش بحلم مش كده؟

أنزل يدها و وضعها جانبها، نظرت إلى يده بحسرة ثم قال بهدوء:

- لأ إنتي مش بتحلمي يا أستاذة (جيهان)

بلعت ريقها و تحركت نحو مكتبها وهي تشير بيدها قائلة:

- طيب أقعد يا (عمر).. اتفضل

تحرّك (عمر) حتى جلس على الكرسي المقابل لها، أدلى رأسه على الأرض هربًا من عينيها فشدت أطراف الحديث قائلة وهي تخرج سيجارة من علبة نحاسية أمامها و تمد يدها في وجهه وتعيد ابتسامتها قائلة:

- لسه بتشرب سجاير في الحمام زي زمان و لا تقدر تشربها قدامي دلوقتي؟

نظر إلى يديها باكتراث وقال:

- متشكر يا أستاذة (جيهان)

أخذت نفسًا ملأت صدرها بالهواء و هي تقول:

- أستاذة؟ أنا أمك يا (عمر)

- أنا أمي ماتت من خمستاشر سنة

قالت بلهجة مفتعلة:

- لأ يا عمر أمك مامتتش أنا لسه عايشة، و دي حقيقة مش هتعرف تغيرها اللي بيني و بين أبوك حاجة و أنت وأختك حاجة تانية خالص

ابتسم ابتسامة سخرية وقال:

- إنتي متعرفيش حاجة عننا، تقدري تقولي لي ليه سبتينا، كنت لسه عيل صغير و ديجا كانت لسه عندها خمس سنين و كنا محتاجينك، بكل أنانية بعدتي عننا

بلعت ريقها و قالت بعيون دامعة:

- كنت عاوزة آخدكم معايا أبوك اللي رفض

- كنتي عاوزة تخدينا و نسيبه كلنا مش كده.. ده كله علشان اتصاب وهو في مهمة؟ كلامه عليكي كله كان صح

- متظلمنيش يا عمر.

- اللي زيك مينفعش يعيش أصلًا خسارة فيه الهواء اللي بيتنفسه

- بلاش إهانة أنت متعرفش حاجة

ابتسم و وضع قدمه اليمنى على اليسرى و شبك أصابعه و نظر إليها قائلًا:

- أنا عارف كل حاجة

- لأ أنت متعرفش حاجة.. أبوك مش الشخص اللي أنت متخيله يا (عمر)

ضم شفتيه وهو يقول ساخرًا:

- بتقولي أي كلام.. صحيح البقاء لله في جوزك اللي توفى، كلها سنة و تتجوزي غيره

استجمعت قواها وهي تقول:

- عمر لو سمحت كفايا لحد كده

- نفسي تقوليلي سبب مقنع يخليكي تسيبينا و تسيبي بابا في الوقت ده

- مكنتش هقدر أكمل

- ليه؟

- علشان مكنتش هقدر أكمل مع واحد قاتل يا عمر

صرخ عمر في وجهها و قال بغلظة مفتعلة:

- هو في إيييييه؟

هدّأت من ثورته وهي تقول:

- إهدى يا (عمر) و أنا هحكيلك كل حاجة

نظر إليها و لم ينبس بكلمة، نظرت إليه وبيد مرتعشة وضعت سيجارة بين شفتيها تمايل عمود دخان أزرق إلى

السقف وقالت:

- أنا و أبوك كنا بنحب بعض أوي يا (عمر)، و منكرش طبعًا إنه هو ساعدني كتيير أوي في بداية حياتي ، اتجوزنا و عيشنا حياة جميلة زي أي اتنين بيحبوا بعض، المهم جينا سنة 74 أبوك جابلي خبر إنه اتنقل الغربية هيخدم في الوحدة السرية اللي هناك اللي اتسمت كده قبل حرب 73 و بلّغني إنه هينزل كل خميس و جمعة القاهرة.. وقتها كنت أنت لسه طفل عندك أربع سنين، وافقت رغم إنّي كنت مضايقة من قرار نقله ده.. بس أنا كنت فاهمة كويس طبيعة شغله و بحترم قراراته، المهم فضلنا كده لمدة سنة بينزل خميس وجمعة بس من كل أسبوع..

و جه في يوم مكنش في ميعاد نزوله جالي وش الفجر متوتر جدًا و عصبي أوي استغربت وقتها يا ترى حصل إيه.. سألته عن سبب توتره مكنش بيرد عليا خالص بس مهتميتش أوي، قُلت تلاقي مشكلة في الشغل أو حاجة.. جالي بعدها بكام يوم وقالي إنه قدم طلب نقل من الغربية و عاوز يرجع تاني يخدم في القاهرة و فعلًا حصل كده.. ومن الوقت اللي رجع فيه القاهرة من جديد بدأت ألاحظ عليه حاجات غريبة متوتر طول الوقت مش بيتكلّم خالص و بيحلم بكوابيس كل ما ينام.

- كوابيس متعرفيش كان بيحلم بإيه؟

دفنت سيجارتها في المطفأة التي أمامها وقالت:

- كان بيحلم بواحد اسمه (راشد) و يقوله دي أرضي دي عزبتي و كمان بيقول أنا مرضتش أأذيكي يا (فاتن)، وقتها كنت بصحي وأفوّقه من الكابوس ده، كان بيقوم جسمه بيتنفض كله و كان بيبقى عرقان أوي يشرب ميه و يهدى و يكمل نوم. فضلنا على الحال ده لحد ما جيت ولدت أختك (فاتن) كنت أنا عاوزة أسميها خديجة بس هو كان مصمم إنها تتكتب (فاتن) وقتها افتكرت الاسم اللي كان بيقوله في الحلم "أنا مرضتش أأذيكي يا فاتن" طبعًا زي أي ست كنت غيرانة ومرضيتش أواجهه لحد ما عدى 3سنين وجه في يوم حلم بكابوس وقال جمله مش قادرة أنساها

اعتدل عمر في جلسته وقال متلهفًا:

- ها قال إيه؟

نظرت إليه وتابعت:

- قال كنت لازم أقتلك يا راشد عزبة فرعون مش عزبتك، وقتها فضل يكرّر الجملة دي.. أنا خُفت و بما إن أنا محامية شكّيت في أبوك و فضلت أدوّر وراه في كل حاجة.. ليه ساب الغربية و طلب يتنقل تاني للقاهرة؟ ليه كان متوتر يوم ما جالي وش الفجر؟ بس للأسف موصلتش لحاجة خالص.. لحد ما جيت في يوم قعدت مكانه قدام طاولة الشطرنج و كنت بدوّر على حاجة، لقيت درج خلفي للطاولة سري أول مرة ألاحظه، فتحته لقيت قصاصات ورق جرايد لجريمة حصلت سنة 75 في الغربية دي نفس السنة اللي أبوك كان

بيخدم فيها، بس الغريب اللى خلّاني مستغربة إن الجثة اللي لقُوها لواحد اسمه (راشد)، شكّيت أكتر في أبوك و واجهته و ساعتها اعترف لي بكل حاجة، نبرته اتغيرت معايا و قالي أيوه أنا قتلته، و هددني وقالي لو نطقتي بحرف هقتلك إنتي كمان، طلبت منه الطلاق موافقش في الأول لحد ما لوى دراعي قالي لو عاوزة تتطلقي هتسيبي الأولاد، بعد تفكير وافقت و مكنش ينفع أتكلم خالص، أولًا علشان مهزّش صورته في عنيكم.. ثانيًا هدّدني لو اتكلمت هيقتلني فاطلّقت من سكات و حرّم عليّا إنّي مشوفش أي حد فيكم.

انتهت (جيهان) من الحديث و انتظرت أن ترى رد فعل (عمر)، نظر إليها عمر يحاول أن يستوعب ما قالته (جيهان) ، تشاجرت الأفكار في رأسه و استجمع قواه من جديد و نهض بدون أن يتفوّه بكلمة، هرول مسرعًا و ذهب خارج المكتب تمامًا مع نظرات أمه له بحسرة شديدة.

***

خرج (عمر) من مكتب والدته (جيهان نصرالله) متخبطًا. كم من الصدمات اكتشفها واحده تلو الأخرى، لم يتسطع التحمل أكتر من ذلك و لكن بدأ يرتب الأحداث برأسه و أصبحت الخيوط تتشابك أمام عينيه ، استقل سيارته و ذهب بها إلى منزله في أحد أحياء مصر الجديدة نصف ساعة كانت كافية للوصول أمام منزله أغلق باب السيارة، و بوجه صارم صعد الدرج و بحث عن مفتاح الشقة في سترته فلم يجده ضغط على الجرس فصدر صوت رنين عصفور، لحظة من الانتظار

حتى جاءت شقيقته (ديجا) تفتح له الباب، نظرت إليه بوجه شاحب و قالت مندهشة:

- (عمر)! أنت مسافرتش؟

تقدّم حتى دخل المنزل و هو ينظر بعينيه نحو غرفة والده ويقول:

- بابا فين؟

- اسكت يا عمر بابا عرف إنّي دخلت الأوضة بتاعته امبارح وكان عاوز يعرف كل حاجة منّي بس ربنا ستر.

عقد حاجبيه و هو يقول:

- ربنا ستر إزاي يعني؟ هو فين؟ هو مش موجود.

- قبل ما أنطق و أقر بكل حاجة الباب خبّط فتحت لقيت الصول (عتمان) جه قعدوا مع بعض شوية و أخده و نزل و قالي إنه هيرجع متأخر

اندهش عمر و قال هامسًا وهو مشدوه:

- الصول عتمان؟؟؟

ظلّت شقيقته تثرثر عن مخاوفها عندما يأتي أبوها مجددًا، ولكن عمر لم يعرها اهتمامًا لما تقوله، نظر نحو طاولة الشطرنج وتحرّك نحوها جثى على ركبتيه وظل ينظر إليها بتركيز شديد من كل جوانبها فلم يلاحظ شيئًا، وضع يده أسفل الطاولة فوجد شيئًا، نظر بعينه وجد درجًا سريًا أسفل

الطاولة قام بفتحه فسقطت منه قصاصات من الجرائد المصرية و الإنجليزية، أمسكها و قرأها بالترتيب

جريدة مصرية عام 1945

عنوان بخط عريض باللون الأحمر " ماذا يحدث في مصر" مذبحة آل فرعون و التي كتبت عنها جميع جرائد العالم هي أشبة بحرب مُصغّرة داخل الغربية، لماذا قام أهالي تلك العزبة بتلك المكيدة؟ هل لمقاومة الجيش الإنجليزي فقط أم لأسباب أخرى؟

جريدة مصرية عام 1960

أصبحت عزبة فرعون لعنة على كل شخص يمرُّ من أمامها، حاولت الحكومة المصرية أخذ تلك الأرض لمشاريع قومية و فشلت في ذلك، و لم يوضح أحد المسئولين سببًا واضحًا لفشلهم في ذلك الأمر.. هل بالفعل عزبة فرعون لعنة أم مجرد سراب وحكايات أسطورية يتداولها البعض؟

جريدة مصرية عام 1975

بعد مرور أكثر من ثلاثين عامًا من مذبحة فرعون المعروفة في محافظة الغربية قد اكتشف أحد رجال الغربية جثّة شخص، قد عثر عليها كلب بعدما نهش القبر و قام هذا الشخص بإبلاغ المركز المحيط بهذه المنطقة و عند ذهاب قوات الشرطة برئاسة (محمد متولي الراوي) قد تم اكتشاف أن هذا الشخص توفّي منذ أسابيع فقط و جسده لم يتحلّل بالكامل و قد عُثر على بعض الأوراق في ملابسه لإثبات

الشخصية و كان من الغريب أن بعد أكثر من ثلاثين عامًا من يوم المذبحة يوجد جثة حفيد عائلة السويسي المعروفة و هو (راشد عبد المنعم رفعت السويسي) ولكن الذي أدهش الجميع أن بعد تشريح الجثة اكتشفوا أن ذلك الحفيد قد تم قتله برصاصة إنجليزية مثل التي قُتل بها بقيّة عائلته منذ ثلاثين عامًا، مستقرة في صدره. فهل يُعقل أنّ بعد كل هذه السّنوات يُقتل و يُدفن حفيد السويسي بنفس طريقة قتل بقيّة العائلة؟ سؤال لابد من تفسير له..

انتهى (عمر) من قراءة القصاصات التي يحتفظ بها أبوه، أصبحت كلمات أمّه ترنُّ في أذنه. ولكن وقف الزمن به لثواني واسترجع آخر ورقة من الجريدة و مسح عينيه حتى وقعت على اسم المجني عليه " راشد عبد المنعم رفعت السويسي" وكأنّه سمع هذا الاسم من قبل، تشاجرت الأفكار في رأسه حتى انتفض و وضع يده في جيب سترته و أخرج كل ما في محفظته الجلدية، وضع ما بها أمامه و ظلّ يبحث حتى وجد الكارت الذي أخذه من المحامي (مصطفى) و قرأ الاسم بعينه " مصطفى راشد عبد المنعم السويسي" أصبحت دقّات قلبه تزيد تذكّر كلمات مصطفى له " إحنا هِنا كلنا بنكمل الدايرة مفيش حاجة اسمها ضدف"

نهض بوجهٍ متجهمٍ و أخذ كل متعلقاته من جديد ثم دفس جميع القصاصات في جيب سترته ثم نظر نحو طاولة الشطرنج وحرّك الوزير ليبقى في مواجهة الملك وقال بثقة " كش ملك" أنهى جملته و رحل مسرعًا مع نظرات شقيقته

التي لم تفهم شيئًا و التي تركته دون أن تعارضه..

***

مرّت ساعتين، ظلّ عمر يسير بسيارته في شوارع القاهرة مشتتًا حتى وصل به الحال في إحدى حواري القاهرة الشعبية أمام عقارٍ، نظر نحوه و نظر إلى الكارت الذي معه تأكّد أن العنوان صحيح، خرج من سيارته و ذهب نحو العقار و صعد حتى وقف أمام مكتب مصطفى العطار كان الباب مفتوحًا على مصراعيه، تقدّم حتى دخل، وجد (جهاد) السكرتيرة تجلس خلف مكتبها و بين يديها طبق صغير به لب و سوداني و تنظر إلى تلفاز صغير أمامها، عندما رأت (عمر) يدفع الباب و يقف في مواجهتها وقفت وهي تقول برذاذ خارج من فمها:

- أهلًا يا فندم.. اتفضل

نظر يمينًا ويسارًا فلم يجد أحدًا فقال:

- أستاذ مصطفى موجود؟

قالت بنفس الحماس أيوه موجود ...اتفضل لحد ما أديله خبر.. قطع حديثها خروج (مصطفى العطار) من غرفته و معه صديقته في المكتب (مريم هاشم) فوجد (عمر الراوي) يقف أمامه فقال متعجبًا:

- المقدم عمرا

ابتسم في وجهه (عمر) و اقترب منه وهو يقول:

- إزيك يا متر محتاج أتكلم معاك شوية.

- طيب حضرتك جاي بنفسك كنت بلّغني كنت جيت لحد مكتبك.

- الموضوع مكنش مستحمل التأخير يا متر بس، ممكن نتكلم لوحدنا شوية.

نظرت إليه (مريم هاشم) و قالت:

- طيب أستأذن أنا يا أستاذ مصطفى. نتقابل بكره إن شاء الله

أشار مصطفى إلى غرفته وقال:

- اتفضل يا عمر باشا.

دخل مصطفى ومن خلفه (عمر)، جلس الأخير على الكرسي المقابل لمصطفى فنظر (عمر) و قال:

- مكتبك شيك جدًا يا (مصطفى).

- ده من ذوقك والله يا عمر بيه.. بس خير إيه السبب اللي مكنش يستحمل التأخير يا باشا.

تردّد (عمر) في البداية و لكنه استجمع قواه، و أخرج سيجارة من علبته و نفث دخانها بهدوء، ظلّ (مصطفى) يتابع (عمر) بدون أن يقاطعه منتظرًا أن يدخل في صميم الموضوع، وضع (عمر) يده في جيب سترته و أخرج بعض القصاصات من الجرائد من جيبه وفردها أمامه على الطاولة

وهو يقول:

- مصطفى أنا جاي النهارده و عاوز أبلّغك بموضوع مهم، كلامك معايا في مكتبي في الغربية أنا اقتنعت بيه، إحنا فعلًا في دايرة و كلنا بنكملها و وجودك و وجودي في الغربية في نفس الوقت مكنش صدفة.

مال (مصطفى) بجسده للأمام و رمق (عمر) و قال مستفهمًا:

- أنت وصلت لحاجة يا باشا.

في هذا الوقت وجدوا باب الغرفة يندفع و تدخل عليهما من جديد (مريم هاشم) بوجه شاحب ، نظرا إليها بعدم فهم فقال (مصطفى)

- في إيه يا مريم.. إنتي مش عارفه إن أنا و الباشا بنتكلم؟

بلعت ريقها وقالت بتردد:

- الحيزبون!!

رمقها (مصطفى) و مال برأسه وهو يقول:

- أفندم!

- قصدي الست العجوزة اللي جتلنا من كام يوم و كانت عاوزة توكلك قضية،

نظر (مصطفى) إلى عمر ثم عاد بنظراته إليها وهو يقول:

- الله يرحمها مالها يا مريم؟

قالت بتردد وهي تشير بيديها للخارج

- واقفة بره محتاجة تقابلك أنت و المقدم (عمر).

جحظت عينا (مصطفى) و نظر إلى (عمر) ببلاهة، الذي نظر إليه مشدوهًا مصدومًا..

***

(5)

وقف كل من سليم و مِن خلفه رقية و أحمد مندهشين داخل السرداب بعد أن اشتعلت الأضاءة النيون من حولهم و وجدوا عم (جمال البهنساوي) يقف أمامهم مبتسمًا حتى ظهرت أسنانه الصفراء و بجواره تلك المرأة العجوز.. كتموا صرخاتهم و تبادلوا نظراتهم لبعضهم البعض في هلع شديد، حتى بلع (سليم) ريقه بصعوبة و بادر بالحديث و أردف قائلًا:

- عم جمال هو في إيه بالضبط ومين الست دي؟

وقفت (فاتن) بثقة و هي تنظر إليهم و الابتسامة تملأ وجهها المجعد و قالت بهدوء من جديد:

- أهلًا بيكم يا شباب في عزبة فرعون.

نظر (سليم) إلى (أحمد) فرفع الأخير كتفه بعدم فهم، فعاد من جديد ينظر إلى تلك العجوز وقال:

- ممكن نعرف إيه اللي بيحصل هِنا بالضبط؟

ابتسمت (فاتن) وهي تنظر إلى (جمال البهنساوي) و قالت بصوتها الرتيب:

- إنتوا دخلتوا البيت ليه إمبارح.. إنتوا مش عارفين إن الفضول بتاعكم ده ممكن يسبب لكم خطر على حياتكم؟

بلع سليم ريقه و نظر إلى (رقية) فبادلته نفس النظرة المُخيفة، فقالت العجوز من جديد:

- عمومًا أنا كنت متوقعه إنكم هتعملوا كده.. عارفة كويس إنك ذكي يا (سليم) إنت و زميلتك (رقية) وعلى فكرة (جمال) حس بيكم، و شافكم كويس بس اتظاهر إنه مش واخد باله منكم..

زفر (سليم) بضيق و هو يقول بنفاذ صبر:

- ممكن نعرف كل اللي بيحصل ده؟ و بيحصل ليه؟ إحنا مش فاهمين حاجة.

مالت فاتن برأسها وقالت ببحة مخيفة:

- وجودكم هنا إنتوا التلاتة مش مجرد صدفة يا سليم، أنا اللي جبتكم هنا و دلوقتي إنتوا هنا علشان تنفذوا كل كلمة أنا هقولها.

- إنتي مين أساسًا؟ و يعني إيه إنتي اللي جبتينا هنا؟ إحنا جينا هنا بإرداتنا و مش هنّفذ أي حاجة غير لما نفهم كل حاجة.

تغيّرت ملامح فاتن إلى الجديّة وقالت بنبرة صوت حادة:

- أحب أعرّفكم بنفسي أنا (فاتن السويسي) صاحبة أكبر أسهم في جريدة الساعة و اللي طلبت من رئيس التحرير إنه يبعت لنا صحافين للعزبة.. و يا (سليم) أنت مش في الجرنال بتاعك و لا مع نسوانك اللي بتنام في حضنهم كل ليلة، أنت دلوقتي في عزبة فرعون و اللي المطلوب منكم هتنفّذه.. سواء بإرادتكم أو لأ.

طريقتها في الحديث بثّ الرُّعب في قلب (سليم)، نظر إلى أصدقائه، وجد الرعب يحتل مركزه الأول على قسمات وجههم، فتمالك أعصابه وهو يعود بنظراته إلى تلك العجوز مجددًا و يقول:

- و إيه المطلوب؟

قالت (فاتن) بنفس النبرة:

- أنا محتاجة لكم تصوروا و تكتبوا كل حاجة هتحصل دلوقتي هنا داخل السرداب

قالت (رقية) من خلف سليم قائلة:

- و إيه اللي هيحصل هنا علشان نكتبه؟

قال (جمال) بصوته الغليظ:

- ماتستعجلوش يا أساتذة هتعرفوا كل حاجة في وقتها.

عادت فاتن و صعدت درجتين ثم جلست فوق كرسي خشبي كبير، و قالت وهي تنظر إليهم:

- ودلوقتي جهّزوا الكاميرا بتاعتكم و سجّلوا كل اللي هيحصل، دي فرصة ليكم مش هتتكرر تاني ياريت تستغلوها كويس.

نظر (أحمد) إلى سليم فهزّ الأخير رأسه بتنفيذ ما تقوله لهم العجوز، و خلع حقيبته من فوق ظهره و أخرج بعض المعدات و الكاميرا، حتى سمعوا صوتًا انتبه إليه الجميع، صوت

خطوات أقدام تنزل ببطء من فوق السلم الحجري، حتى ظهر شخصًا طويل القامة يرتدي جلبابًا واسعًا، نظرت إليه فاتن و ابتسمت وهي تقول:

- كويس إنك متأخرتش.. أحب أعرفكم يا شباب بـ (رجب العطار)

***

تبادلت نظرات الاندهاش بين (عمر) و (مصطفى العطار) وتوقّف الزمن بهما عندما سمعا بوجود تلك المرأة بالخارج، لم ينتظرا كثيرًا حتى ظهرت تلك المرأة من خلف (مريم) ترتدي ملابسها السوداء المعتادة، فجرجرت (مريم) نفسها إلى الخارج وتركتهما بمفردهما، تقدّمت العجوز بجسدها المحني للأمام مع نظرات الاندهاش بين (عمر) و (مصطفى) و هي تقول:

- متستغربوش و بلاش تخافوا مني للدرجة دي أنا موجودة هِنا علشان أفسّر لكم كل اللي بيدور في دماغكم دلوقتي..

نهض (عمر) و اقترب منها وهو يتذكّر ملامحها و هي جالسة أسفل المظلّة ،عقد حاجبيه وضمّ شفتيه في حيرة و قال بنبرة حادة:

- إنتي إزاي موجودة دلوقتي هنا.. إنتي إزاي لسه عايشة.. و إزاي خرجتي من المستشفى..

تقدّمت أكثر بعكازها حتى مرّت من أمام (عمر) بدون أن

تتفوّه بكلمة، و جلست على الكرسي المقابل له وهو ما زال واقفًا يتابع حركاتها البطيئة ، نظر إلى (مصطفى) الذي كان غير قادر على استيعاب ما يدور حوله، فقطعت نظراتهما بصوتها وهي تقول:

- ممكن تقعدوا علشان نقدر نتكلم و أفهمكم كل حاجة

جلس (مصطفى العطار) وهو مصدوم، فنظر إليه (عمر) وجلس هو الآخر فنظرت (فاطمة) إلى القصاصات الموضوعة على الطاولة أمامها و ابتسمت ابتسامة ساخرة وهي تقول:

- شكلك كده يا (عمر) وصلت للحقيقة و كنت جاي لمصطفى تتأكد من شكوكك.

تبادلت نظرات (مصطفى) إليهما بعدم فهم وهو يقول مستفهمًا:

- حقيقة إيه؟ وشكوك إيه؟ أنا مش فاهم حاجة.

نظرت إليه (فاطمة) وهي تقول:

- هفهمك يا متر كل حاجة.. بس الأول ياريت نعرف من (عمر الراوي) وصل لإيه بالضبط.

تجهّم وجه (عمر) و أخرج سيجارة من جيب سترته وأشعلها بيد مرتعشة، و نفث دخان سيجارته ليعلن عن موجة من السحاب الأزرق و قال بتردد:

- أنا مش فاهم إنتي تقصدي إيه؟

رجعت بظهرها للوراء و هي تنظر إلى القصاصات و تقول و هي مبتسمة:

- الحقيقة إنك فاهم كويس أنا أقصد إيه يا (عمر)

- ما تفهّموني في إيه؟.. قالها (مصطفى) مستفسرًا

ظلّت (فاطمة) تنظر في عين (عمر) بمكرٍ ، دون أن يفهم عمر ما بداخلها ثم نظرت إلى (مصطفى) قائلة:

- الحقيقة يا (مصطفى) أنت و المقدم (عمر) بتربطكم صلة قرابة

عقد (مصطفى) حاجبيه وهو يقول متعجبًا:

- قرابة؟! قالها وهو ينظر إلى (عمر) الذي بادله نفس النظرة.

هزت (فاطمة) رأسها وهي تقول:

- اسمحوا لي أحكي لكم الحكاية من الأول و علاقتي بالعزبة وكل اللي حصل و إزاي أنا قاعدة قدامكم دلوقتي..

نظرا إليها في اهتمام شديد.. فنظرت إلى الفراغ و بدأت في الحديث:-

من زمان في الغربية كانت في عزبة لعيلة كبيرة اسمها عيلة السويسي كبيرها هو الحاج (رفعت السويسي)، العيلة دي كانت كبيرة جدًا تجارتهم و حياتهم كلها كانت داخل العزبة.. و كان من ضمن ولاد رفعت السويسي واحد اسمه (فرعون) شاب مناضل ضد الاحتلال بيدافع عن المظلوم و بيقاوم

الإنجليز، و في يوم عرف إن أخوه الكبير (عبد المنعم) ربنا رزقه بمولود اللي هو (راشد السويسي) أبوك يا مصطفى

رمقها مصطفى وهو يتبادل النظرات مع (عمر الراوي) فتابعت (فاطمه) قائلة:

- وقتها (فرعون) مفكّرش و قرّر على طول إنه ينزل العزبة يبارك لأخوه و للحاج رفعت السويسي بس للأسف وقتها حصل اللي كان خايف منه.. الإنجليز وقتها كانت محاوطة العزبة و أول ما ظهر (فرعون) اتمسك و اتقبض عليه و صدر قرار بإعدامه داخل عزبة السويسي و قدام أهله علشان يكون عبرة للي زيه..

أخرج (عمر) سيجارة و تناولها على وجه السرعة وهو يقول:

- و فعلًا أتعدم؟

ابتسمت (فاطمة) وهزّت رأسها وقالت:

- في الوقت ده يا شباب الحاج (رفعت السويسي) رفض الكلام ده و جمع العيلة كلها عنده في بيته و قرروا كلهم، إن قبل ما الإنجليز تعدم (فرعون) العيلة تحاول تهرّب فرعون، بس مكانش يعرف الحاج رفعت وقتها إن من ضمن العيلة و واقف وسطيهم واحد خاين.. خان العيلة كلها و ده يبقى (متولي الراوي) جدك يا (عمر)

- نعم!!! إنتي بتقولي إيه.. قالها (عمر) غاضبًا

فنظرت إليه (فاطمة) وهي تقول:

- يا ريت يا سيادة المقدم تسمعني للآخر.. فنظر إليها (عمر) عاقدًا حاجبيه دون أن يتفوّه بكلمة أخذت (فاطمة) نفسًا ملأت صدرها بالهواء و قالت:

- متولي الراوي يبقى ابن أخت (رفعت السويسي) أخته الوحيدة و اللي رفعت السويسي كان ممسّكه معظم تجارته، و كان بيثق فيه جدًا.. بس للأسف مكانش قد الثقة دي.. و في يوم الإعدام حصلت مذبحة أشبه بحرب مصغرّة داخل العزبة بس طبعًا (متولي الراوي) في الوقت ده بلغ الإنجليز بالمكيدة اللي رفعت السويسي محضّرها وقتها.. المهم حصلت المذبحة محدش نجي منها كل العيلة ماتت و اتدفنت في أرض العزبة.. المذبحة دي اتكلم عنها العالم كله.. و ماتت عيلة السويسي كلها و مفضلش من العيلة دي غير (فاتن السويسي) بنت رفعت السويسي الصغيرة (و راشد السويسي) حفيده اللي كان وقتها عنده يومين أنا اللي هربت بيهم قبل ما يموتوا هما كمان.. هربت بيهم بره الغربية كلها وقعدت بيهم عند ناس قرايبي في القاهرة و بعد كده عرفنا إن في واحد كمان عاش من يوم المذبحة اللي هو (محمد الراوي) أبوك يا (عمر) و اللي يبقى جده برضو رفعت السويسي هرب و اتربى مع خاله الضابط في القاهرة، و تمر الأيام و السنين و (راشد السويسي) يكبر و يتجوز (لبنى العطار) و لبنى تبقى حامل في (مصطفى) في الوقت ده كانت في أزمة مالية بنمر بيها، فقررنا أنا و راشد و فاتن

نرجع من تاني العزبة و نحاول نبيعها بس كان في واحد منتظرنا و مستنينا نوصل للعزبة من زمان و بأي شكل كان طبعًا (محمد الراوي) الضابط اللي ماسك الوحدة السرية في الغربية.

نظر (عمر) إلى (مصطفى) فوجده منتبهًا لكلام فاطمة جيدًا فتابعت فاطمة وهي تقول:

- وقتها اتهمنا بقتل أبوه و طالب بحقه في الأرض ولما رفضنا و اعترضنا قام قتل (راشد السويسي) و كان هيقتلني أنا كمان أو بمعنى تاني فكّر وقتها إني مُت بالفعل بس ده محصلش، كان في دكتور شاف كل حاجة الدكتور (حسن) فهّمه إني فعلًا ميتة و قاله إنه هياخدني لشغله بما إن هو دكتور تشريح و ميهتمش بالجثة دي و فعلا هرّبني الدكتور حسن و فضل معايا لحد ما بقيت بصحة كويسة، و ساعتها ملقيتش راشد جنبي و لا لقيت فاتن و مكنتش أعرف فين (فاتن)، يا ترى ماتت هي كمان؟ و لا قدرت تهرب بره العزبة.. فضلت معرفش عنها حاجة لفترة طويلة، المهم هربت وسافرت بره مصر ولما رجعت، عرفت إن لبنى العطار اتوفت وإن مصطفى بقى محامي و عنده مكتب فكّرت إن لازم مصطفى يعرف الحقيقة، و يعرف تاريخ عيلته و ورثه، و مكنش ينفع آجي أقوله كل الحكاية بالبساطة دي، مكنش هيصدّقني وقتها بس كنت لازم أمهّد له كل حاجة، و في نفس الوقت كان لازم يوصل للعزبة بأي شكل، في الوقت ده عرفت مكان فاتن وعرفت إنها اتجوزت وعندها ولاد كمان

عرفنا أنا وفاتن إن محمد الراوي ليه ابن مقدم في المباحث الجنائية شاب شريف عادل مبيحبش الظلم غير أبوه خالص، قولنا هنعيد كل الحكاية من أولها قدام عمر و كان لازم يشوف قضية ملموسة علشان يفكّر و يدوّر على الحقيقة علشان لما نكشف الورق قدامه يعرف الحقيقة ويصدق، بس مكناش عارفين هنعملها إزاي.. اقترح علينا شخص نعيد كل اللي حصل زمان من تاني اقتنعت أنا و فاتن و فعلًا بدأنا نخطط لكل حاجة اتفقت مع الدكتور حسن يظهر من جديد مش بس كده، لأ قدرت فاتن تتفق مع عتمان، بلّغته إن هي عاوزه توصّل (عمر الراوي) للبيت في العزبة، وافق طبعًا بعد ما عرضت عليه فاتن فلوس بس علشان عتمان يخاف مكنش لازم يعرف باقي الخطة، كان لازم يتفاجئ هو كمان لما يشوف جثتي من جديد.. ساعدنا في كده (جمال البهنساوي) ابن خالي وحكينا ليه القصة من البداية و وافق يساعدنا و فضل عندنا مشكلة واحدة بس.

زفر (عمر) دخان سيجارته في الهواء وهو يقول مستفهمًا:

- إيه هي؟

- هي إزاي هتوصل أنت يا عمر للعزبة ، بس افتكرت إن في فترة خروجي بره مصر اتعرفت على ناس كتير و بقى ليّا علاقات مهمة مع ناس مهمة من ضمنهم زوجة وزير الدخلية اللي طلبت منها طلب إنها تبلّغ الوزير إن في ضابط محتاجينه يتنقل الغربية وطلبت منها إن دي هتبقى خدمة مش هنساها خالص، و فعلًا بعدها بيوم استقبلت اتصال من

زوجة الوزير و بلغتني إن في قرار صدر بنقل عمر الراوي الغربية في نفس الوقت جيت هنا المكتب و طلبت من (مصطفى) إنّي عاوزه أبيع العزبة بتاعتي و كنت عارفة إن دي أول قضية تدخل له و إنه أكيد هيوافق وهينزل العزبة يعاينها كويس.. بدأنا نرتب كل حاجة بمساعدة الدكتور (حسن) و عتمان و جمال البهنساوي بس قابلتنا مشكلة صغيرة..

قال (مصطفى) متلفهًا:

- إيه هي المشكلة دي؟

نظرت (فاطمة) وتابعت قولها:

- وقت ما كان (عمر) في البيت كنّا بنجهز كُلنا، ركنّا عربية مرسيدس نفس اللي كانت موجوده يوم الحادثة.. و اللي بيركبها دلوقتي (مصطفى العطار) و جمال البهنساوي قعّدني تحت المظلة بالشكل اللي شوفتوني بيه و مكناش عارفين إن بنت (جمال البهنساوي) صغيرة و عندها 8 سنين شافتنا ومتابعانا وفكّرتني جثة بجد، و خافت و فضلت تعيّط خفنا عليها من الصدمة و خفنا أكتر لتتكلم و تكشف الخطة كلها وقتها مكناش عارفين هنتصرف إزاي، بس عديت على خير ومشيت الخطة زي ما كنا مخططين و فعلًا عتمان خاف جدًا لما شاف جثتي و وصل خوفه ده لـ (محمد الراوي) وفاتن انتظرتك في البيت كانت عارفة إنك هترجع لها من جديد و قُلنا هنسيب كل الخيوط قدامك و أنت أكيد هتعرف تجمّعها

لوحدك و هتعرف إن الجريمة الأساسية كانت من 25 سنة بموت راشد السويسي و إن لازم القاتل يتحاسب حتى لو بعد 100 سنة و أظن إنك وصلت للحقيقة دي يا عمر..

فتح (مصطفى) فمه ببلاهة، لم يستوعب ما تقوله تلك العجوز، عقله لم يستوعب شيئًا، فقال ببطء:

- أنا مش قادر أفهم أو أستوعب اللي إنتي بتقوليه ده كله.. ده و لا فيلم هندي كل ده حصل لعيلتي.

مسح (عمر) على وجهه و هو ينظر إلى الفراغ، زمّ شفتيه حيرة ثم نظر إلى (مصطفى) وهو يقول:

- كنت بدوّر على الحقيقة و اكتشفت نصّها بس كان في علامات استفهام كتير في راسي، مش فاهمها لحد ما جت لنا الأستاذة علشان تجاوب على كل علامات الاستفهام دي..

ابتسمت فاطمة و نهضت وهي تقول:

- و دلوقتي ياريت تجهزوا علشان المواجهة و علشان الكل في انتظاركم

ما زال (مصطفى) غير مستوعب ذلك الكلام و تشاجرت الأسئلة في رأسه فقال وهو ينظر إليها:

- في انتظارنا فين؟

مرّت بعكازها و تقدمت خطوات للأمام وهي تقول:

- في انتظاركم في عزبة فرعون..

***

فرامل السيارة التي كان يقودها (محمد الراوي) أمام المنزل داخل العزبة، أدّت إلى عاصفة ترابية نظر إليه (عتمان)، فوجده يملأ سلاحه بالرصاصات و يضعه في جانبه بلع عتمان ريقه بصعوبة و نظر إليه بوجه شاحب و قال متلعثمًا:

- أنت ناوي على إيه يا باشا؟

بدون أن ينظر إليه (محمد الراوي) قال بصوته الرخيم:

- ناوي أعمل اللي فشلت إن أعمله من خمسة وعشرين سنة.. انتهى من جملته و فتح باب السيارة و دلف فخرج (عتمان) هو الآخر من السيارة و هرول خلفه، تحرّكا بحرص شديد نحو المنزل فوجدا باب المنزل مفتوحًا على مصراعيه و هناك أثار لخطوات أقدام ملطخة بالوحل نظر (محمد الراوي) إلى (عتمان)، فوجده ينظر إلى الأثار ببلاهة خائفًا كعادته، ظلوا يتتبعون أثار الأقدام حتى وصلوا إلى غرفة الجلوس و انتهت الأثار عند باب السرداب.. دفع (محمد الراوي) باب السرداب بيده فسمع صوت صرير بسيط، دفع بجسده للداخل فوجد ظلامًا حالكًا، عاد من جديد ونظر إلى (عتمان) وهو يقول:

- هو ده السرداب لازم ندخله

أمسك بذراعه (عتمان) و هو يقول:

- ما بلاش يا باشا.

زفر (محمد الراوي) بضيق وهو يقول:

- اسمع الكلام يا زفت أنت و اتحزّك ورايا.. قال جملته و مال بجسده و دخل السرداب ظل يتحرك بحرص فوق السلم الحجري حتى شعر بوجود إضاءة بالأسفل تقدّم أكثر و من خلفه (عتمان) يتحرك بأقدام مهترئة حتى وصل بهما الحال إلى أسفل السرداب كانت تلك اللحظة الفارقة بالنسبة له، وجد إضاءة قوية أسفل السرداب و وجد كرسيًا خشبيًا كبيرًا، تجلس عليه امرأة متدلية برأسها للأسفل، و بين يديها عكازًا خشبيًا عتيقًا، فور ما رآها (محمد الراوي) أخرج سلاحه من جانبه و شهره في وجهها وهو يقول بحدة:

- إنتي مين؟

رفعت رأسها ببطء فكشفت عن وجهها مع ابتسامه مخيفة، ارتسمت فوق شفتيها. جحظت عين (محمد الراوي) و رمقها بقوة وهو يستعيد ذكرياته و تفاصيل ملامح تلك المرأة فقال وهو مندهش:

- (فاتن)؟!

استندت على عكازها و وقفت تنظر إليه بحدة ثم نظرت إلى (عتمان) و قالت:

- شكرًا يا عتمان، وفّيت بوعدك و قدرت توصل لنا (محمد الراوي) لحد هِنا..

نظر (محمد الراوي) بفزع خلفه و نظر إلى عتمان، فوجده

يقف خلفه مبتسمًا على غير العادة ثم مرّ من جانبه و وقف أمام (فاتن) و أردف قائلًا:

- يارب أكون كده كفّرت عن الذنب اللي ارتكبته من خمسة وعشرين سنة

لم يفهم (محمد الراوي) شيئًا، قد تم خداعه على يد (عتمان) فظلّ صدره يعلو و يهبط بشكل غير منتظم من شدة الصّدمة فقال:

- هو إيه اللي بيحصل بالضبط؟

نزلت (فاتن) و تقدّمت بخطوات بطيئة حتى وقفت في مواجهته بالقرب منه وقالت:

- اللي بيحصل هنا و اللي هيحصل كمان شوية هي تصفية حسابات يا بن عم متولي.

- أنا مش فاهم إنتي تقصدي إيه يا (فاتن) و إيه اللي رجّعك بعد السنين دي كلها؟

ابتسمت و استدارت بجسدها و أعطته ظهرها و هي تقول:

- أنا موجودة و عايشة هنا في بيت أبويا من خمسة وعشرين سنة من يوم الحادثة فاكر الحادثة يا محمد.. بعد ما هربت منك لما شوفتك قتلت راشد و فاطمة، رجعت تاني للمكان معرفتش أعيش من غيرهم و من اليوم ده و أنا هنا داخل السرداب باجي من الوقت للتاني، موجودة في بيت أبويا رفعت السويسي يا ترى لسه فاكره؟

شد أجزاء سلاحه و هو يقول بثقة مع شبح ابتسامة ظهرت على قسمات وجهه

- شكلك كده نهايتك هتبقى زي نهاية عيلة السويسي كلها يا فاتن؟

قاطع حديثهما صوت رجب العطار الذي ظهر من زاوية أخرى داخل السرداب وهو يقول:

- لا و أنت الصادق أنت موجود هنا علشان نهايتك أنت تكون زي نهاية أبوك قال جملته وهو موجه سلاحه هو الآخر في وجه (محمد الراوي)

- الله...إنتي مش لوحدك بقى يا فاتن عملالي كمين؟

ابتسمت إليه و جلست فوق مقعدها الخشبي بدون أن تتفوّه بكلمة، فتابع (محمد الراوي) حديثه:

- و أنت مين أنت كمان وريث جديد منعرفهوش؟

ابتسم (رجب العطار) وهو يقول:

- أنا أبقى رجب العطار خال مصطفى راشد السويسي الوريث لعزبة فرعون

تساقطت قطرات عرق من جبينه وهو ينظر إلى (فاتن) قائلًا:

- و كمان جيبالي شوية نصّابين علشان يحموكي؟ النهاية هتكون واحدة لينا كلنا، كلنا هنا هنموت..

في هذا الوقت كان يقف (سليم) و أصدقاؤه في زاوي ة، لم يرهم محمد الراوي فحسب.. يقومون بتصوير و تدوين كل شيء، إنهم أمام الحقيقة التي أتوا من أجلها فهمس (أحمد) وهو يقول:

- النهاية المتوقعة لكل شيء.

نظر إليه (سليم) بعدم فهم وهو يقول مستفسرًا:

- تقصد إيه يا (أحمد)

ابتسم (أحمد) ابتسامة خفيفة و كأنه متوقع كل شيء يحدث الآن، ثم خلع الكاميرا من فوق رقبته و أعطاها (لسليم) وهو يقول:

- هتفهم كل حاجة دلوقتي.

أنهى جملته ثم نظر إلى رقية فوجدها تدوّن كل شيء في نوتة صغيرة في يدها، عاد بنظراته من جديد نحو سليم و تقدّم للأمام بدون اكتراث قال سليم مندهشًا

- أحمد أنت رايح فين؟

لم يهتم به و اقترب أكثر للأمام ظلّ يقترب أكثر من اللازم.

- يا أحمد بلاش جنان؟؟

ظلّ يسير حتى ظهر أمامهم نظر إليه محمد الراوي وهو ما زال يشهر سلاحه في وجه فاتن فابتسم ابتسامة ساخرة وهو يقول:

- إيه ده و إنت مين إنت كمان؟

فقالت فاتن بصوتها:

- ده (أحمد مهران) ابني يا محمد و أحب أعرّفك إنه هو اللي خطّط لكل ده من البداية، إيه ملامحه مش بتفكرك برفعت السويسي؟

سمع (سليم) تلك الجملة فنظر ببلاهة إليهم ولم يستوعب ما سمعه، الآن تبادلت نظراته مع رقيه التي هرشت في مؤخرة رأسها ودعكت في عينيها من شدة الصدمة، لم يفهما شيئًا، ولم يستوعبا ما يدور حولهما كيف يكون صديقهما (أحمد) الذي كان ممتنعًا عن الذهاب إلى العزبة يكون طرفًا في هذا؟ و كيف يصبح واحدًا من عائلة السويسي؟ وهو أيضًا من خطط لكل ذلك منذ البداية؟ بلع سليم ريقه فهمست رقية وهي تقول:

- أنا مبقتش فاهمة أي حاجة خالص.

أخرج أحمد سلاحًا صغيرًا من الجيب الخلفي لبنطاله و رفعه هو الآخر في وجه (محمد الراوي) و هو يبتسم و يقول بتشفٍّ:

- العين بالعين يا سيادة اللواء، أنهى جملته وقال بصوتٍ مرتفعٍ لكي يسمعه سليم و تابع قائلًا:

- طبعًا يا سليم مستغرب أنت ورقية، حابب أفهّمك إنّي أنا اللي مخطط لكل ده من البداية، أنا اللي عرّفتك يا رقية

موضوع القضية كنت متأكد إنك هتطلبي من رئيس التحرير إنك تيجي هنا العزبة، حتى إنت يا سليم كنت عارف إنك نفسك تغيّر من أسوبك ومستني قضية كبيرة، و علشان كده استنيتك قدام البوابة و أنت راجع من سهرتك مع الرقصاة حياة و بلّغتك إن رئيس التحرير بيدور عليك علشان تدخل له و تعرف تفاصيل القضية وتطلب تيجي هنا العزبة، و لو مكنتش طلعت معاكم كنت طلبت من رئيس التحرير إنّي أكون محرر تالت يطلع يغطي القضية، و لما لفت نظرك بنت عم جمال البهنساوي وهي خايفة أول ما دخلنا بيته حاولت أوقفك أكتر من مرة و دلوقتي كلنا قدام الحقيقة ياريت تكتبوا كل حاجة بتحصل هِنا بالتفصيل

ظل سليم ينظر إليه ببلاهة غير مستوعب ما يدور حوله، تتبادل نظراته بينه و بين رقية نظر (محمد الراوي) إلى (أحمد) وكأنه بالفعل يرى رفعت السويسي أمامه بهيبته بنبرة صوته فعاد بنظراته إلى (فاتن) وهو يقول بعبات:

- مش صعبان عليكي تشوفي ابنك وهو بيموت قدام عينيكي؟

- و مين اللي هيقدر يموته يا ابن الراوي؟ كانت تلك الجملة صادرة من فاطمة التي أتت الآن بصحبة (عمر الراوي) و (مصطفى العطار) لم ينظر محمد خلفه ليعرف من صاحبة الصوت، فمرّت فاطمة حتى وقفت أمامه وهي تقول:

- لسه فاكرني يا محمد و لا نسيتني؟

ابتسم محمد بخوف وهو يتحكّم في سلاحه جيدًا وهو يقول:

- كنت متأكد إنك لسه عايشة

- لسه عايشة يا محمد و الفضل يرجع لدكتور حسن طبعًا

- آاه الدكتور (حسن) اللي قدر يضحك عليّا، قال جملته وهو يقترب أكثر نحوها

فقال (رجب العطار) وهو يتحكّم هو الآخر في سلاحه:

- خطوة كمان و هنقرا الفاتحة على روحك..قالها، فتقدّم (عتمان) هو الآخر وهو يشهر سلاحه في مواجهة (محمد الراوي)

وقف (محمد الراوي) ولم يتحرّك و بخفة أخرج سلاحًا آخر من جانبه و وجّهه في مواجهة عتمان فقال (أحمد) وهو مبتسم:

- خلاص الحقيقة اتكشفت و بقيت واضحة زي عين الشمس و لّا إيه يا سيادة المقدم، اتفضل قرب و اتأكد من الحقيقة بنفسك قالها في وجه (عمر الراوي) الواقف صامتًا في نهاية السرداب.

تقدّم (عمر الراوي) بعيون مملوءة بالدموع وهو ينظر إلى أبيه قائلًا:

- كنت بحاول مصدقش نفسي و مصدقش أي مخلوق يقول عليك إنك قاتل لحد ما شوفتك يا سيادة اللواء.

قال محمد الراوي بصوت مرتعش خائفًا:

- عمر أنت موجود هنا.. متصدقش أي حاجة من اللي بتحصل هِنا، أنا كنت بحاول أجيب حقنا منهم مش أكتر.

هز عمر رأسه و هو يبكي على خيبة أمله في أبيه وهو يقول:

- إحنا ملناش حق يا سيادة اللواء في أي حاجة كله من طمعك و جشعك.

- تقصد إيه يا (عمر)؟

- لازم تسلّم نفسك يا سيادة اللواء

و ابتسم (محمد الراوي) ابتسامة ساخرة وهو يقول:

- هتقبض على أبوك يا عمر؟!

ذرفت عينه بدمعة وهو يقول بثبات:

- ده اللي كان المفروض يتم من خمسة وعشرين سنة.

تحكّم (محمد الراوي) في أسلحته الموجّهة في وجهة (فاتن) و(عتمان) وقال:

- أنا محدش يقدر يقبض عليّا حتى لو كنت أنت يا عمر

ابتسم (عمر) وهو يقول:

- إيه يا سيادة اللواء هتقتلني أنا كمان؟

- و ليه لأ يا عمر مش همانع خالص إنّي أقتلك لو نفذت اللي

بتفكر فيه.

بعيون باكية رفع (عمر) هو الآخر سلاحه في مواجهة أبيه، وأخرج الأصفاد و رفعها في وجه أبيه قائلًا:

- سلّم نفسك يا سيادة اللواء و بلاش تقاوم القوة كلها بره ومنتظرين مني إشارة

جحظت عينا (محمد الراوي) و نظر إلى فاتن، فرآها تبتسم بتشفٍّ وهي جالسة على مقعدها، ظلّ صدره يعلو و يهبط و هو ينظر إلى عيونهم جميعًا وابتسامتهم التي ظهرت على وجوههم، فنظر إلى عمر وسقطت من عينه دمعة و هو ينظر في عين ابنه الذي قرر أن ينفّذ ما أقسم عليه و أن يقوم بالقبض على أبيه.. فشعر في هذا الوقت بالاستسلام و هبطت يده بأسلحته، فتقدّم نحوه عمر ببطء ووضع يد أبيه في الأصفاد.

***

الغربية عام 2010

لم تكن فقط البداية... السماء مليئة بالغيوم الرمادية الداكنة والرياح أعلنت سيطرتها في أرجاء البلاد، أوراق الشجر الكثيفة تتساقط لتعلن عن دخول فصل الخريف.. ترجرجت سيارة الشرطة التي يقودها الصول (سالم) صاحب الجسد الهزيل الضعيف وبجواره المقدم (تميم رمزي) كانت العربة تخوض طريقًا ضيقًا غير ممهد مليء بالحُفر يهتز جسد السائق بشكل مستمر نتيجة لعدم استقرار الأرض و من حين

لآخر تغوص عجلات العربة في تلك الحفر المليئة بالمياة..
قال الصول (سالم) و هو يضحك:

- و بس كده يا فندم ده كل اللي حصل في عزبة فرعون كلها من يوم المذبحة لحد ما اتجمّعوا كلهم من جديد تحت السرداب.

نظر المقدم (تميم رمزي) إلى الصول سالم وهو يقول متلهفًا:

- طيب و بعدين إيه اللي حصل بعد كده يا سالم، المقدم عمر فعلًا قبض على أبيه؟

ابتسم (سالم) وهو يقول:

- كانت الشرطة مستنية بره و فعلًا اتقبض على اللواء محمد الراوي بس بعد سنة من حبسه جت له أزمة قلبية ومات؟

- طيب و عمر الراوي حصل له إيه؟

ابتسم (سالم) وهو يتابع حديثه:

- المقدم عمر ساب الدخلية كلها واشتغل محامي مع مصطفى العطار ودلوقتي المكتب بتاعهم كبر و بقوا من أكبر المحاميين في مصر، و قرّروا إن العزبة تبقى دار مسنين.

ابتسم (تميم) و هو يتعجّب من تلك الحكاية العجيبة التي رواها له (سالم) له عند ذهابهم إلى الغربية لخدمتهم داخل الوحدة السرية، أخرج سالم علبة سجائره و أخرج واحدة و مدّ يده بها نحو (تميم) فنظر تميم إليه وهو يقول:

- ماهو أنت عارف يا سالم إنّي مبدخنش

- عدم المؤاخذة يا باشا نسيت.. قالها سالم و وضعها في فمه

نظر (تميم) فوجد لوحة خشبية منقوش فوقها عزبة فرعون فقال وهو يضحك

- أدينا وصلنا عزبة فرعون الأسطورية.

ضحك (سالم) و نظر من نافذة السيارة فوجد خيالًا أسفل مظلة تبعد عنه ما يقرب خمسين مترًا، فرمل سيارته فجأة و نظر جيدًا فوجد شخصًا يجلس أسفل مظلة أمامه لم تتبيّن ملامحه قط ، شعر بالخوف و ضربات قلبه وصلت إلى أقصاها و بلع ريقه بصعوبه نظر إليه تميم بعدم فهم وهو يقول:

- في إيه يا سالم وقّفت العربية ليه؟

نظر إليه سالم بوجه شاحب و بدون أن يتفوّه ابتسم و شغّل من جديد محرك السيارة وهو يقول:

- لأ مفيش حاجة يا باشا أنا بس أتهيألي حاجة كده متشغلش بالك، أنهى جملته و تحرّك بالسيارة من جديد، بقلب خائف فمرت السيارة من أمام المسجد الذي قاموا بترميمه مؤخرًا، فظهرت كلمة مكتوبة بالدم قرأها جيدًا المقدم (تميم رمزي)

" أين أنتم عندما تبعثرت أشلاؤنا"

قرأها هامسًا فتعجب من تلك الجملة فحاول أن لا يهتم بالأمر حتى مرّت السيارة متجهة نحو الوحدة السرية

" وما حدث بعد ذلك ظل غامضًا"

***